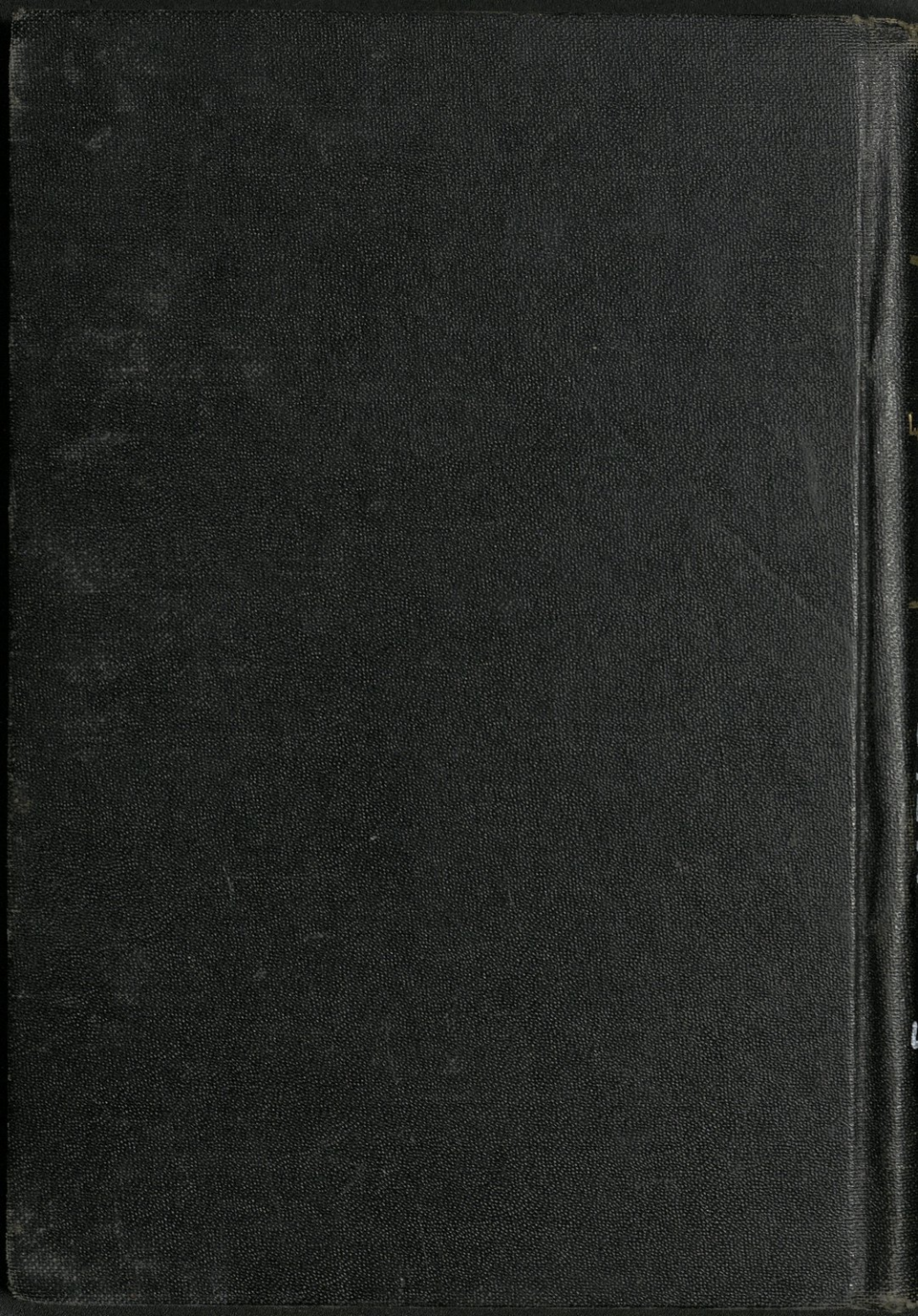
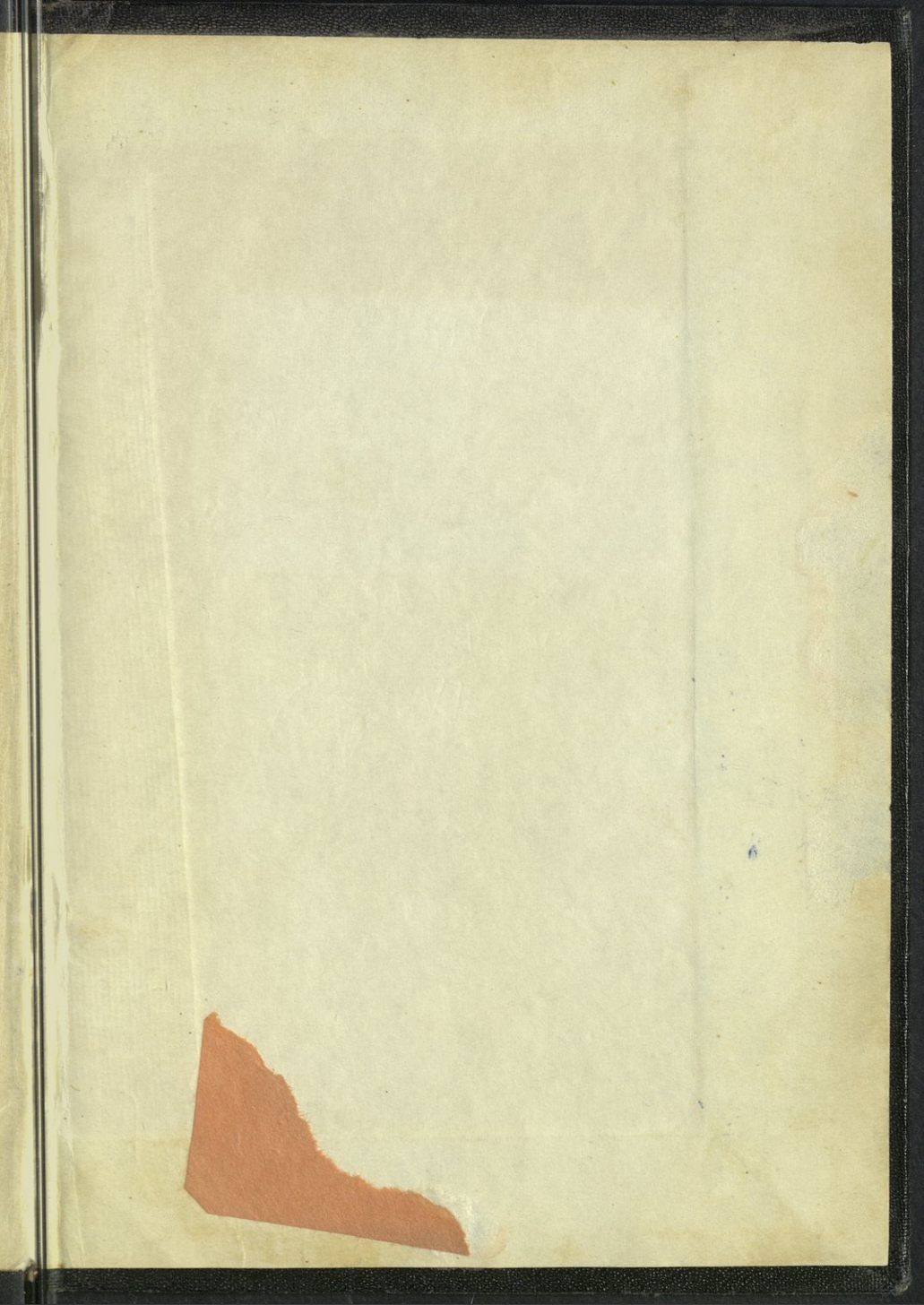






843

V86K

FE 15

MY 13

AP 16

AP 20

MY 3

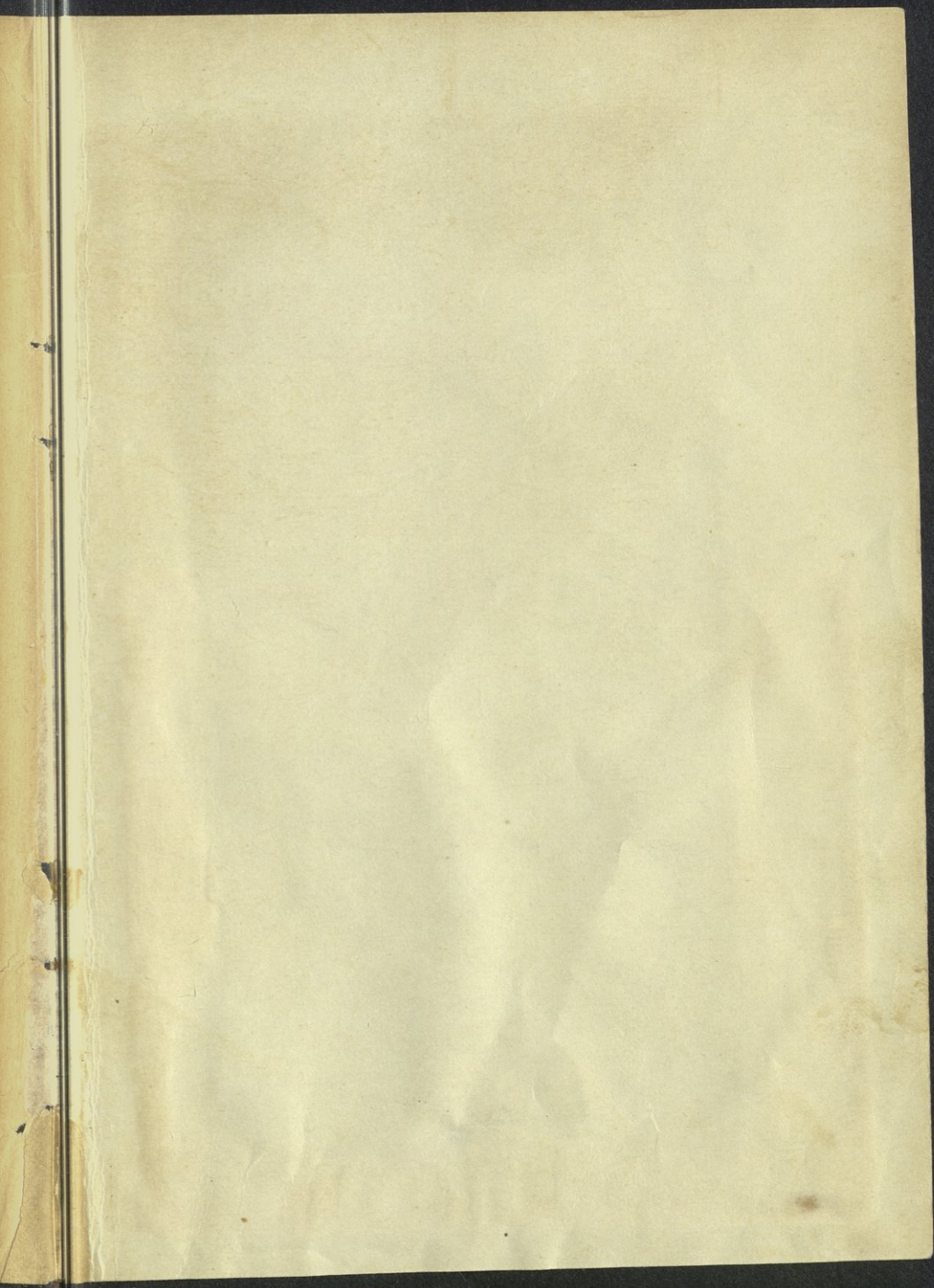
AP 22

AP 23

AP 24

AP 25

1 Feb 70



تقدمة الكتاب

الى ابي وأمي

الذين رباني تربية مسيحية اوصلتني الى دعوة الكهنوت المقدسة

الى آبائي الروحانيين في الرهبانيتين العزيزتين

الرهبانية اللبنانية التي في حضنها نشأت وبلبن روحيتها تغذيت
والرهبانية اليسوعية التي في كليتها تعلمت وثققت
وآباءها الافاضل استرشدت

أقدم كتابي تقدمة شكر وعرفان جميل

وبهم

أقدمه الى آباء العيال الكاثوليكية في لبنان العزيز

راجياً

ان يعتبروا ، لدى قراءته ، ان الدعوة الكهنوتية

شرف وسيم

لهم ولابنائهم اذا خصهم الله بهذه النعمة العظيمة

المعرب

مشموشة في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩٣٦

(ب)

مقدمة الكتاب

طالعت « خطيئتها » بالفرنسية لمؤلفها جان فيزار ، وبالعربية
لمترجمها الفاضل الفيور الاب باسيل غانم اللبناني ، فوقفت من
فصولها موقف الدهش والاعجاب ، وأحسست في سطورها الباكية
ما لم أحسّ في غيرها من الروايات والقصص . فما تكاد عينا القارى
ترتفعان عن آخر لفظة من الفاظها ، حتى يأنس من نفسه الشوق
الى مراجعتها ، والتشبع من عواطفها الثائرة المتناحرة طوراً ، الوادعة
المتعاقبة تارة ، وما يزال حتى يقرّ به الخيال تجاه سرير « المحتضر
الشاب » يخاطب صديقه « الكاتب الفتي » بأرقّ واورجع ما تأوّه
به تأب مسحوق على فراش الموت ! فيطوي الرواية قارئها ، وفي
شفتيه ترحم على نفس بطلها التأس ، وفي قلبه حرقه على الشباب
المفتون بين كلاليب الشهوات الحادة ، ونصالها المسنونة ! وفي
نفسه عبرتهز كيانه هزاً عنيفاً ، فتهيب به الى التوبة ان كان
خاطئاً ، وتدفعه في سبيل البرّ دفماً ان كان باراً ! حين انك تلمّ
بكثير من القصص ، فتسأل مؤلفيها او مترجميها عن غايتهم مما
كتبوا ، فلا تظفر منهم بجواب ، او اذا ظفرت كان جوابهم تافهاً
بارداً ، اشبه ببرودة اقلامهم المكدودة على الصفحات ، يتصبّب
من بين شقوقها عرق الموتين : موت النفس وموت الجسد !

اننا لفي عصرٍ تمسّى الوباء في عروق آدابه ، وختم الفساد على
قلوب فريق من شعرائه وكتابه ، فنكاد لا نقرأ صحيفة الا وبين
اعمدتها للرذيلة مسرح ، ولا نطالع مؤلفاً الا وفي صفحاته للقارى

(ج)

الضعيف مغرٍ يستحقه ، تحت ظواهر الادب ، على الاسترسال في ما
يقراً ، فاذا به وقد جرع السمّ المدسوس من حيث لا يدري ا
فيحاول تناول الدرياق من مؤلف آخر ، ضناً بزهره اخلاقه ان
تيس فتداس ، واذا هو متناولُ سماً على سم ، واذا الموت في
جوانب نفسه ينادي الموت ا

يا للانسانية من ويلات القرن العشرين ! البغض لله وخداؤه
يرعى القلوب ، ونفور الانسان من اخيه الانسان يعصف بالنفوس ،
فالعامل يشتر الملاك بعين يُلهبها الحسد ، والملاك يتلفت حواليه
تلفت الحذر ! وطريح الدهر يبحث عن كسوته بالسراج والقتيل ،
فيكاد لا يهتدي اليها الا في سوق الفجر ، يبيع آدابه رخيصة ،
وينجر اخلاقه على اقدام وثن الحاجة القاسي ، والغني المترف غائص
غالباً من ليله في نوم عميق ، ومن نهاره في مرج ينافس الجنون ، لا
ينبض في صدره وتر حنان ، ولا تستفز همته مكرمة او قسطاس
الانصاف يتخرج في ايدي الحكومات ترجرج المصباح في يد الاشل ،
فلا تدري ماذا تُقر وماذا تنفي ، ومن تحجب ومن تخذل ا ان هذه
البشرية الصاخبة المرتعشة ظمأى الى السلام ، والطريق المسالك الى السلام
كامنة في جانبيه الضواري ، ملتقة على منعرجاته ولياته الافاعي ا
اننا لفي عصر امست الفضيلة فيه شذوذاً ، والرذيلة قاعدة :
فبات الحيي المتصور ضحكة للواقع المتمسكين ، والمتمسك
لجملات الدين الذهبية منتقداً للمارقين ، والنازع الى دعوة
اكليزيكية هدفًا لسهام الناقين ، حتى في بعض الاحيان من والديه
واقربائه وانسابه ، واصدقائه ، ولاسيا اذا كان من اسرة شريفة

مثرية ، ولو انصفوه وانصفوا نفوسهم ، لباهوا بولدهم كاهناً تقياً ،
بل سلطاناً تغزو لحكمه سلاطين السماء والارض !

فكرة حداني اليها المقام ، ونطق بها واقع الحال ، تنبهاً
لابناء بلادي الاعزاء وارباب عيالها الكرام ، لما في المطالعة العصرية
من اشراك تنشب فيها قلوب الشبيبة الغاوية من الجنسين ، وقد
التبست عليهم افكارهم فلا يفرقون بين الضار والنافع ، الجميل
والقبيح ، وما هو الا ان يستحكم الفساد في النفوس وتحتجر
الوقاحة في الوجوه ، فيُسمي الانسان ، لا مطمح لافكاره ، ولا
هدف لانظاره ، الا المادّة ، وما كان ينبغي ان تكون الا موطئاً
لقدسيه ، وما علّة الشقاء تتجبط فيه الانسانية اليوم سوى انصراف
الانسان الى الفاني واعراضه عن الباقي !

اليك ايها العيال المسيحية أهدي هذه الرواية الواقعية باسم
مترجمها الفاضل فأقرئها وأقرئها اولادك ، فانك لا ريب واجدة
فيها ما يرضيك عن ابنائك ويفرحك بهم ، اذا تحيّر الله احدهم
خادماً لمذبحه الطاهر !

واني لاختم هذه الكلمة ، راغباً الى كل من تهزه غيرة على
الاخلاق من أدبائنا ، عالمين واكليزيكيين ، ان يجرّدوا اقلامهم
النزيهة لتحجير روايات أخلاقية بين مؤلّف ومترجم يودعونها من
قراشهم النقية السيالة ، ضرباً على غرار المترجم ، ما يقف سداً
منيعاً في وجه تيار الخلاعة الجارف ، لطف الله بنا وهدانا الى ما
فيه مجده وخير نفوسنا !

صديق المترجم



843
V86 kgA
C.1

خطبتها

تأليف الكاتب الفرنسي

جان فمزار

عربها الاب الفاضل

الفن باسيل غانم اللبناني

مدير مدرسة مشموشة

(نُشرت تباعاً في جريدة البشير)

المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

بيروت ١٩٣٦

Cat. 16 Feb. 53

CHS
V
1



المقدمة

لا يسعني انشاء مقدمة : غير اني ، وقد مالتني الفرصة ،
احتج على اوهام من يحسبون الدعوة الرهبانية او الكهنوتية
كارثة من كوارث الحياة ، في حين انهم يبتهجون بزواج اولادهم
ولو في اقاصي المعمورة ، فهذا الاحتجاج أقدمُ عليه تدفعني الحمية ،
مع الاقرار بعجزى ! وحسبي القول : طالعوا قصة جان فيزار «خطيئتهما»
اشرعوا في مطالعتها . . . قفروا في هذه المطالعة على ما قدمت جواباً

سولانج بودان

خوري كنيسة القديس اونوريوس ايلو

كاهن قانوني فخري

في باريس

لنا، حيث الحب واحد كانه ثم من عنا، فهو محبة

الجزء الاول

١

كان پول ثيولي ، معلم الصف الثاني في مدرسة اوزانام ، وقد خلفت مدرسة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٤ ، وكان يشرح پوليوكت وقد التفت قلاميذه حول منبره يصغون اليه كل الاصغاء ، فكنت تراهم جامدين ، مبهورين ، شاخصين اليه واقلامهم في ايديهم ، وقد أمسكوا عن الكتابة ، واي شيء يكتبون ؟ ان المعلم الشاب ترك الشروح اللغوية والكلمات ومآتيها وخلق النقد وطارعالياً الى ذلك العالم الادبي ، الذي لا تلجبه النفوس الا خاشعة متهيبة ، لما ترى فيه من عظمة وجمال !

لقد قرأ هؤلاء التلاميذ پوليوكت ، قرأوها مراراً ولكنهم لم يشعروا قط بما شعروا به ، في هذا المساء ، من الاعجاب بها ! قرأوها مراراً ولكنهم لم يفهموا ما فهموه في هذا المساء ولم يحيطوا علماً بما حوت من عواطف الشهامة والبطولة والايان المسيحي الحي ! من كان اجدر من پول ثيولي بشرح هذه الرواية العجيبة والتعليق عليها ، ذلك العالمي القديس ، الذي لقبه زملاؤه ومعارفوه بهذا اللقب فاصابوا الهدف ، لانه لم يكتب بالذكاء والعلم حلية له ، بل اضاف الى علمه وذكائه فضائل جمة وتقوى راهنة حملت كل

من عرفه على الاعجاب بنبوغه وقداسته حياته ، مع انه لم يرض على
مزاولته فنَّ التدريس اكثر من سنتين !
كان كلما عرض له ان يتكلم عن عظام الديانة المسيحية ، تلك
الديانة ، التي طُبِّق عليها مناهج حياته ، كان النور يشعشع من عينيه
وسياء الفرح والحماسة تتلألأ على وجهه ، فيتدفق تدفق السيل
فصاحة وبلاغة ، والتلاميذ يسمعون له سماعاً عجيباً تأخذهم
لهجته المعبرة عن اعتقاده المكين بما يقول ويطيرون معه على اجنحة
البهجة محلقاً في الاعالي . وكانت الحمية تكهرب جو مدرسته في
ذلك المساء ، فذاقت قلوب قتيانه فرحاً لا يوصف ، فرحاً كاملاً لا
يُنسى ، اذ قُيِّض لهم ان يروا سناء الخير ورونق الجمال . وشعروا
انهم اخوة لانهم أخذوا يصبون بدافع روحي واحد الى الخير الاسمي
ويجتون الى الجمال الازلي

— لا يا قتياني ، لا تصدقوا سيئي الظن ، اولئك الذين لا
يرون في العالم الا اسوداداً فيصورون عصرنا بحالك الالوان ،
وينعتونه باقمح النعوت . فليس القرن العشرون عصر الانانية القبيحة
ولا عصر الخول الديني العام : ففي عصرنا رجالٌ يحاكون بوليوكت ،
بثقافتهم ، رجال مستعدون دائماً للتضحية بكل عزيز غالٍ حفاظاً
على ايمانهم ، وهم فخر ذريتنا . واني اتقن على الله ان تكونوا منهم
يوماً . فلا يجوز لكم ، وانتم البقية المسيحية القليلة الباقية لنا ، قلت
لا يجوز لكم ان تكتفوا بالفضيلة العادية . فالذرية الجديدة
واهنة القوى أزلت بها الشهوات نوازلهما فعليكم ان تكونوا
ملحاً يصلح ما فسد من معاصريكم

كان يتكلم ناظراً الى تلاميذه واحداً فواحداً ، وقد سُفِّهَ
بهم ف شعر انه ضارب بكلامه على وتر حساس في نفوسهم ربما كان
محرراً فيها سلسلة نفحات جميلة !

ثم عطف قائلاً : « انتم الآن في الخامسة او السادسة عشرة من
عمركم ، فلا يمضي القليل حتى تصبحوا رجالاً . فلا تندفعوا مع تيار
الالعاب الرياضية وحدها ، ولا تتعشقوا ، كبعض الشبان ، القراءة
المجزية ، الخطرة ، القاضية على النبالة ، الخائفة عواطف الاحترام
لكل شيء شريف . انتم في عمر وجب عليكم ان تسرعوا فيه
بتسيير قطار حياتكم ، فسيروه الى قمة الشرف ، سيروه الى الخير ،
كونوا جديرين بن تقدمكم على هذه المقاعد ، وهم الآن في باريس
يؤلفون جماعة جميلة من الدارسين الكاثوليك ، ويعودون الينا عملاً
قليل محامين واطباء ، تجاراً ومهندسين ، مزارعين فتيين بارعين
ليخدموا وطنهم المحبوب بكل ما أوتوا من قوة . اما انتم أفلستم
بجائزين ميدان الحياة اظهارة لما انتم عليه من طول باع
وقدرة ؟

ما كان تأثير كلام پول في قلوب تلاميذه ؟ أية حمية هاجت في
صدورهم ؟ واية عواطف اختلجت في قلوبهم ؟ ما الاحلام الجميلة
الفتانة التي انبعثت من بين سطور كورنايل الشاعر القديم ؟
دقت الساعة الرابعة وقرع الجرس فخرج التلاميذ صفوفاً
وساروا في ممشي المدرسة حتى انتهوا الى الملعب . وهناك راحوا
ينعنون الواحد تلو الآخر امام سلة قصية ليأخذوا منها قطعة من
الحبز صغيرة يأكلونها متزهدين ! وخرج النظار الكهنه ينظمون

الالاب والمعلمون الاكليريكيون يتحدثون متأبطين كتبهم مع زملائهم العوام والكرة الهوائية تضرب الارض وتعلو في الجو وتسقط على جماعات التلاميذ الفرحين ، وكان منظرهم بصحتهم وجميتهم ووجوههم الجميلة يحمل اضجر الناس واشرسهم على لمجاهرة : بان النش' الفرنسي جميل فتان !!!

وفي تلك الغضون ، كان في زاوية الملعب المسقوف بعض طلبة الصف الثاني وقوفاً وامارات' التأثير والحاسة بادية عليهم يتبادلون الاحاديث ويكاشفون بعضهم بعضاً بمقاصدهم

— قال سارته وهو اصغرهم سنأ : « يارفاق الاتشعرون مثلي بالتأثير الغريب الذي يمكن المعلم ان يطبعه في نفوس الشبية؟ قال لي يوماً معلماً پول فيولي : اري انك ستكون في مستقبلك معلماً ، وفي هذا المساء تحققت انه لم يكن مخطئاً فانا اريد ان ادرس مثله لافعل فعله في العقول والقلوب ، فسأدخل دار المعلمين »

— قال جان دي ماليه متحمساً : « امأ انا فسأدخل مدرسة سان سير العسكرية فاني قد عزمت على ان اخدم فرنسة . أو ليس الاستعداد للموت محاماة عنها ، في سبيل اعلاء شأنها ، افضل خدمة نخدمها اياها ؟ »

اجاب لاموت : « انا لست نسراً لآلحق في الاعالي ، وذلك لا يمنعني من ان اكون مفيداً لوطني . انا غني ولست بحاجة الى العمل لاكسب قوتي ، فقد عاهدت النفس على دراسة الطب وسأذهب الى ارضي الواسعة في الجبل فأعني بها واطيب فقراء الجوار مجاناً . »

فصرخ الجميع : « ليحيى لاموت ساكن القصور ! »

— وانت ياريشيار ؟ انت يا مرامون ؟ الى اي الشواطىء

تقلعان ؟ ؟

كان ريشيار ومرامون تلميذين خارجيين وصديقين لا يفترقان ، وكانا ساعتئذ متجهين نحو الباب تحتي جسميها ائقال الكتب والدفاتر . فالتفت مرامون ورفع قبعته الجميلة وأجاب مبتسماً : « اين نذهب ؟ آه ! يا للسؤال العجيب ! الى السوق ! يارفاق ! الى السوق ! »

قال هذا وتواريا وراء غرفة البواب . وما لبثت الابتسامة ان فارقت شفتي مرامون وعاد الى رزائته وتفكيره ، ثم قال : ليس السوق جميلاً ياريشيار !

وقد دخلا سوقاً بناياتها حقيرة وجدرانها مشقة وفي سقفها نبت العشب وعليها تبدو علامات الفاقة والرذيلة . كان الهواء في تلك الساعة لطيفاً ، وفي ثقب بلاط السوق كانت تلمع هنا وهناك بعض نقط من المياه ، وفي وسطها مجرى ماء يلعب فيه اولاد قذرون ، نصف عراقه ، وفي الجوى اعمدة من دخان تتلوى كالحيات تقذفها مداخن المعامل العالية

كان الصديقان يعيشان جنباً الى جنب ، قاصدين الى المدينة . وكانا من حيث ظاهرهما يختلفان اختلافاً يتيماً . فلوسيان ريشيار ، وان اكبر عمراً من رفيقه هنري مرامون ، كان يالوح بلباسه القصير وجسمه الضخم وساقيه العاريتين كولد لا يرجى غموة ، بينما كان هنري مرامون آخذاً في النمو وقد زاد رفيقه في الاشهر الثلاثة الاخيرة عدة سنتيمترات طولاً ، فظهر شاباً بطول قامته النحيفة

وثوبه القاتم ولاسيا بلامح الرجولة البادية في عينيه السوداءين
الحادتين الساحرتين المنيرتين وجهه الجميل ذا اللون الاصفر
الذهبي ! !

مشيا بعض دقائق ، صامتين ، ثم قال لوسيان : « كاشفنا الرفاق
عما سيعملون في حياتهم . . . ونحن ، يا هنري ، نحن ؟ . . . »
فاجاب الفتى مرامون بصوت خافت : « نحن ! نحن ! لم نعلمهم
طلع ما نصبو اليه ! فعرضنا يسمو ما يطمحون اليه . هدفنا جميل
جدا ، يا لوسيان . ما نحن الا ولدان ضعيفان خاطئان ، ومع ذلك
فقد اختارنا الله له كاهنين »

فتنهّد لوسيان وقال : « هدفنا جميل سام ولكنني اخاف . . . »
ونظر الى حركة تعجب بدرت من صديقه ثم استورد : « ولكنني
اخاف لاني اضعف من ان اتق بنفسني ثقتك بنفسك ، واعجز من
ان يكون لي حماسة تشبه حماسك ، وما كنت لاجزو على التفكير
بهذه الدعوة المقدسة والطموح اليها لو لم تكن قد اشركتني بروحك
وامددتني بشيء من حميتك . انا اعرف الناس بنفسني ، يا هنري ،
انا متوسط الذكاء . لم يعطني الله أن اعيش عيشة هادئة ،
واتعاطى اشغال بيّتي وادير املاكي واكثر وارداتي ومن ثم اتزوج
ابنة غنية أطبق لميولي وأوفق لاخلاقي ، وهكذا لا اعرض بنفسني
للمخاطر ، ولا يضي علي سنوات حتى اصبح ملاكاً غنياً استحيط
في اموري وراحتي ومحبة ذاتي . »

— وانك لتدّم لنفسك ، يا لوسيان !

— اؤكد لك ، يا عزيزي ، ان الصواب ما قدّمت ، وان

معرفتي هذه لنفسي وميولي ترجعني ولا أطيق حملها . بحثت كثيراً
 لاجد وسيلةً فضلي تعينني على مقاومة أميالي ففهمت ، وأنا أحدثك ،
 أن خير الوسائل أن اكرّس ذاتي لربي وللنفوس . أمي ، يا هنري ،
 قديسة ، لقد عرفت أن تتدارك امري وتُعني لي فحفظت لي إيماناً
 حياً لم يلامسه ريب ولا شك . فوطئت النفس على أن اخضعها
 بري . فيينا تذهب انت الى ربك فرحاً تحملك رغبتيك وحماستك ،
 اذهب ، انا ، اليه ، واحسرتاه ! خاضعاً لاحكام عقلي الباردة !

— أهذا كل ما يدعوك الى الخوف ؟

— اخاف ان اجن ، يا هنري ، ليلة دخولي المدرسة
 الاكليريكية . انت وحدك عارف هذا ؟ لاني لم اسر به الى
 غيرك !

— أو لم تعلم به أمك ؟

— كلاً ! او قل : قد افضيت اليها بسري ولكن تلميحاً
 وبكلام جد مبهم وكان ذلك عشية احد أيام الصوم بعدان
 حضرنا معاً عظة الكاتدرائية . قلت لها فوراً : ما تقولين ، يا امي ،
 لو صرت يوماً كاهناً ؟

— ما كان جوابها ؟

— تبسّمت لسؤالي وعدته صيانياً ثم قالت ، وقد ادركت
 عاطفتها المستورة تحت حجاب مزاحها : « ارى انك ستكون انقص
 جمالاً بثوب كاهن منك بثوب ضابط ! » ومع ذلك اعرف اني لا
 ازال احبها وربّما زاد حيي لها عن ذي قبل لان محبتي ازدانت بعاطفة
 جديدة حلوة على قلب الام المسيحية ، عاطفة الاحترام !

- انها من خيرة النساء وفضليات الامهات ، يا لوسيان !
 - ما كان افطنها ! فانها انقطعت عن ذكر هذا الموضوع الذي
 كانت تحب له ولا شك الف حساب ! واني لعلى يقين من انها
 فعلت هذا خوفاً من ان اعرف ميلها ورغبةً منها في ان يتم الامر
 بين الله وبينني . على انه ابي سهر لم اشعر به في كل ساعة ا واية
 كتب جميلة مفيدة لم نقرأها معاً كل مساء ، وقد انتهيت من فروضي
 المدرسية : انت اعرف الناس بالطرق التي سلكتها لانجاحي في
 دروسي وتنبه عقلي واحرازي الفوز على كسلي شيئاً فشيئاً . ونحن
 نعيش اليوم متفاهمين متحابين اكثر من امس فما قبل ! لقد سمعت
 الولد مرات ان الذي لم يعرف اياه ينقصه شيء في حياته ، اما انا فاني
 لم اشعر يوماً بكوني يتيماً ؟ لان امي ، على حنانها ، قد جهدت
 نفسها في ان تقوم مقام ابي المتوفى في قسوتها علي ، فافلحت !
 - وكيف تجرؤ على ان لا تبوح لها بسرّك ؟ ألا يدور في
 خلدك ان تطير اليها وترمي بين ذراعيها وتطلعها على رجائك ، وعلى
 شهامتك ؟ اي مجد واية عظيمة لمن دعاه الله اليه ! ألا تشعر مثلي ،
 يا لوسيان ، بان حياتنا كلها هناك ، وان طريقنا لصريحة بيّنة ؟
 كان يقول هذا ويذهب برفيقه في طرق بعيدة تقودهما الى
 البرية لا الى المدينة

- تعال معي ولا ندخلن المدينة الآن ، فاني آس من
 نفسي الحاجة الى محادثتك عما يتعب قلبي ويثقله !
 لا بيوت حيث بلغاء بل قامت على جانبي الطريق اسوار
 البساتين تتساقط من فوقها اوراق الاشجار كلها حركتها الهواء

وتتدلى فروع الياصمين وعناقيد الازدرخت والاكاسيا الفواحة
الاريج . وقفا ، واذا بالمدينة كلها ، تنتصب امامها على سفوح
القسم . وكان يعلو سطوحها غمام كثيف من الدخان والغبار يضرب
الى الزرقه ولا ينفذه سوى قبب الكنائس تناطح رؤوسها القبة
الزرقاء .

قال هنري ميرامون : « هذه مدينتنا ! مدينتنا ! فيها عاش
اجدادنا ، فيها تعبوا وتألما ، مدينتنا ستصير يوماً حقلاً واسعاً
لرسالتنا ! مدينتنا ربما سنجعلها باتعابنا وتضحياتنا اكثر جمالاً واوفر
تغذية ! يقشع بدني يالوسيان عندها افكر بان في هذه المنازل
المتراصة ، تحت الغمام ، الوقا من الناس يعيشون في الجهل ، بعيدين
عن الحقيقة ، يتألمون ولا يتوقعون اجراً عن آلامهم في الحياة
الابدية حتى ولا يسمعون كلمة تغزيهم في هذه الدنيا

هاك ، يالوسيان ، هدفنا وارض فتوحاتنا المستقبلية ! الا تشعر
بان هؤلاء القوم سيكونون يوماً لنا ؟ ان الله سيهبنا نفوسهم مع
القدرة على تنويرهم وخلاصهم ليكافئ تضحية شبابنا . ما
هي لذات الحياة ؟ ما هي افراحها ؟ ما هي عظمة السلطة اذا
قوبلت بهذا الشرف الباذخ ؟ !

انما غرضنا ان نكون جنود المسيح البواسل ، رجالاً تريدنا
البشرية المتألمة في قريبا لنضمّد جراحها ونسكن اوجاعها ونكون
صلة بينها وبين السماء .

كانت بلابل البساتين حولها ترسل نغماتها الرخيمة ، نغماتها
الشجية ، نغماتها الساحرة ، نغماتها المحزنة اللطيفة ، وهنري ولوسيان

يتأشيان متحاذيين وقلباهما ملتهبان ، ينظران الى المدينة ويتأملان الحياة . . . يشغل عقليهما موضوع واحد ، ويلهب قلبيهما شوق واحد من اشواق الشباب من شأنه ان يدور حول العالم دفعة واحدة ويحرقه كله بنار المحبة !

٢

كان في قلب المدرسة جماعة من الطبقة الراقية ينتظرون الشروع في الزِّيَّاح ، وكان اهل التلاميذ وبعض قدماء الطلبة ، اصدقاء المدرسة امس واليوم ، يتمشون تحت اشجار البلوط والكستناء في ساحة تُصب فيها مذبح كبير ومُدَّ فوقه قماش احمر موشى بالذهب ، وجاء الخدم يضيئون عليه شموعاً كثيرة ، وكانت الوان البيارق والاعلام تلمع من هنا وهناك تحت اقواس النصر الخضراء ، وبعض الصغار الوسمي الوجوه يركضون ، وعلى رؤوسهم شعورٌ مستعارة وفي ظهورهم اجنحة زرقاء ، ليأخذ كل محله ، غير مكترئين للرصانة المطلوبة منهم وهم ملائكة الحفلة ، وكنت تسمع في مؤخر الملعب صوت مدير الحركة يلقي الاوامر وماهي هنية حتى دخل مدعون جدد قتها مس الناس : « السيد ميرامون ، والسيدة عقيلته وابنتهما » !

— ميرامون الحامي ؟

— هو هو . رجل ذو مثالة ومن عيون رجالات الكاثوليك في المدينة ، وقد كانت له اليد الطولى في ارجاع المدرسة ، فهو صديقها الحميم . هالك مدير الدروس يقبل اليه ويصافحه !

فأخذت عجوز نظارتها المعلقين بنحيط الى وسطها ووضعتهما

على عينيها لتتبعين المدعوين ثم قالت : « ان عقيلة مرامون لا تعرف قطان تتهندم وتتبرج لان من كان في ممن جسمها وضخامته يضطر ان يعدل عن استعمال المساحيق ! أما ابنتها فليس عليها من الجمال مسحة ، فهي كالزهرة في كتمها . » ثم حانت منها التفاقة فرأت سيدة ذات وجه صبيح ، لها شعر يحاكي لون الفضة . تقدمت فصافحت عقيلة مرامون فقالت وقد خفت صوتها : « هاك سيدة لا سلطة للشيخوخة عليها ، هي عقيلة ريشيار ، عنوان اللطف والاناقة ، عليها ثياب سوداء . تم عن ذوق كامل . وانا متحيرة كيف أنها لم تتزوج ثانية وقد ترملت شابة ، رغم جمالها الجذاب !

— رزقت من رجلها ولداً فقنعت به وانكبت على تربيته

انتحت عقيلة ريشيار مع صديقاتها من الملعب ابعد زاوية عن الناس . فقالت عقيلة مرامون : « ان ابنتي حزينة »

اجابت الابنة خجلة : نعم وسبب حزني ، كما تعلمين يا سيدي ، اني كنت وافقتك على حيلة تمكنتنا من حمل بنات عمي مرحولي على حضور هذا الزياح البهيج ! فلم اوفق ولا نجحت ارسالي في فجاهرني بتبرهن بي . وقلن لي : « ان الحفلات الدينية لمزعجة وان اخي يضحكهن بارتدائه ثياب اولاد الخورس » وفضلن الذهاب في السيارة الى سباق الخيل على المجيء . معي

فتنهت عقيلة مرامون وقالت : « ان هؤلاء البنات ليشغلن بالي . ماتت آمن وهن صغيرات ولم يقو اخي ابوهن على ان يدرهن لانه لم يعرف من الحياة غير لذاتها ولم يتقيد بشريعة ولا حل نفسه على امر حياته كلها . الديانة تضجره لان اوامرها

رزينة فنشأت بناته على حبّ اللهو، وارسلهن يتخرجن في المدارس العلمانية

فسأتها عقيلة ريشيار : اترينهن غالباً ؟

— لا ، فقد أخذت اتجنبن شيئاً فشيئاً ، لاني لحظت ان ما كان لي ولابنتي مادلين من سطوة عليهن قد زال . واذا كنت لا استطيع ان اصنع اليهن وبين الخير الذي اريد فلم اخالطن وأصادقهن ؟ وقد وافقتي زوجي على خطتي ، واننا نرغب كل الرغبة في ابعادهن عن اولادنا لئلا تفسد علينا عشرتهن تربيتنا لهم

— بالصواب تتصرفين . فلقد سمعت الناس يصمون بنات اخيك الجميلات بحقة الرأس !

— فلقد آثر ان يعتنق المبادئ العصرية ويتبع العادات المجونية ، وهن يجدن مادلين ابنتي الرصينة من عالم غير عالمهن . ومتى بلغ التباين في الآراء هذا المبلغ ، تعذر التوفيق بينها !

فحدّثت عقيلة ريشيار الى الصبية وقالت : « كوني من العالم القديم ، كوني من عالم غير عالم بنات خالك ، يا عزيزتي . لو علمت ما يأخذ قلبك من البهجة ، وقد رأيت من نفسك الفتاة الحقيقية ، الفتاة البسيطة الحية ، الفتاة التي كانت جداتنا يحملن بها ، الفتاة التي تأتي تطرف الرقص الاميركي وخلاعة الرقص الروسي ، الفتاة التي لا تطمح الا الى بقائها فرنسية ، اذن لفرحت برزانتك واعتبطت بجياثك !

ما انتهت السيدة من كلامها حتى فرغت الاجراس تعلن خروج الموكب للزواج . وما عثم ان خرج حاملو البيارق والرايات فراحت

تلمع بين اغصان الاشجار ، يتبعها اعضاء الجمعيات الرهبانية باثوابهم
 المختلفة الالوان . فكنت ترى على الرمل المفروش آثار اقدمهم
 وخطوطاً غريبة الهندسة ترميها اطراف ثيابهم الصوفية الطويلة .
 وعلى المحامل تغطيها الاقشة الشفافة ، كانت تلمع نقوش الذخائر
 والتماثيل المذهبة ، والحجارة الكريمة في قواعد الكاسات تحيط
 بها طاقات رمزية من الزفابق وسنابل القمح وغصون الكرمة . وهناك
 وراء صفوف الكهنة اللابسين القمصان البيضاء ، وفي وسط غيوم
 البخور ومطر اوراق الرياحين والورود كانت (الفقارة) ومن حولها
 حلل الكاهنين المساعدين الذهبية تلمع حمراء حول شعاع القربان
 الاقدس ، تحت المظلة الأرجوانية تداعب اغصان الاشجار برياشها
 الغالية

خفق قلبُ مادلين فأمسكت بذراع أمها وقالت : انظريه ،
 يا أمية ، فهو الثاني من الصف الالوين . هو هنري نفسه !
 وكان هنري وفي كفيه قفازان ابيضان يسير على بضع خطوات
 من المظلة ، وهو يرمي المبخرة رمياً متناسقاً متعادلاً ، يدل على لطفه
 ونشاطه . وكان شعره الاسود الاجعد بمثابة اكليل يحيط بوجهه
 الجميل الاصفر ، وقد طبعت عليه عظمة الموقف علامات المهابة
 والوقار ، وكان في قميصه الاحمر ودرعه الابيض المزركش أشبه
 بولئك الصبية اللاويين الذين ما فتى الفنانون الايطاليون يصورونهم
 مطرقين مفكرين !

فهامست عقيلة ريشيار صديقتها قالت :
 ما أنجل ابنك ! يحق لك ان تباهي به . واني ارى

انه قد كُبر في هذه المدة الاخيرة . أتعلمين ان لوسيان خجولٌ ببقائه
قصيراً ؟

أجابت عقيلة ميرامون ، وقد علت ثغرها ابتسامة الآهات
السعيدات : « ان ابنك سيطول بقنة ، فلا تحسدي ابني على طوله
فهو ضعيف البنية هزيلها . وهذا النمو يتعبه ويقلقني . أما لوسيان
فهو قوي العضلات ، ممين الجسم ، فانظري كتفيه ! ... »

مر لوسيان ريشيار في الصف بين جوق المرتلين فحانت منه
التفاته فرأى أمه فابتسم وحنى رأسه مسلماً . فقالت عقيلة ريشيار
وهي لا تزال ترافق ابنها بنظرها الدافق حناناً وعطفاً : يا لويز ، ان
ابنك وابني كليهما جميلان

وزادت مادلين فقالت : وهما صديقان حيان لا يفترقان ! ها
« اوراست » و« پيلاد » جديدان

.....

انتهى الزياح وتفرق القوم مقبطين بما رأوا وعاد اهل التلاميذ
فلاً والشارع الحزين روائح عطرية والواناً تبعث الفرح في القلوب ،
فقال السيد ميرامون :

— سمعتك ، يا ابنتي ، تتكلمين عن « اوراست وپيلاد » .
اشرحي الاحجية : فن تسمين پيلاد ومن اوراست ؟
فتنبه هنري وتحفز للمدافعة . فقال :

« انهم يسخرون بنا . يا ابنتي ، اني استعين بك . اما انت
ايتها السيدة ريشيار ، فساعديني . على اي شيء نؤاخذ ؟
— تؤاخذان على محبتكما المفرطة ، يا ولدي ، أما انا فلا

أرى في الامر شراً كبيراً . هذا ما تستطيعان ان تتقناه احسن اتقان
في سنكما !

قالت هذا ومدّت يدها لتصافح السيد ميرامون وعقيلته قبل
ان تفارقهما وتأخذ الطريق المفضية الى بيتها القائم في وسط
البستان وهي تسكنه منذ ترملها

— سنراك قريباً ، تعالي غداً نصرف معاً بعد الظهر في النقر
على المعزف والتوقيع على آلات الطرب والموسيقى مع مادلين
— ساجي . بكل سرور ، فالي الغد يا سيدتي

استأنفت عائلة ميرامون سيرها الى قلب المدينة ، وفيما كانت
تجتاز شارع لاورتين ، اذا بسيارة فخمة وقفت امامها بقتة وقد
تعلت من تحت سقفها المغطى بالغبار اصوات الهز . وقد قال احدها :
آه ! تباً لكم من متعبدين قديسين ! هل صليتم لاجلنا ؟

وقال آخر : عم صباحاً ، يا ابن الخورس !
وقال غيره : أسمح لنا ، يا عمي العزيز بهزي ومادلين لننهي
يومنا معها مسرورين ؟

هو السيد مارجولي واولاده في رجوعهم من سباق الخيل
فتقدم السيد ميرامون من ابن عمه الجالس مكان السائق
وهزّ كتفه وقال : ما تريدون ان تفعلوا بولدي ؟

اجاب مارجولي : لست ادري ، هذه فكرة « ليلي » ، ارى
انهم يقصدون اللهو ، هذا المساء ، لقد دعا غاستون رفاقاً له :
عزف فرقص فشرّب شاي . فادفع لهم هزري ومادلين . اما نحن
الاهل فلسنا بمدعوين . والظاهر انهم راغبون عنا

قال السيد مرامون : « ابشكم مزيد شكري . اما مادلين
فلن تخرج الا مع أمها ! كذلك هنري » . وما هو ان فاه بهذه
الكلمات حتى لمح رأسين يبرزان من تحت سقف السيارة ، وشرر
الغضب يتطاير من أعينهما ، وقد صرخا بوجهه :
خذ ولدك ، خذهما ، يا اكروه الاعمام !

— وانت يا عمة ، ما بالك لا تقولين شيئاً ؟ ... أأنت
ايضاً تحظرين الرقص ؟ !

— انني حانقة عليكين ، ما عشت !!
فابتسم السيد مارجولي وهو يقول : ارأيت يا أختي ، انكما
لم تنجوا من صواعق غضبهن ! قال هذا وحرك مقود سيارته
فانطلقت تعجّ يخاط عجيجه دمدمة بنات مارجولي وتذمرهن
قائلات :

— يا لوالدين القاسيين الجلادين ! انكما يا ولدي عمتنا
لشهيدان بل لضحيتان للظلم . اننا لثري لكما !!

اما الشهيدان الفتيتان فراحا يضحكان حتى وصلا الى بيتهما في
شارع غمبنا . ولما دخلا المائدة للعشاء نظر هنري فرأى على المائدة
قرصاً من الحلوى شهياً للنظر طيباً للمأكل ، فسأل لعابه وقال :
« ان عذابك ، ايتها الأنسة الشريفة ، واستشهادك يقومان
بان تموتي جوعاً وعطشاً امام هذا الكرز اللباق البراق وامام قطعة
الشوكولاته هذه المحشوة زبدة شهية . »

جلست العيلة الى المائدة وراح الوالد يسكب الحساء ويقول :
ان هولاء الاولاد واباهم يعميهم الطيش فأسف يا لويز ان يبني

اخوك لاولاده مستقبلاً مظلماً . ان ابنه غاستون ثمة يالسة يعجب بنفسه وليس على شيء من الذكاء . وحتى الآن لم يقوَ على نيل شهادة البكالوريا ، ويَحْتَمِلُ الى ابيه ان ذلك لا يمنعه من ان يصير تاجراً لا يُدرك له شأؤهُ ، وفيما هو ينتظر الحصول على ما يبتغيه ، نراه في كل مكان الا في العمل حيث اشغاله . ويلوح لي ان ليس في امكانه الثبات في عمل ما افاي الاعمال اجاد واياها افاده ؟ اني لمستيقنٌ من انه لم يُجد عملاً ولم يستفد من عمل !

اجتهدت عقيلة ميرامون في ان تحامي عن ابن اخيها فراح زوجها يطعن في البنات وما انفك حتى انتهى العشاء فقام وهو يتكلم عن « افراده » تلك التي تتبجح بكونها لا تحتاج الى احدٍ في اختيار عريس . وما هو ان انتهى من « الافراد » حتى أخذ يعرض لبلي ، الابنة الطائشة ، الماحكة ، المعتدة بنفسها التي تحكم وتقطع في اقوالها بتلك الرزانة التي اكتسبتها من مدرستها العلمانية حيث تخرجت ، وهي ترعم انها تعرف كل شيء . وهي جاهلة لما وجب عليها ان تعرف

فعارضت مادلين اباهـا بلطفها المعروف قالت : « ارجو منك يا ابنتي ان لا تنقم على ليلى لتلفظها ببعض كلمات شاذة ، فهي فرحة ، نشيطة ، ذكية ، وهي حاوة العشرة ، محبوبة

— اني لا اجهل هذا يا بنية ؟ فخالك واولاده كلهم لطفاء العشرة ، الا انهم يعيشون كمن لا ايمان له ولا شريعة . فاية ثقة نثق بهم . قابليهم بالعيال الغنية في مقاطعتنا ، بعياها العريقة في الشرف ، العيال التي رأيناها اليوم ، في الزياح . الى هناك جاء شبان وفتيات يحبون اللهو والمرح ، ومع ذلك فضلوا حرمان انفسهم

من مشهد سباق الخيل ليأتوا فيقوموا بالواجب . هؤلاء هم الأقوياء ، هؤلاء هم الأولى لا يزالون يقدرّون حق التقدير الحشمة والاحترام للمبادئ الشريفة القويّة ، التي شرّفت أجدادنا وجعلتهم رجالاً . ومن بين هؤلاء الشبان سأختار زوجاً لمادلين عندما يحين وقت زواجهما . وعندى ان الزوج الكاثوليكي الصادق الذي يعرف ان يكلف نفسه المشقّات ليقوم بواجبات دينه هو مكلف نفسه المشقّات حقاً اسعاده لذويه . فان كان لك مثل هذا الزوج ، يا ابنتي ، كنت على يقين من راحتك وسعادتك !

أما انت ، يا هنري ، فيسّرني ان اعتقد بانك ستحافظ على تقاليدنا ومعتقداتنا ، ولهذا وضعتك في مدرسة حرّة تتخرج فيها ، ليكون لك هدفٌ أعلى تصوّب اليه كل رغباتك واشواقك واعمالك ، هدفٌ أعلى كان مطمحى ومطمح جدك . ولما كنت ولداً ذكياً ، محباً للدرس ، فكل طرق الحياة مفتوحة امامك ، على ان لي وصية اودعك اياها وهي ان لا تهجر صفوفنا وتترك المبادئ التي حامى عنها ذورك طمعاً في الوصول الى ما تبتغي من الحياة . وقف هنري والاصفرار يعلو بحياه وقال : يا أني . . . وأمي . . . قوياً يقينكما بي فلست ممن يعرفه اقل ريب بالديانة الكاثوليكية ، بل انا من يذود عن حياضها بكل قواي وكل نبضة من نبضات قلبي . وكان صوته يتقطّع وعيناه السوداوان الجميلتان تذرفان الدموع حرى . ثم عطف قائلاً :

« انكما تحثانني على صيانة وديعة الايمان ، فانا راغب في ان أحافظ عليها في قلبي وان اتبها في غيري . ولم لا أسر اليكما ، هذا

المساء بسر طالم طويته عنك منذ سنين وهو ما في قلبي من رغبة
حارة في أن أكون ذات يوم كاهناً للسيد المسيح !

فانتفضت اخته مادلين دهشاً وصاحت بعاطفة احترام :

أكاهناً ستكون انت يا اخي ؟

وباسرع من لمح البصر تجلّى لها اخوها هنري في قميص وشّته
يدّها يتلألأ على مذبح تزيّنه الورود والزنايق محتفلاً بقدّاسه الاول
وصُغت الأم وصاحت مذهولة : « انت يا ابني ، انت يا
هنري استصير كاهناً ؟ ! »

وأسقط في يد الوالد فوجهم وبانت على وجهه علامات
التناقض . فهو يريد ان يكون ابنه رجلاً شريفاً ، مسيحياً حقيقياً ،
ولكن لم يدّر في خلده قط انه يريد ان يصير كاهناً وهو لم
يُعن بتعليمه تلك العناية المثلى حتى يراه ، وهو في الثامنة عشرة
من عمره ، دافئاً نفسه في مدرسة اكليزيكية . فاعتناظ ولكنه
كظم غيظه وقال بصوت هادئ :

« رغبتك في ان تكون كاهناً رغبة شريفة يا بني ، ولقد
سبقك اليها كل الشباب المذهب التقي . لكنها لم تلبث ان طفت
فيهم ونحمت »

اجاب هنري متحمساً :

« ليس ما افضيت به اليك يا ابني رغبة صبيانية وليدة الحماسة
الوقتية ، بل هو امر طالم تأملته منذ شهور وقتلته درساً وتمحيصاً .
ولقد عرفت ما تتطلب مني الحالة الاكليزيكية من تضحيات ولم
يقتني انني واجد في التضحية الحرة سعادة لا ادرك كنهها ، ولكني

عطش اليها . ان الله يدعوني يا ابت ، واني اسامع صوته وسألتيه لا محالة .
 بيد ان السيد ميرامون أسكت الشاب المتحمس بإشارة قال :
 ان كان الله يدعوك ، فتيقن انني لا امنعك ولا أقاومك . لقد
 سمعت كثيرين غيرك يؤكدون دعوتهم ومقاصدهم ، ولم تمض سنوات
 ثلاث حتى عضوا الانامل ندماً . أما انا فقد شئت ان اكفيك سوء
 انقلابهم وشكهم وأسفهم . ثقي بابيك انه ان يأتي عملاً الاخيرك .
 فاليك أوامري :

لا تكلمني بعد ولا تكلم احداً منّا عن ارتياحك الى الدعوة
 الكهنوتية . كتمل الآن دروسك ، وبعد نيلك شهادة البكالورية
 تسرع في درس الحقوق ، فاذا ما بلغت الحادية والعشرين من عرك
 وأتيت تستأذنني في دخول المدرسة الاكليريكية ، فلن ابدي لك
 اى مقاومة بل ادعك وشأنك . لكنني من الآن الى ذلك الزمان
 سأوصد أذني عن كل ما يصدر عن قلب ولدٍ مثلك لم ينضج بعد
 قال هذا وقد تجلّت في عينيه وعلى وجهه علامات القسوة
 والسلطة التي تريد ان تُسمع فتطاع

فتقدّم هنري من ابيه وتوسل اليه قائلاً : « لا اريد ان ادخل
 المدرسة الاكليريكية عند بلوغني الحادية والعشرين ، بل بعد ان
 انجح في فحص البكالورية . »

اجاب الوالد أمراً : « أما ما قلتُ فلا مرد له . فواجبي يقضي
 عليّ ان أبعدك عن مهاوي الشباب واحذرّك من نزوات قلبك . اما
 واجبك انت ، ولا اعرف أنّ عليك واجباً غيره ، فان تطيعني »
 واستطرد متظاهراً بالسكون : « لقد طال حديثنا تراقبه

الانفعالات المزعجة . فالى غرفتك يا بُني ، وُعد الى ما قلت لك
وانت هادئ مستكن ، فترى آينا العاقل . ان احسن الدعوات
وأثبتها ما كان اشبهها درهماً وقمحياً .

نهض هنري فالتحنى على صدر أمه يقبلها قبلة المساء فطوقته
بذراعيها وضمته الى صدرها ضمة شوقٍ وقالت :

« اذن لقد سمعت مساكنتنا يا ولدي ؟ ألم تعد تجنبا يا هنري
فهممت بهجرنا ، لتصير كاهناً ؟ أني عزمك اذن ان تسومنا هذا
العذاب الاليم ! ؟ »

اجاب هنري وهو يحاول الافلات من ذراعي أمه : « بل اردتُ
ان اقلدكما هذا الشرف الوسيم ، ولكننا لم نهتد الى التفاهم ! . . . »
وخرج فتبعته اخته مادلين يدفعها حبها لاختها . خرجت تهون
عليه وتعزيه . اما امه فدنت من زوجها وقالت : « انني لمضطربة .
وما كنت لاتوقع هذه اللطمة ! »

— فكرة صبيانية !

— لم يعد هنري ولداً . وما هو بخفيف الرأس كسائر أترابه .

لقد أمعن الفكر في ما قال وليس بجائد عن قصده ! !

— اتظنين والحالة هذه انه يدخل الدير بهذا العزم الفجائي ؟
هذا لن يكون ! ما جهلتُ الدعوة الكليريكية ولا مقام الكاهن
العالي ، ورغم ذلك لستُ الاذن لوحيدي باعتراف الدعوة الكهنوتية .
ابني هو فخرنا وكل رجائنا . ولقد تحلى بمواهب نادرة ، وسيكون
في العالم غنياً . وجباله وتوفيراً لارثه وارث اخته حرمانفوسنا الملاهي
والنفقات الباهظة . فأرحناه من متاعب الحياة ومشاقها .

والمستقبل مبتم له . أيعدل عن هذا كله ليذهب فيسدفن نبوغه
ونشاطه وشبابه في خورنية جيلية ؟ أتريدن ان يُسلخ عنا هذا
الولد ؟ ؟

فاجهشت الام وقالت : كلاً ! كلاً ! ...

نهض السيد ميرامون وراح يتمشى على سرعة في غرفته . ثم
انحبس فجأة امام زوجته وقال : لقد أحطنا علماً بالخطر الذي دهمنا ،
فعلينا ان نتداركه تحلصاً منه . وعليه ارى ان نبعد هنري عن مقاصده
شيئاً فشيئاً دون ان نضاد افكاره محاربة

— لا اشك في صواب هذا الرأي ، ولكن ما الحيلة في بلوغه

والعمل شاق ؟ !

— من اراد غاية تذرّع بالوسائل المبلغة اليها : السناخيره
نسعى ؟ هنري ، يا لويز ، مشبع بالتعاليم المدرسية ومبادئها . فعلينا
ان نفرس في رأسه افكاراً وفي قلبه رغبات تضادها كأن نلقي
بين يديه بعض كتب تجبب الى قلبه لذات الحياة وافراحها الشريفة ،
ونعرفه ببعض شبان العصر ، ونقوده الى نزوات مغرية . فلعلنا
جانون عليه بعيشتنا البعيدة عن افراح العالم وكهو الحياة

صمت الوالد وأطرق الام ، وكلاهما غارق في مجور افكاره
يبحث عن طريقة جديدة يستعين بها على تقويم ما رآه معوجاً .
وبينما كانا يجهدان النفس في استنباط وسيلة ناجعة للوصول الى ما
يقصدان ، كان الولد في غرفة مجاورة لعرفتهما يضطرم حامنباً جياً
ربه ، كاشفاً له عن مقاصده مظهرأ له أسفه . وقد فتح نافذة الغرفة
وركع تجاه السماء المرصعة بالنجوم اشعارأ بأنه قرب اللاحدود الازلي

اتراه عارفاً بالمؤامرات تحاك عليه في الظلمة افساداً لحظته ؟ ام
شاعراً بالصعوبات تعترضه وبالموانع تعرقل سيره ؟ فاخذ يقول في
نفسه : « صَبَّ عليَّ يا رب الانتظار ست سنوات ! اخاف ان
أجبن فاخونك فاجحدك . ما انا الا ولدٌ هزيل ، ضعيف . خذني ،
يا رب ، فقيدني بخدمتك . انت عالم اني عازمٌ علي ان اكون لك
كيف تقلبت الاحوال ! هذا قلبي . ألم اخصه كله بك ؟
ألست بصادقٍ في تملكك اياه ؟ أيستطيع هذا القلب ان يتقيد بغيرك
وانا شاعر بانك مائه في هذا المساء ؟ أيستطيع ان ينسلك ؟ لن
تريد هذا يا رب لن تريد . لسوف تخضني لك مجملتي »

بكي هنري بكاء مرّاً وهو يتلو صلاته تحت السماء الصافية
الاديم المشبعة النجوم . من لا يرأف به وقد رآه فتياً ضعيفاً
جذاباً يصبر الى هدفٍ أعلى يصعب الوصول اليه ، ان لم تقل
يستحيل ؟ انه لمدفعٌ اليه بكل قلبه ولكنه شاعر بضعف . من
يأبى ان يسعفه على اجتياز تلك الطريق الخطرة ، تلك الطريق التي
تبلغه الجبل المقدس ، سائراً على شفى الهاوية ؟

هناك ابوه وآمه . هل يعضدانه ؟

٣

كان ليلية ميرامون ارض واسعة تسمى « ساينيات » ، تبعد عن
المدينة ثلاثة فراسخ فكانوا يأتونها ، كل سنة بعد حفلة توزيع
الجوائز فيقيمون في منزل لهم فيها . غير ان ملاهي السنين الماضية
قد انحيت في هذا العام من بيان العطلة ، اذ انقضى ذلك العهد
الرغد ، حيث كان هنري ومادلين يلعبان طليقين في البستان ، ويضربان

في الجبل يرافقهما ابوهما ، يجمعان الحصى والفراش ، ويغسلان كلاهما
ويُعنّيان بزهورهما ونخلهما ، ويصوران ما طاب لهما ، وعند الاصيل
يأتیان بركة بنيت لهما ليغتسلا فيها ويتداعبا . وسبب تلك الوحشة
علته عقيلة ميرامون بأنّ مادلين ناهزت التاسعة عشرة من عمرها ،
فاهتم ابوها باظهارها ، فشغلا عن تلك الملاهي بالزيارات وأقاما ملعباً
للتنس ، ودعوا عيلة مارجولي اسابيع متوالية لتجعل من منزل
الساينئات مسكناً عصرياً

ومن ثم انحصر ما كانوا يفعلونه هناك في الاكل والزهة
والالعب الرياضية وتلقي الزيارات وردّها . وقد اقترحت بنات
مارجولي اقتراحاً اصاب نجاحاً عجيباً عند العاطلين في تلك الاصقاع ،
وهو ان يُقام مهرجان في البرية تكون الطبيعة مسرحاً له ، يرقص فيه
الشبان والفتيات ويتغازلون . فأبّت مادلين الحية ان تمثل في ذلك
المهرجان دوراً ، فقابلتها بنات خالها باحتجاج وقلن :

اننا في حاجة الى ممثلة سليمة النية فلا غنى لنا عنك . فمن لنا
بفتاة تمثل دور غنّامة بيضاء السريرة ذات عينين زرقاوين كمينيك
وخدين ناعمين كخديك وشعر يراق كشعرك ؟ ان شعرك ، وايم
الحق ، لفتان يا مادلين . ولكنك لم تحسني صقله مرة . فقدأ
نصقله لك ونجّده ، فتتكشف طلعتك عن جمال خلاب

اما مادلين الخجولة ، التي لم تعر قط جمالا انتباهاً من قبل ولم تنظر
الى مرآة ولا فكّرت في تبرّج ، فقد انبعث في نفسها امر جديد .
فرغبت في تحسين وجهها وهندام قدّها ، ولم تلبث ان تعلّمت صقل
الشعر وتجميده ورضيت بدور الراحية ، وحملت نفسها على استئصال

ما كان يفتق جمالها من أذيال الصبوة في جلستها ومشتيتها وكلامها
وسائر احوالها

كان ميعاد المهرجان في اليوم التالي ، فأتت امرأة رقيقاً مع
ابنها في القطار بعد الظهر . فلما شاهد هنري لوسيان ، مال به عن
الانظار الى ابعد ناحية من البستان ، فافضى اليه بما يحول
في خاطره . قال : « يا صديقي ، اني اقضي عطلة حافلة
بالمشاغل والهموم . وثق ان ليس من المفرح ان يكون لك اخت
بلغت سن الزواج . نحن اليوم في العاشر من آب ، ولم افعل قط شيئاً
ولا قت بفرض واحد ، ولا أتيتُ امرأةً ذا بال خلا أني قرأت بعض
الروايات . وكنت معتقداً حتى الآن انها تافهة ، فرأيت بعد قراءتي
« دوده وبازان وليكتنبارجه » ، انني واهم . أقرأت كتاب « صديقي
الصغير تروت » ؟ ان أمي واخوتي مادلين يبلغ ولهمما به مبلغ
الجنون ! كل هذا عندي سواء . كل هذا حلوا ولكنه قشور إني
لتمسني الحاجة الى مرآك يا صديقي المحبوب ومرشدي الحكيم .
وانه لفي الحديث اذا البنات يُخففن اليهما زمره فرحات ،
فتأوه هنري قائلاً : هؤلاء اخوتي وبنات خالي لا يُوحني دقيقة !
وصلن اليه واخذن يوتجنه غاضبات ، قائلات : نجوت !!
انسيت اننا عازمات على مراجعة الادوار مراجعة عامة ؟ لست
بجافظ دورك ، واننا لنراهنك !

قال له لوسيان : ألك في الرواية دور ؟

اجاب هنري شبه مستهزئ : انا فيها راعٍ ازمر !

فقال القراة كبيرة بنات مارجولي : ذلك لان هيئته توافق

الدور . ألا ترى يا لوسيان ، ان هنري يزداد كل يوم جمالاً حتى أصبح ادونيس بقتنا ؟ قالت هذا وضربت بقفا يدها قبة ابن عمها ، فقد خرجت على العشب واتزت يديها في شعره الاسود وأملت الى الحاضرين وجهه اللطيف ، وقد سفعته الشمس والسوم ، فادهشتهم هذه المفاجأة ، فنفر هنري وصاح : اليك عني ! وحاول الافلات فأفلت بعد جهد . فقهرت الفراة وتقدمت اختها ليلي ذات الجبال الفذ وقالت مستهزئة : لا تسميه يا الفراة ، لقد ذوبته حياء ! آه يا للولد المسكين ! لقد خطر عليه مرشده ان يأذن للفتيات برفع قبعته . قم اميا الحبيب ، فلم قبعتك وأعطي يدك ابنة خالك العاقلة ليلي لئلا تسقط في الطريق ، وهيا بنا الى التمثيل الرواية

كثير اللغظ والصياح في التمثيل على هنري لما ظهر من غضبه وتقطيبيه وتمتمته . فصاحت به الفراة امرأة : « لعمرى لن رضى بهذا » . وكانت تروح وتجي . امام المسرح وقبعها في قفا رأسها على شعرها المعقوص المجعد ونظارتها ذات الزجاج الواحدة على انفها ، وكتاب الرواية في يدها ، تنصح لهذا وتؤنب تلك وتأمرك ، وفي ملاحظها رزانة ابنة العشرين النائلة شهادة الدروس الثانوية ، والتي تفكر في الاستعداد لشهادة الآداب العالمية

وكان حاضراً التمرن على التمثيل صديق لبنات مارجولي اسمه شارتيير ، وكان عازباً طاعناً في السن يدعي انتقاد الفنون ، وما كان الا بليداً اجهل الجهال لفن الانتقاد . فقال مداعباً لحيته الشقراء . وقد وخطها الشيب : « بالصواب نطقت الآسة الفراة . تمثيلك يا فتى لا يرضي . ان ما تقول اكثره من نوع الغزل وانت

تتلوه في جمود . ويحك ! من اراد ان يتشرب بفتاة جميلة فلا يقف منها
موقف تلميذ يتلو امولته ! »

فصرخت ليلي وقد تقمصت بشكل جنينة الربيع : « عاش ذو
اللمحة الشقراء ، فهو يحامي عني فما اطيع كلامه اراجع الفقرة ،
يا هنري ، واعتن بان تجيد تمثيلها ، والا حنقت عليك »

فهاج هائج هنري وضرب الارض بشبابته وقال : « ان كنت لا
ارضيكن فأبدلني . العابكن تقتلني ضجراً ؟ » قال هذا وترك
المسرح الى زاوية منه غطتها الاغصان المقطوعة فتبعته ابنة خاله .
ودنت منه وقد انكمش جبينها الوضاح وبرقت عيناها غضباً
وصاحت :

« اني نيتك ان تفسد علينا عملنا وتعكر صفاءنا وتحرمنا المهرجان
الذي هيأنا ؟ الآن عرفتك . كان الاخلاق بنا ان نلهيك باطار
تدحرجه او خذروف تديره من ان نعطيك دوراً تمثله . فذلك آف
لطبعك بل انك لأعجز عن اللهو بغير هذه الالعب الصبيانية »
فامتقع وجه هنري ونظر الى جنينة الربيع المسدولة الشعر ،
العارية العنق والذراعين ، وقد اكسبها ظل الاغصان الواقع على حليها
اللماع وثيابها البيضاء جمالاً فتاناً ، وقال : « انا ؟ اطفل انا ؟ لا لست
طفلاً بعد ! ! »

فاجابت وقد ادارت رأسها الى الوراء ادارةً تشعر بالسلطان :
« لا ما أنت الا طفل ! طفل قلت ولا ازال . ما انت الا صبي .
اتريد حجة على ذلك ؟ دورك الذي لم تحفظه ولا اتقنت تمثيله
ولا فهمته هو الحجة ! »

فاضطرب هنري واعترض بقوله : « لو اردت لمثلت أحسن تمثيل . »
 وقبل ان يستدرك ما في نيته ان يقول ، قامت اليه واخذت تدفعه
 امامها حتى بلغت به قلب المسرح وصاحت ضاحكة : « لقد
 عرف الراعي خطيئته وعاد ليمثل دوره حق تمثيل . »

ثم راحت تعيد اشعار دورها . فجلس هنري على العشب يزمر
 مجارياً صوتها بمداته ، ونبراتة ، وليآاته ، ناظراً اليها نظرة المعجب
 والهان ، فاجاد وابدع فصاحت الفراده : « احسنت هذه المرة !
 احسنت جد الاحسان ! »

فتحست ليلي وقالت : « انك لتستحق قبلةً مني . » وارتقت
 على عنق ابن خالها وطبعت على خديه الملتهبتين قبلتين حارتين
 تعالت على اثرهما اصوات الحاضرين فقال احدهم : « انها لاجرة تريد
 مئة ضعف عما يستحقه العمل . » وصاح آخر : « هنيئاً لك يا هنري ! »
 وهتف غيره : « ليتنا كنا رعاة نفخ في القصب ايها الاخوان . » اما
 هنري . فقد خجل وازداد احمراراً ازاء هذا المشهد

وبعد ان انتهى تمثيل دوره ، انسل من بين المقاعد وحاول ان
 يخلو بنفسه فأوقفته امه بطرف مظلتها واخذت تداعبه

— عشت ، يا بني ، لقد تعلمت ان ترضي البنات . ارى
 ليلي تتودد اليك كثيراً ! أمن زمن طويل تتغازلان وتتجايبان ؟
 فألفت هنري منها وابتعد . اما لوسيان فقد تشوشت افكاره
 مما رأى وسمع فأخذ خنشارة وراح يتنف ورقها ورقة ورقة وهو
 مطرق يفكر

فانحنت عقيلة ريشيار على عقيلة ميرامون وقالت : « هل فكرت

بما قلت لابنك يا لوز؟ أهكذا تبعين فيه روح المغازلة؟» فارتبكت
 أم هنري ثم تكلفت الابتسامة وقالت : « ما هو الا ولد لا يفقه من
 هذه الامور ما يذكر . أنظنين ان لكلامي تأثيراً في حياته ؟ ! »
 وكانت ليلي ، في تلك الساعة ، تشف الآذان بصوتها الرخيم
 والحنان البديعة . فأعجب بها شارتيير ولم يتألك ان جاهر قائلاً :
 « هي بلبل غريد ، اجل ان صوتها لا يزال دقيقاً نحيفاً ولكن لن
 يمضي عليها اربع سنوات او خمس حتى تبلغ شأواً بعيداً في عالم
 الموسيقى والغناء وستدر لها حنجرتها ما لا وافرأ . ومن عاش
 ذكرته . »

اجاب غاستون مارجولي : « لا تكثر من اطرائها لئلا تشجعها ،
 فانت أعلم الناس بحقة رأس اختي وقلة حيائها ، فلسوف تسمي ثقيلة
 الظل ، سيئة العشرة . »

— أمّا انت يا من لا يهتم الا لارتياد الاندية وركوب
 السيارات واتقان الملابس ، افلست اشد غباوة منها ؟ ان اختك
 الجميلة يا حبيبي بل هي ذات جمال فتان ومناقب عالية وذكاء ثاقب
 ولطف ساحر سل الحضور فرداً فرداً فلا تجد احداً من يعيها
 او يندد بها

نعم ان هذا لعين الصواب ، لان ليلي كانت مالكة على
 الناس قلوبهم . وقد فتحت فتحاً مبيناً اذ حملت لوسيان ريشيار على
 الاعجاب بها

وفي الغد قبل الظهر صتم الشبان والفتيات على ان يضرروا في
 الغابات المجاورة ركضاً على الاقدام ترويحاً للنفس

وكان غاستون على رأسهم والفراة وشارتير يمسيان خلف الجميع متحدثين وحديثهما يدور على منشا الديانة المسيحية، وكانت الكلمة للفراة، فراح تعارض تعليم القديس بولس بتعليم القديس بطرس وتستشهد باقوال بول وكتابات علماء مدرسة تييناغ، وكان صاحب اللحية الشقراء « باربروس » يصغي اليها ضجراً جاهداً في اللعاق برفاقه الملتفين حول ايلي تحدثهم عن الحياة المدرسية ومقدرة التلاميذ على اختراع الحيل

فما كان من لوسيان تلميذ مدرسة اوزانام وغزالها الحيتي، الا ان انبرى يقص اخباراً فكاهية مضحكة كان يلاحظها في زملائه، وكانت ايلي تضحك من نكاته حتى الجنون. فزاده نجاحه حماسة وبلاغة، فراح يتفنن في تصوير الاشخاص والاشياء والمشاهد، وكان من حوله يضحكون ويقهقهون. وقد تم له النجاح منذ علق يلهج لهجة بريطانية بيّنة، مقلداً في ذلك استاذة الاب ليمانفون، مدرس اللغة الانكليزية، وهو يث تلاميذه على ان يتطهروا من جميع خطاياهم في مدة الصوم ولكنه لسوء نطقه بالفرنسية يلفظ كلمة الصوم carême كما تلفظ كلمة crème ومعناها زبدة فضحكت ايلي حتى أغميت، ثم قالت ويدها على خصرتها: ان صديقك لمزاح، يا هنري، اما انت فلست على شيء من ذلك. ما كنت الا تلميذاً مكسلاً لا تعي شيئاً ولا تصنع شيئاً بل دأبك الثاؤب؟

اما انت، يا شارتيير، فانك لمضحك احياناً، ولكنك لا تشق للوسيان غباراً. لقد ادركت سر صداقتك له يا هنري، فانكما

إذا اجتمعنا لا نلاحظ اجتماعكما ضجرًا! أأنت مُصيبة؟ لقد جئت
يا لوسيان تقضي يومين في ساپينات؟ وقد آلينا على نفوسنا ان
نبتيك فيها اسبوعين لا اكثر ولا اقل . فنحن في حاجة الى هذا
الوقت لنكمل بقربك تثقيفنا الهزلي فتعلم ان نلهج لهج الانكليز،
وسنمثل انا وانت ، الخميس القادم ، محاورَة غزلية مدارها على
مغامرات جون بول في اسفاره تولفها انت وصديقك هزري ، واني
لمتكلة عليك . . . اما تحديد اقامتك عندنا فعلى مسؤوليتي

اجابها لوسيان : ان امي لمضطرة الى السفر غداً

— أمن اللازم ان ترافقها؟ لا! سأحدث عمي بهذا الشأن .
ولسوف نستبقيك عندنا . عودوا بنا الآن الى الساپينات . اراني
في حاجة الى الراحة لئلا اظهر بمظهر الضنك على مسرح الطبيعة في
هذا المساء حرصاً على شرفي . ولا اظن ان احداً منكم يابومني
يا سادة اذا ذكرتم باني جنية الربيع

نجحت جنية الربيع نجاحاً باهراً فلم ينقض احدٌ كلامها ،
ورقصت فارقصت الجماعة كلها حول شجر السنديان والصنوبر ،
تنادي هزري ، وتداعب غاستون ، وتسلي لوسيان ، وتضحك اقتلهم
هماً واشدّهم ضجراً ، ولم يقطعوا الرقص الا ليلتهموا لقمة العصر .
فتقدمت امرأة ميرامون من لوسيان وكان لا يزال احمر الخدين من
حركات الرقص وقالت له :

« ألم تستمك مجالستنا ، يا لوسيان ؟ »

— كلا ، ياسيديتي

— اذن فيجب ان تبقى ، ففي بقائك مسرة لهزري ولبلي .

وقد تحدثتُ بذلك الى امك وسنستبقيك اسبوعين ، كاملين ريثما
ينتهي موسم القصف في القرية وقد شعبنا لهواً وطرباً
— وأمي ؟

— راضية بما تبته انت !

فاجتهد لوسيان في الاتصال بأمه . وما اخذ المدعون بالانصراف
حتى اختلى بأمه في ناحية قصية من البستان وسألها :

— أصبح ، يا أميمة ، ان في استطاعتي البقاء في السابينات
خمس عشرة يوماً بعدُ ؟ . . . فتفرست فيه أمه وقالت : سألتني
ذلك عقيلة ميرامون . وانا أخيرك . امسرورُ انت هنا ؟
— كل السرور ، يا أميمة !

— ربما أفرطت في اللهو ، يا بني ؟

فأطرق حزناً ثم قال : ما برحت منذ يوم توزيع الجوائز
اشتغل من الصباح الى الظهر ، بل لم اخرج الى التزهة الا قليلاً . ألا
ترين اني في حاجة الى شيء من اللهو والراحة ؟ !

— بلى ، يا بني ، هذا ما أفكر فيه . فامع ما اقترح عليك .
ألا استعضت من بقائك هنا بسياحة جميلة في جبال الپيرانه .
لقد أصبتُ بوجع في حنجرتي سحابة الشتاء وأشار عليّ الاطباء بان
اقتضي فصل الصيف في كورتاه (بقعة في جبال الپيرانه مشهورة بمياهها
المعدنية والكبريتية) فلم لا نستسير بأرائهم ؟ زد على ذلك ان
هواء الجبل البليل ينعشك ويقويك

— أتطلُ ، يا أميمة ، هذه البقعة على جبال الپيرانه العالية ،
التي لا يطاها النظر من مدينة لورد ؟

- أجل ، يا بني ، هناك يأخذك العجب من علو جبال
الفيكنجبال وتتموغل جبل الجنوب وتمتع نظرك عن قمته بمشهد
خلابة ترتفع بالعقل الى العلا وتريح النفس من اعبائها ، وتنسيك
انك على ارض الشقاء وتتموغل في عالم التفكير تجاه مدارج
الكافارني العجيبة وثرغرولاند ؟ هناك يمكنك ان تتزحلق على
الثلوج المتجمدة ، وتتزده تحت الشلالات العالية على صهوات
الخيول المطهمة

وبعدُ أفتدري أنك واجدٌ هناك رفاقاً لسواك وسرورك ؟
وقد ارسلت اليّ عقيقة مالموسه كتاباً ، فهي واولادها في كورتاه
منذ اسبوع وابنها مسرور هناك كلَّ السرور ، وقد تعرفت
بين السياح والمستحقين الكثيرين الى ثلاثة طلاب من مدرسة
اوزانام بينهم صديقك «سارته» . وهناك استاذك پول فيولي ، ذلك
الاستاذ الذي تحترمه وتجلّه ، والاب كزافيه ، والاب كلثات
المحبوب . وهؤلاء البواسل لا تقف في وجوههم عقبة مهما شئت .
وقد ركنت اليهم امرأة مالموسه وسلمتهم ابنها ليتسلق الجبال
معهم ويضرب في الاودية ، واني لحاذية حذوها فور وصولنا

- هذا ما اترع اليه ، يا أميسة ، اني احب السيد فيولي حباً
جماً ويلد قلبي حديثه . واستطبت ان اقضي اوقاتي برفقته اورفيقي
«سارته» لطيف العشرة ، مقنوح القلب . أما الاب المحبوب
البشوش الوجه كلثات فاذا اقول فيه ؟ . . اني اؤكد لك ، يا أماه ،
ان كأس السرور هناك ستكون مترعة لنا ، وهذه الرحلة ستملاً
قلبي غبطة وسلاماً

— اذن سنعجل سفرنا ؟ فما عليك إلا ان تضرب ميعاده
فجدق لوسيان في وجه أمه ، كانه يتصفح في عينيها كتاباً
وقال بصوت خافت :

أي امي ، أخطرت رحلتنا هذه ببالك قبل مجيئنا الى
السايبينات ؟ ام انت خاشية علي هذه البيثة وقد رأيت أخطاراً
تهدد الآداب ، فعزمت على انقاضي ففكرت في سياحتنا في جبال
الپيرانه تقادياً من ان تحزنيني

كان ما كان ، فاعترفت الام بنيتها لولدها وأمسكت يديه وقالت :
« أحرام علي ان اوقر لقرة عيني لوسيان اللهور المفيد للجمد
والنفس معاً ؟ قف تجاه ضميرك ، يا عزيزي ، تجاه ذوقك السليم
وقل لي : أليس من شأن اللذات التي يترشفونها هنا ، والملاهي التي
يلهون بها ان تعدل بك عن الشغل والحياة الهادئة الرصينة ؟ أليس
من شأنها ان تفرق عن نفسك حلة بهاؤها ، وتنقص من كمالك . . . ؟
أخطئة انا في حكمي يا عزيزي ؟ اجب بحقك . »
فما تمالك لوسيان ان ضم أمه الى صدره وقبلها قبلة حرى
وقال :

« انك لمصيبة يا اماه فعبلي بالسفر . لقد اسكرني الهواء الذي
استنشقه هنا . ثم استطرد يقول ، وقد اسند رأسه الى كتف امه
بثقة بنوية : ان ابنك لوسيان لضعيف . ولولم تكوني بقربه
تزددين عن حياض نفسه تزواتها وتحمينه وتحرسين عليه ، فاذا كان
قد انتابه في حياته ؟ . . . »

فانحنت أمه على جبينه ، وقد داني شفتيها ، فقبلته وهمست

بلهفة في اذنيه :

« اني سأظل حريصة على راحة هذا الابن طوال حياتي ! »

٢

انتهت العطلة المدرسية فعاد هنري الى مدرسته فرحاً ، وكان يحسّ بحاجة الى الاختلاء بنفسه ، وقد قضى شهرين ونصف الشهر مشغولاً بالفكر ، للمرة الاولى ، تشغله تراثات العالم الفاني عن مراجعة دروسه واتمام فروض العطلة . وقد شعر ، عدا ذلك ، في الايام الاولى ، ان النظام ثقيل والدرس متعب فسمت نفسه المدرسة . ولولا لوسيان وحبّه الصادق له لباء بالفشل . فان هذا الصديق عزّاه وشجّعه وساعده على الخروج من ضائقته ، فأكبّ على الدروس شأنه في كل امرٍ يرغب فيه ، فأولع بالتردد الى الكنيسة اكثر من امس فاقبل ، وكان يتحدث غالباً الى مرشده ويتقدم من سرّي التوبة والقربان الاقدس . ولما كان عيد جميع القديسين اتفق ان بنات خاله صمّمن على زهرة بعيدة في السيارة ، فاستنهضنه الى مشاطرتهن افراح هذا العيد ، فأبى كل الاباء وصارحن بكلام لا يحلّون الجفاء ، قال :

« ليست هذه الايام ايام هو وطرب ، فاني قاصد ان اقضيها في الخلوة » وتنتي قائلاً : « ان التفكير في الموت لافضل عدة للحياة . » فطارت ليلي الى عمتها مفرغة في مسمعها كلمات هنري ، ثم عطفت قائلة : « ان اسهري على ابنك ، يا عمتاه ، فهو لا يلبث ان يذهب الى دير التراپيست ويدفن فيه حياته . »

فاضطربت امّه واتت مدير المدرسة مفضية اليه بما كان يخالج

قلبها من ان الادارة الروحية في المدرسة توحى الى ابنها افكاراً
تناقض غاية وضعها له في المدرسة، وانها ترى ابنها مدفوعاً الى العبادة
اندفاعاً قوياً لا يبرره حسن نيات المرشدين ، قالت :

— أجل اني لعارفة ، يا حضرة المدير ، انك لمحدثي عن تعليم
بييوس العاشر . . . عن التناول المتواتر ، والتناول اليومي . . .
ولكنني لا اسلم بهذا الولد وفيرة نقائص سنه ، ولدي ضعيف طياش .
اني لعالمه علم اليقين انه يتقدم من مائدة الخلاص تعودده العادة ،
على غير كفاءة من الاستعداد . فلو كان غير ابني لاسلمت ؟ أما
هنري فليس بالقديس ، الذي تعهدون . . . تلك ممارسات أبائنا ،
وانكر عليكم ان تعودوها ابني ، ولست منفردة ، يا حضرة
المدير ، بهذا التنبيه ، بل كل ذي ذوق سليم يوافقني على رأيي وينمي
عليكم هذا الاسترسال . والنتيجة التي تحصلون عليها في مذهبي هي
انكم ترّبون نفوساً خسيصة ، تعتبر الخطيئة العرضية شيئاً لا حرج
فيه ولا يكثر له . فانا اجرؤ على ان اعد هذه التربية فاسدة
ترمي الى خنق صوت الضمير ، ليس إلا . . .

لقد تربيت ، يا حضرة المدير ، تربية الصلاح والتقوى
ولكن . . . على غير هذا النحو . انت اعلم الناس بزوجي ، فهو
كاثوليكي صميم ، بل اشد الكاثوليك تمسكاً وحماسة واصدقهم
جهاداً . ماذا اقول ؟ ان زوجي يشاطرني الاسف على النهج الذي
تنهجون في تربية ولدي . لقد وطنا النفس يا حضرة المدير على
ادخال ولدنا العالم ، فدرّبوه اذن تدريباً يبلغه العالم لا الصومعة . . .
فابتسم الكاهن الشيخ وقال : نحن نتعهد اولادنا بتربية

واحدة . فلماذا يلبث البعض ألف للطيش وأصبي الى العالم ، والبعض الآخر ينزع نزوعاً شديداً الى امور الفضيلة والتقوى ، الا لان الله خصّ لنفسه بعض من اختصهم بحبه دون سواهم من المكنتين بان يكونوا له عبيداً ؟ أما نحن فما حيلتنا يا سيدي ؟ أنستطيع ان نتصدى لهذا الاختيار السري ونقطع هذه الصلة الوثيقة بين الله والنفس ؟ وقصارى القول ، أنستطيع ان نحول بين الله والولد موصدين اذنيه دون صوته تعالى ؟ ؟

فضاقت عقيلة مرامون بالجواب ذرعاً ، وتضاعفت همومها ، وخافت على ابنها تأثير لوسيان ، فاخذت تقلل زياراتها لعقيلة ريفيار ، ومن ذلك الحين جعل هنري يتصفح قصصاً غرامية حُرمت قراءتها على مادلين وقد وضعت على منضدته كأنها منسية

لم يبيض من كانون الاول نصفه ، حتى ابرم بعض العيال ، بعد مباحثات ومؤتمرات كثيرة طويلة ، معاهدة مرماها ان يجتمع اعضاؤها ، كل احد ، تارة في هذا النادي وطوراً في ذاك يعلمون اولادهم فن الرقص لانهم يجهلون ، فأجعت الامهات فتيات وعجائز على ان هذه الفكرة هي الطف حاد الى الاجتماع . وسر بهذا الرأي الشيخ العازب شارتيير ، الملقب « بيربروس » او بندي اللحية الشقراء . فرضي ان يقاسم بنتي مارجولي الفرادة واختها ليلى تلقين الرقص العصري ، وقد حذقتهما وهما تتلفنان اصول القراءة . وكان يؤلم هنري ان يُحرم حضور صلاة المساء كل احد ، فوعده بان يعوضوا منها بزياح يُحتفل به في ساعة متأخرة ، وألجوا عليه بقبول الدعوة بل امروه بذلك . فرأى ان لا بد له من مجاملة

القوم لئلا ينسبوا اليه البكّة . فرضي ولا سيما انه رأى جمّاً من رفاقه
طلّاب مدرسة اوزانام يتواعدون على الملتقى في نادٍ يجتمع فيه
متفرّجو المدارس الداخلية فتیاناً وفتيات . فكان كل يوم احدٍ
عيداً عائلياً يُحتم بحفلة شاي حافلة . وكان هنري يختلف الى محفل
الرقص . وما لبث ان اصبح بدره المنير ، فالتقت حوله الصبايا
معجبات بحال خلقه ولدونة جسمه ، ورحن يتنافسن في حبه
استمالة له

لم يتعلم افراد تلك الجماعة فنّ الرقص فحسب ، بل تحطّوه
الى البذخ والاناقة في الملبس : فالفتيات قصرن الهم على التبرّج
استهواء للشبان ، وهؤلاء عمدوا الى حقائق الدراهم فكسروها
ليشتروا قفازات حريرية وهناديل مزركشة يضعونها في جيوبهم
الصغيرة الملبيا

وكان ما قُدر ان يكون ! فتفشى الهوى بين الشبان والفتيات
تبعشه العشرة ويذكي ناره تحاك الاجسام في الرقص المختلط ، وانبرى
كلُّ يُختار من بين الراقصات حبيلة له توافق امياله . اما الالعب
الرياضية والسياحات والاعمال الاجتماعية وكتاب اليونان واللاتين
فكل هذه اصبحت لا تحطّر لهم في بال . بل لم يكن حديثهم
داثراً الا على وله فتنهدير ، وحسد فيجفاء ، وهجر فسيان ! وكانوا
يصرفون ساعات الراحة في التبرّج والهندام وجمع اوراق الورود
الدابلة وإجهااد الادمغة في نظم قصائد الشوق والحب والعتاب ، او
في حفر احرفٍ مشتبكة على لحاء الاشجار بجانب قلب مرسوم
فقدته حربة !

وعلق ثلاثة منهم ليلى مارجولي وباتوا يستطلعون هنري اخبار ابنة عمته الفتاة، فغار عليها وذهب الى لوسيان ريشيار فأفضى اليه بنجواطه قال :

يقتلي يا لوسيان ان لا تبالي بي ليلى ، ويزيدني حقاً أن هؤلاء الشبان يتوددون اليها ويستمتعون في حبها ويتشوقون اخبارها ؟ ليتني لم اذهب الى هذا المقصف ! فما شأني والذهاب اليه ؟ خسرت وقتي وخنقت رغبتني في الدرس لو تدري ما أشق عليّ ان اخوض عباب الكتب ، وقد انقضى في مخاضة الراقصات الضاحكات وقت بعد الظهر كله . انك لاسعد الشبان واحسنهم حظاً لانك ناجح من هذا الوباء .

— لقد استأذنت أُمي في الذهاب الى هذا المرقص فنهتني الى خطره وما علّه ينتاب دروسي من ضرره ، ولاسيا آتي في سنة الاستعداد لفحص البكالوريا ، فأيقنت ان الصواب والحق في جانبها فتنصّلت الى القوم من الحضور . ولما لم اكن ذكياً يا هنري وليس لي ما لك من السهولة في الدرس ، ادركت اني بغير كدٍ وتعبر لن أُصيب نجاحاً في امتحان البكالوريا . . .

أثر كلام لوسيان في نفس هنري تأثيراً شديداً فذهب هذا الى غرفته وجلس يحدث نفسه : آه ! البكالوريا ! البكالوريا ! كل اترابي يكدون سعيّاً وراءها وانا اوانا ؟ انا ايضاً أريد ان انكب على الدرس مهما كلّفني امره . لا والله ما اردت ولا رضيت ان يُخفق فحصي ! !

قال هذا وفتح كتبه ودفّاقه وجلس الى منضدة يقرأ على

ضوء قنديله . وان هي الا هنية حتى تدفقت عليه خيالات لا
علاقة لها بخطباء اللاتين ولا بادباء القرن السابع عشر الذين
يدرسهم ، وما عثمت ان افتتحت دماغه واستولت على مخيلته
وافكاره

آه ما كان أثقل ليلى هذا الاحد ! من خاصرت ؟ غاستون
هذا البليد ؟ ! أتراها تعشقه على حقه وبلاهته . . . ولكنه جميل
أنيق ! . . ما الذي حمل والدي على احياء يوم راقص في الشهر
الآتي ذكر البلوغ مادلين التاسعة عشرة من عمرها ؟ وسيكون
الرقص مقنعاً ! اما ليلى فقد رميتني بالعجز عن اختيار ثوب يزين
جسمي الحقير . أصبح اني عاجز ولا خبرة لي في مثل هذه
الامور ؟

على اني سأتصفح تاريخ الازياء على عمر الاجيال . . . فافضت
به هذه الكلمة الى صفحة من كتاب المؤرخ الروماني تيت - ليف ،
فحاول نقلها الى لغة فرنسية غاية في البلاغة وكان يتمم :

« لا بد لي من ان اخوض بحر الفصاحة الذي خاضه هذا
المؤلف . » لكنه ما كان يستطيع ان يضبط افكاره لان حفيف
الثياب وانغام الرقص وقهقهة الضاحكين والهازلين ، كل ذلك كان
حائلاً بين مسميه ورنة الجملة اللاتينية ، وبين ذوقه واثتلاف
كلماتها ومعانيها . وكانت الفرادة تمر في مخيلته متهتة للظهور في
مهرجان الشهر الآتي بصورة « كلامس إيزور » ، آلهة الشعراء ،
وراءها غاستون بهيأة مغنٍ فلورنتيني ، فمادلين بزي ملكة آيار ،
فليلي الظريفة في المؤخرة وعلى جبهتها خصلة من الشعر المستعار على

الطراز الروسي وبين شفيتها لقافة . . . وكان يقول في سره : أما
انا فاي زي اتخذ ؟ ازي غلام امير ؟ ام زي مهرج ؟ ام زي
السيدس ؟ لا ! كل هذا امسى تافها !

وما لبث ان ترك تيت-ليف وقد أشكل عليه ، فعمد الى موضوع
انشاء فرنسي ، فكتب في رأس صفحته البيضاء : كتاب من ساقار
الى الامبراطور دايوس بعد استشهاد پوليوكت

جلس ورأسه بين يديه يتأمل هنيهة ، وما هو الا القليل حتى
رمى القلم بقة ، موقفاً هناك ساقار حتى الامبراطور ، وطار الى
غرفة اخته وصاح :

مادلين ، مادلين ، دعي ما تطرزين وتوشين ؟ تيمتي اني
ألهمت فكرة جميلة ! أتعرفين باي زي اتر يا يوم عيدك ، في
الشهر القادم ؟ بزي حوذي ! أجل ! بزي حوذي ! لم تتعجبين ؟
سأرتدي ثيابه وامثله تمثيلاً دقيقاً حتى لا يقوى احد على معرفتي .
فادخل المرقص كجنون هائج ادفع الابواب عنوة ، ضارباً
بسوطي ، واهجم على سارتير الحبيث العتيق وأغنته بطلب الحلوان
«البخيش» فيدب الهول في قلوب السيدات ، فيقبض علي الخدم ،
فيصفر سارتير ، اذ لم يعرفني قط . أما انا فألحف في الطلب واعربد
واضح فيستدعون الشرطة . . . أترين ان دخولي سيكون نكتة
العيد ؟ وكان يستطرد في قلبه : وسترى ليلي اني لست أشد بلهاً
من غيري وان في قدرتي ان آتي بالعجائب الغرائب :

هوذا ابن ميرامون ، أمتن الصف الاول انشاء انشأ في هذا المساء

موضوعاً ، فجاء كتابه : « من سيفار الى الامبراطور » احطاً من
انشاء اضعف تلميذ .

٥

انقضت ايام المرافع فانقطعت الاعياد والاجتماعات . وقد اقلقت
السيد مرامون منزلة ابنه في السباقات ، فصمّ التية على ان لا يلهمه
عن دروسه حتى الامتحان الاخير في السنة
اماً مادلين فسافرت مع عيلة مارجولي الى باريس لتقضي عند
جدتها من امها ستة اسابيع ، وخرج هنري من تلك البيئة التي كانت
تفقد احسن مزايه شيئاً فشيئاً وتحمد فيه حماسه
فبعد ان تحرّر عقله من ربة الاباطيل واستعاد حياته المدرسية
الصحيحة ، ألهمته الرغبة في ان يستعيز من الوقت الذي خسره
وخصوصاً في التسلط على نفسه وقصرها على العمل ، فانصب على
كتبه يوغل في درسها

مضى فصل الربيع ، على غير العادة ، هادئاً لذيذاً ، فلازم
هنري لوسيان ملازمة الظل ، فكانا كل مساء يجتمعان في البستان
الزاهي باطباق الورود وعناقيد الازدرخت يدرسان ، وكلاهما
منكب على صفحة واحدة يتناوبان قراءة المؤلفين ، حتى اذا نفض
النهار آخر شعاع وأشكنت على بصرهما السطور السوداء في الصفحة
البيضاء أطبقا الكتاب وافترقا ، تاركين هناك قلبيهما يتناجيان في
ضمير العتمة

آه ما اجمل القلوب في السادسة عشرة اذا لم يذبلها الريب
وتفسدها الرذيلة ! فاية رغبات كبيرة وثابة تخرج بها قلوب سليمة

من جهة ، رصينة من جهة اخرى : قلوب تجردت عن إنانية
الاولاد الفطرية وهي مغلقة من عراقل الرجولة وطرقها المشعبة ،
فمنها يتدقق ينبوع المحبة ، محاولاً أن يغمر العالم ، بعد أن يجري الى ابعد
ما استطاع من المدى !

وما كانت الشرور التي تنكّل بنا ، من فقر وخراب ومصاب
ومخاطر ، الا لتشجع الفتيان وتبعث فيهم عواطف الشهامة . لهم
الحياة دانية القطوف يجنونها فرحين كما يجنون ثراً شهياً . وهم
أبعد من أن يخافوا الموت بل يجابهونه مبتسمين ، على أن يكون
طيباً وجميلاً

ن تناول نحن عظام الحياة بالفلسفة ، ويتناولونها هم بالشعور
فيدركونها أحياناً بوثة من وثبات اعجابهم بها !

نقف نحن تجاه المجد موقف الاجلال ، ويقفون هم موقف
الاستفزاز والاندفاع اليه . نطأطي نحن الهام للعظمة ، ويصقون
هم لها ويرقصون ويثبون اليها صعداً تسوقهم حمية الشباب

لله دركم يا شبان السادسة عشرة ! اذا شئنا أن نزل
نفوسكم الجميلة الرجاجة منزلة كل جميل ناقص ، فينبغي أن
تبدأ من المرور بستانكم . نحن نجهلكم ! وقد رأيناكم تلعبون
لعب الاطفال أحياناً . ولكنكم تنقلبون بين الدقيقة واختها من حال
الى حال ، فاذا بكم تخرجون من موقف اللعب الى موقف الجد ،
مضحكين بكل عزو نفيس في سبيل البلوغ الى البطولة . . .

كان هنري ولوسيان يرددان تلك الاحاديث التي لا يمحوها
النسيان ، احاديثهما في البستان ، فلا يكادان يذهبان فيها حتى

يقطع مجراها عليها صوت الاجراس . فيبأن تارة الى الكنيسة
 فيسجدان تجاه المذبح مشرقاً بانواره ، زاهياً بازهاره ، محيّن ملكة
 شهر آيار ، مريم العذراء ، وطوراً الى بيتها يدوتان في مفكراتها
 مقاصد جديدة وعواطف حرى

وهذا بعض ما كتبه هنري : الهي ، ألا تفتح ذراعيك فتضم الى
 صدرك ولداً تاعساً ، هو من الضعف بحيث اذا اصطدمت رجله
 بحصاة نكب عن حبك منقاداً لشهواته الا لصحة جسدي ولا
 راحة لعقلي ولا سلام لقلبي الا بك ، يا الهي اهلاً جذبتني اليك
 جذبةً تلصقي بك فلا يبقى من قوة على الارض تسلخني عنك ا
 الهي اني لنابذ كل زائل فان ومتعلقاً وثيقاً بكل باق ابدى ا
 الهي ، كيف اجترأت أن أضعك في كفتي ميزان وترهات الارض
 ولذاتها وافراحها القصيرة وهي لا تسد رغبة من رغباتنا بل لا تترك
 في قلوبنا الا غصصاً ومراراً وآلاماً !

أستطيع أن أحب او اعشق غيرك او افتش عن سعادتي في
 غير قلبك ! الهي ، حيي اياك ورغبتي في اصطيد نفوس كثيرة لك
 هما رائداً شباي ، يُسدّدان خطواتي ويُفرحان قلبي

تذوق الصديقان حلاوة اتعاب الرسالة وبلّوا افراحها اثنين
 العنصرة المعروف بيوم المساعدات . أقبل العيد فاخذت كل جماعة
 تُرسل الى المدينة الاسقفية فرقة من الاولاد ربيبي عنايتها ،
 والكهنة منظمو العيد ، مهتمون في ايجاد مساعدين من ذوي
 الارادة الصالحة ، يحافظون على النظام المنشود إبان الحفلات الدينية
 صباحاً وفي اثناء الالعاب الرياضية بعد الظهر . فاقترص هنري

ولوسيان فرصة العيد وأقبلا فرحين متطوعين لهذه المحافظة . وانها
لواقفان ينتظران الاوامر منذ الفجر لينفذها ، اذا بهما مسرعان الى
المحطة لاستقبال الفرق المتدفقة من جميع أنحاء المقاطعة ومساعدتها ،
مؤثرين باوامر الكهنة المتولين تنظيم الصفوف ، حتى اذا تمت
الخوطة فيها ومشى الجميع يطوفون شوارع المدينة على أحسن نظام
تحقق الاعلام فوق رؤوسهم ، وتتقدمهم فرق الموسيقى بابواقها
وطبورها . وما كان اجمل صباح ايار يرفرف بأشعة اللطيفة على
قلوب الصبيان ، ممتدين خطأ طويلاً وهم عراة الموق والاذرع ،
يشون بنحطى مترنة شامخين تهباً بعددهم ولباسهم وموسيقاهم
العسكرية ، ولسان حالهم يقول :

« عيونكم ، عيونكم علينا ! انظاركم الى فرنسا
الكاثوليكية الفتية ! » والناس ينظرون اليهم متسائلين عما تكون
جماعات الصبيان هذه ، ويقابلون بين القبعات الزرقاء والقبعات البيضاء
متعجبين بعددهم لا ينفك يزيد ، وبنظامهم ومشيتهم ووقفهم
العسكرية والجاهل على اختلاف طبقاتهم يتراحمون مدهوشين
لاحقين بهم الى الكنيسة لحضور الذبيحة الالهية

كان صحن الكنيسة محفوظاً لمركب الاولاد ، فاحتله مئات
الصبيان وعشرات الفتيات ، بينهم شبان الاندية الكاثوليكية
ومختلف الجمعيات الخيرية والرياضية . وكانت انوار الشمس تتدفق
من نوافذ الكاتدرائية القديمة ، فتشع في قلبها وتخلع عليها من
الجلال والبهاء حلة فضفاضة . فبدت كأنها جدة طاعنة في السن
تحاول ان تستبدل شحوب الهرم بمجال الفتوة ، لتستقبل بالابتسام

حفيدها الشباب النشيط حاملاً اليها من امانيه كل جديد
 كان هنري ولوسيان يضاضعان الجهد في تمكين المتأخرين من
 الجلوس وتوزيع اوراق الاناشيد وتسكين روع الجموع المتراحمة
 المشرببة الاعناق ، فحانت الثقاتة من هنري فلمح اياه تلوح بجانبه
 لحية شارتيير وقد جاء هذا للتسليم لا للصلاة . فرّ الشاب بهما
 يزهو فخاراً وقال : « ألم أقل لكما ان صحن الكنيسة سيفحص بنا
 على رجه ؟ » وما هو الا ان دخل الاسقف باحتفال محفوفاً
 بالكهنة حتى صدحت الموسيقى ووقفت الوف الاولاد والشبان
 اجلالاً ، وكأنني بعاطفة المحبة المسيحية كهريتهم فاندفعوا ينشدون
 انشاداً يهزهز اوتار القلوب :

« لا لا لن نسمح لهم ابداً

ان يأخذوا نفس اولاد فرنسة

لا لا لن نسمح لهم

أبداً ابداً ابداً »

فقال هنري : أعجبكما هذا ؟

اجاب شارتيير : احسنوا ! لعمري اأبدعوا ! ثم استطرد :
 لقد ادهشتني زينة الكنيسة باضوائها الاصطناعية الخضراء
 واشعثها الزرقاء . تتساقط من الزجاج على الواجهة الوردية . انك
 لتذهلني وانا مشفق عليك من ان ترهق نفسك يا عزيزي ، ألا ترى
 العرق يتصبب من جبينك ؟ فدع الصغار يصطفون . ولا يقل
 لوسيان عنك تعباً ستلقين مغبته هذا المساء .

فتبسم هنري وقال : لا بأس بالتعب اذا كان مقدساً رسولياً .

ألا يبدو لك يا عزيزي شارتير ان هذا التعب صورة مصغرة
لاتعب غدا وحروبه ؟ قال هذا وانسل متغلغلاً بين الصفوف
فقال ذو اللحية الغبراء لوالد هنري : ان ابنك ناطق بالاحاجي .
وكان المحامي ميرامون عارفاً بهذه الاحاجي ، فوقف حزيناً مضطرباً
وهو يقول في نفسه : ترى كيف يفك الغد عقدهما ؟
٦

نحن في يوم من ايام حزيران المزعجة . الهواء ثقيل والسما
مكتظة بالغيوم والناس متوقعون ثوران عاصفة
عاد هنري من مدرسته متوَعك المزاج فارتمى على كرسي وقال :
« لم اقول اليوم على شيء . فالقلم كان يترجرج بين انا ملي . »
قالت امه بلهفة :

أمريض انت ؟

— لا يا أميمة ، ولكنني منهوك القوى ويخيل اليّ ان في
رأسي فراغاً

فاضطربت الام ولم تتمالك ان قالت : ان ابني يجتهد اجتهداً
شديداً . لا يرقد حتى الهزيع الاخير من الليل ، وينهض باكراً ،
وهذا ما لا قبل له على احتماله زمناً مديداً آه ما أشهى لقلبي ان
يقرب موعد الامتحان فيؤديه وينعتق من عناء الدرس ! ان اجاهد
العقل لقاتل لاسيما لمن كان في السادسة عشرة ، على ما يرافق هذه
السن من النمو والضعف

— سكّني الروع يا أميمة ، فليس من خوف على حياتي ، وغاية
ما اريد ان اتدد قليلاً على هذا الكرسي فانسى تعبى واستريح

رقد هنري ، ولكنه لم يستطع الى النوم سيبلاً ، ولم يكد
يغمض عينيه حتى لمع البرق وقصف الرعد فدوت الجبال والادوية ،
فحِيل ان البيت ترزع ثم انفجرت كوى السماء وتدفقت سيولها
تدفقاً عنيفاً ، فأنى لهنري ان يذوق طعم الراحة ؟ فدّ يده على وئى
وتناول عن منضدته جريدة ليطلع على حوادث العالم الجديدة
فوقع بصره فيها على قصة شهوية بذينة من تلك التي يتعمد نشرها
بعض الصحف ، ارضاء لفئة من القراء لا يلذها الا التمرغ في احوال
الذنس ومزابل العار والفضائح

غضب الفتى فور قراءته تلك الجمل الخلاعية المنبهة للشهوات ،
فقلب الصفحة ليرى اى جريدة تتجرأ على ان تنشر مثل هذه
الافكار المثيرة ، داسة سم الخلاعة في العقول والقلوب ، فنفسد على
الشبية نقاوة افكارها وطهارة قلوبها . فدُ هس وصاح :

كيف ترضى يا ابتاه ان تقسح في متلك لمثل هذه الوريقة
المشهورة بمجونها ؟ كيف ترضى ان تساعد اصحابها وهم يجارون
ميول الناس وغرائزهم الحيوانية الخسيسة ؟ كيف ؟ ألا تخاف
ان تقع عين اختي مادلين على هذه الموبقات ؟

اجاب الوالد : مادلين في باريس يا بُني ، وهذه الوريقة تعالج
قضية أحدثت ضجة كبيرة حول دعوى حيكمت خيوطها في
بروكسل ، عاصمة البلجيك ، وقد اشتريتها أسوةً بزملائي المحامين
للاستفادة . وبعدُ قَن دُعاك الى قراءتها ؟ دُعاها مكانها !

دقت ساعة العشاء فقاموا الى المائدة . ثم ذهب هنري بعد الاكل
الى مخدعه واستلقى على سريره متألماً . وفيما النعاس يراود جفنيه

خطرت في مخيلته مشاهد الخلاعة التي اقتضتها من الجريدة ، فحاول
 محوها من ذهنه ، ولكنها قهرته وتسلطت على دماغه مستأثرة به كما
 لو كانت مطبوعة في قلبه باحرف من نار ، وما لبث ان دفعه الفضول
 الى مراجعة السطور السابقة ليعرف الحاقمة الرائعة . ثم قام يصلي
 ويؤتئب نفسه غاضباً ، ولف على معصمه سبحة ذات صليب فضي ،
 كأنه يحاول قيد نفسه للسيدة العذراء الطاهرة بسلسلة لا تنقطع ،
 فأرق ولم يذق وسناً الاً عند الصباح . فنام وكان نومه متقطعاً . ثم
 استيقظ موجه الرأس مضطرب النفس ، ونهض وارتدى ملابسه
 مستعداً للذهاب الى المدرسة بهمة خامدة

وقصد على عادته الى غرفة الطعام لتناول الافطار ، وفيما كان
 يشرب كأساً من الشوكولاتة رأى الى جانبه على كرسي وريقة المساء ،
 وقد طويت بحيث ظهر منها عنوان ضخيم الحروف ، مماق جذاب ،
 فقرأه واقفاً مكانه . ولم يأت حركة قبل الاتيان عليه . ظاناً انه
 عنوان تلك المقالة الشهوية التي حرمته الراحة والنوم في الليل
 السابق ، رغم انه لم يقرأ منها الا بضعة اسطر . فالتفت على غير روية ،
 لا تلامس يده الصفحة ، وقرأ سطور المقاطع الاولى حتى آخر الطية .
 وهنا عاد بغتة الى نفسه وقد صاح : واتساءل ! لقد غلبت على
 امري واذا لتي التجربة . بيد اني ساحاربها ، ومن العبث ان
 يحاول المحتال خدعي الا ، لا ، لن اقرأ بعد الآن شيئاً
 وازدلف الى دفاتره وكتبه فتأبطها مقاومة لتلك الرغبة
 الوثابة التي كانت تدفعه الى ان يقلب صفحة الجريدة للاطلاع على
 التمتة . . .

وفيا كان يسير في شارع لامارتين في طريقه الى المدرسة تبعه كثيرون من رفاقه ، فاخجله قريتهم منه . ثم دنا منه لوسيان ضاحكاً ومدّ اليه يده ليصافحه فحوّل نظره عنه خشية ان يقرأ لوسيان في عينيه تلك الصور المحجلة التي انطبعت في دماغه تلك الليلة فدّنته قضي ثماره ينهسه العذاب وتقلقه التجربة وتتموج في مخيلته مشاهد تلك القصة البذيئة . فأدهسه انطباعاتها في ذاكرته بدقائقها وتفاصيلها ولم يقرأها الا مرة وعلى عجلة!

لما كان المساء عاد الى البيت فنشبت الحرب في نفسه يذكيها رجوعه الى جريدة المساء الفائت ، واقفاً منها بين كاره وراغب فقال في نفسه : هذا حدث ثم يمضي . ما تلك بتجربة بل فكر عابر . لا أرى لي مخرجاً منه الا في ان آتي على تنبئة هذه القصة الملعونة فألقي عبثي واستريح . فتريث حتى عرف ان اهله ناموا وأطفأوا الاضواء وسكنت كل حركة في البيت ، فقام ومشى منسللاً كاللص الى غرفة الأكل فلم يجد الوريقة المنشودة . فثبت له ان أمه وضعتها في المكتبة مع سائر الجرائد والمجلات ، وكانت المكتبة محاذية لغرفة والدته فدخلها . وفيما كان يبحث في الظلمة عن مفتاح الكهرباء اصطدمت يده بكرسيه فقلبته ونجم عن انقلابه صوت الشغل له بال أمه فصاحت : « هزي ! أنت هنا ؟ علام سهرك يا بُني وقد مال الليل . سر الى سريرك واسترح ! » فاجاب :

« انا في حاجة يا أميمة الى كتاب من مولفات بوسويت . »
 اقترب هذه الكذبة غير آبه لها ، وما زال حتى وقع على مطلبه ،

فعاد به الى غرفته وهو على ما عرفت ليس من مولفات بوسويت ،
فلم تمس يده المرتجفة كتاباً من كتب بوسويت ، ولا مع بوسويت
قضى ليله وقلبه يخفق بين ضلوعه

لم تنتهِ القصة بل كانت من نوع القصص التي تُنشر تباعاً في
بعض الجرائد تشويقاً لقراءتها الى معرفة ما يؤول اليه ابطالها في
التمتات التالية . فشغفت نفس القتي بهذه البضاعة الرائجة . ولعلّه
مال في اليوم التالي الى كبح امياله ، غير ان الجريدة الشريفة كانت
تدخل البيت كل يوم ذاهبة في مهنتها . اما هو فكان يقصد ان
يهرب من عامل الفساد فالمرت ، محاولاً التملص مما يلقه ويخاطله ،
متحرراً من الشر مرة اخرى

لكن واحرّ قلبنا عليك ايها الشاب ! اننا نحبّ نفسك
الكريمة . نعم كريمة نفسك ولكنها ضعيفة ايضاً . فلنمّن النصر
في هذا العراك ؟ للظلمة ام للنور ؟ أخرج من هذه الحرب طاهر
الذيل ام تنشب في الشرك فتخسر عفافك وتتمرغ في حمأة الدنس
كثيرٌ سواك يدفعك اليها ابوك الاحق مسيئاً اليك والى نفسه الى
الابد ، كما يتمرغ فيها ؟ هذا ما سنرى الجواب عليه في الصفحات التوالي

٧

أدّى لوسيان فحصه في اوائل تموز فنجح نجاحاً باهراً ، أما
هنري فقد أصاب نجاحاً في الفحص الكتابي واخفق في الشفهي ،
فامتعض آل ميرامون وخجلوا . لكنهم تمخلوا الاعذار لولدهم
فقال امه لصديقتها ام لوسيان : ان ابني كان جدّ تعب في
هذه الايام الاخيرة ، فكان قليل الاكل متقطع النوم وقد فقد

الكثير من حميته ونشاطه . كل هذا مسبب عن التعب وقد بتنا في حاجة ماسة الى العطلة ترويحاً لنفسه من اوجاعه ، وتشديداً لاعصابه المرتخية على ان هزاله واصفراره يحيفاني

فقات ام لوسيان : ألا سلمته الي . فاني لباذلة له ما ابذله لولدي ، وجاهدة في ان اريه مشاهد جديدة ، وفرحه بالجديد انفع له من اتباع مشورة الاطباء . والتقيد باوامرهم . سوف اسافر به مع لوسيان الى ساقوى فسويسرة فايطالية . وقد طالما فكرنا في هذه التزهة ولكننا كنا ننتظر الفحص ! . . .

فدهشت عقيلة ميرامون وقالت : ايطالية ؟ الى رومية تقودين ابنك ؟ اما حسبك ما هو عليه من التقوى ؟ . . . أبودك اذن ان تطرحيه للوساوس الدينية غنيمة باردة ؟

— طلب مني هذه التزهة وقد فهمت ارادته ، فليت رغبته ، لاني عالمة ان ابني قاطع الآن من حياته أحفل مرحلة بالرغائب والاحلام . . . أتعلمين يا لويز ما اسر الي ليلة فحصة ، ليلة كنت اداعبه ويداعبني ، واذكره بالماضي وما قاسيناه ، واحدثه عن المستقبل وآمالي فيه ؟ !!

- لم تبكين ؟ ايتبعك ولدك يا صديقتي ؟
- ان لوسيان يا لويز سيصير كاهناً ؟
- كاهناً ! ألك رضى بذلك ؟

اجابت السيدة ريشيار بصوت هادي : أتذكرين يا لويز امانيتا وقت كنا بنات ، يوم كنت اتقي ان يكون لي اثنا عشر ولداً وقد اخترت اذ ذاك لكل منهم مستقبلاً : لهذا ان يكون

ضابطاً وذاك فلأحاً والثالث طيباً والرابع ملاًحاً وقد خصّصت الله بالولد البكر ؟

— اذكر ذلك ولكنه من احلام الصبا
— لما صرت امرأة سعيدة وأحسست اني موشكة ان اكون
اماً أمعنت في وعد الصبا هذا فكنت اذهب كل مساء الى الكنيسة
في زيارة خاصة لقبر الرسول العظيم الذي بشر بالايمان في ولايتنا
القديمة وكان اول اساقفتها . وكنت أسأله ان يبارك الجنين الذي
احمل ويستمد له من الله خلقاً مستقيماً حراً وقلباً شريفاً نقيماً ثم
يختاره لخدمة النفوس ، خدمة يسوع المسيح . أليس من الواجب
علينا ان نقدّم لله بواكيرنا ؟ . أجل قدمت بكري لله قبل ان
اضعه . . .

فامعّضت عقيلة ميرا مون وقالت : استجاب الله طلبك . فكان
النفس يترقبك . سقط زوجك عن صهوة فرسه فمات ولما يبلغ
الربيع الثامن والعشرين بعد وذوت زهرة حياتك في ميعه شبابك
— كان في قدرة الله ان يسلبني كل شيء . فأشفق عليّ وابقى
لي ولداً !

— ولدٌ وحيد ! وانت تسلمين بانفصاله عنك . أسلم بأن
تعطي الله ولداً لو كان لك كثيرون ، امّا ان تعطي وحيدك ؟ !
فذلك مستحيل ، لا ! لن ترضي بذلك ولن تفعلي ولن تقوي ! وما
من احد يملكك على هذا . أمعنت ؟

حدثتُ امس عن اسرة جاليس المتدينة المجلية بعدد من قدمتهم
من ابناؤها للكهنوت والرهبانيات . فان ابنتها لحقت معلمها ،

راعبات القلب الاقدس ، الى اسبانية وابناءها نُفيا الى بلجيكة
ليختا دروسهما عند الآباء اليسوعيين وأصغرهما وأذكاهما نازعاً الى
الكهنوت . أمّا والداه فما في نيتهما ان يصنعا ؟ سيسترجعان
الشاب المتهوس ويدخلانه في تشرين الاول احدى مدارس باريس
العلمانية

فتفرّست السيّد ريثيار هنيئةً في وجه صديقتها وقالت :

— ما رأيك في ذلك يا لويز ؟

— لا رأي لي . بل أرى ان من واجبنا ان نخطا لامر
اولادنا فلا ندعهم يستسلمون للعواطف الدينية والوساوس . ألك
ان تسمعي لي كلمة : انك لم تحمي لوسيان ، بل انت التي قذفت
به الى الحالة الاكليريكية . وقد أفرغت كل حيلة من شأنها ان
تبلغه هذه الغاية

— انك لواهمة يا لويز ، ما افضيت الى ولدي بانه يسعدني اذا
ما قدّس نفسه لله ، بل لم الملح له عن ذلك تلميحاً خوفاً ان يجعل
رغبتي رغبة له . أمّا انت فصادقة في قولك : انني استترفت جهدي
لاخلق فيه نفس كاهن وعقدت النية على ان ارعى هذه النفس فملت
بها عن التجارب والمخاطر لصيانة نقائها واندفاعها الى الخير

— ويحك لك من أم لا تفقه معنى المحبة ! ويا لك من امرأة

ترضى بخسران وحيدها ، وهي مسرورة القلب ، قريرة العين !

— لو ادخلته بحر العالم يا لويز لعرضت نفسي لخسرانه ، أمّا
اذا قدّمته لله فاضل على ثقة بانه باق لي . . .

— كفى ! . . . عدي عن هذا ! ان لوسيان شاب في مستقبل

العمر . فلا بدّ من ان يطرأ عليه ما يبدّل افكاره ورغباته . واذا كان يهرب الآن من العالم فلانه لم يعرف العالم بعد . على انني سادعوه في هذا الشتاء الى اجتماعاتنا . فهل انت آذنة له بقبول الدعوة ؟

— في هذا الشتاء ؟ سيكون ولدي في مدرسة سان سوليس منذ اوائل الخريف

— المدرسة الاكليريكية . انه في السادسة عشرة

— بل ان له من العمر نيفاً وسبع عشرة سنة

— جنون ! جنون مطبق !

— كنت معترمة ان ادرسه الفلسفة اولا في مدرسة اوزانام ثم يذهب الى معاهد «أنكار» الكاثوليكية ليستعد لشهادة المأذونية في الآداب فاعترضني بقوله : انه لا يصبو كثيراً الى درس الآداب ولكنه يدرس الفلسفة سنتين في المدرسة الاكليريكية . وانه لراغب في حياة الصلاة والخواوة . ومعلمه يحثه على ان يعجل في دخول تلك المدرسة وان من الصواب عندي ان يدخل . فلوسيان لا تنفك سذاجته تنطقه بانه ليس من النوابغ وليس له من وفرة الذكاء ما لابنك ، وربما نقصته المواهب العالية . فلا يكون في مستقبله لا خطيئاً مصقاً ولا معلماً ماهراً . وهو آتس هذا من نفسه وراض بحاله . فكل رغبته منحصرة في ان يكون كاهناً قديساً ، وقد تربى للكهنوت ودرس اللاهوت ، ويسره ان يرى نفسه بعد سنوات كاهناً في احدى قرى فرنسة او مساعداً لكهنة الرعايا الكبيرة . وهذا المستقبل الوضع هو قبلة آماله وغاية رغبات قلبه .

وانه يفكر منذ الآن بالتعليم المسيحي الموشك ان يشرحه ، وبالاولاد
الفقراء المستعد ان يعتني بهم ، ويعد العدد لكسب نفوس كثيرة
ليسوع المسيح

- اما انت يا صديقتي المسكينة أفلا تفكرين بنفسك ؟
- انا ؟ أية رغبة لي في الحياة سوى ان اراه سعيداً . كان
في استطاعة ابني ان يسلك الى سعادته طرقاتاً أثيمة او يستعد
استعداداً يمكنه من جمع ثروة ضخمة فيعيش لنفسه ، لا يهتمه من
تقس الدنيا شيئاً ، غير انه بحث عن سعادته فوجدها في الكفر
بنفسه ! أهذا يؤلمني ؟ ؟

- آه لم استرسلنا في الحديث والحديث شجون ؟ عبثاً
نحاول ان نفاهم ونحن لا نتبادل لغة واحدة . لو كنت مكانك
واضطرت الى ان اضحي بابني لآثرت ان . . . اموت . . . قالت
هذا وأجهشت . ولربما كان في دموعها بعض الخوف والاسف
وقلق الضمير . فأكتب عليها صديقة صباحا محاولة ان تهدئ
روحها وتسكن هياج عواطفها واعصابها !

وكان على كتب من المراتين الآمين ، تحت ظلال الوردية ،
خلف البيت ، هنري حزينا ، ساكتاً ، ولوسيان يكلمه معتبراً له عن
سعادته وفرحه باعتناقه الحياة الاكليريكية

- آه يا هنري لما عرفت امي ما صمتت عليه وانتهت من
الرسالة التي تلقتها من مرشدي ، اركعتني بجانبها لشكر الله معاً
على ذلك الشرف الباذخ الذي قلدنا آياه . ان امي لقديسة ، قلت
يا هنري قديسة ، ويا لعظم سروري اذا ما اضفت الى محبتي لها من

عواطف اجلالي ما هي جديدة به

اجاب هنري بمجاعة النفس : انك لسعيد حقاً يا لوسيان !
 - أجل ، اني لسعيد ولاسيا انني سأزور رومية قبل دخولي
 المدرسة الاكليريكية ! آه ما اسعدني ! وكأني بزيارتي لرومية ذاهب
 لاغس يدي المرتجفة في قلب الكنيسة الحي ، مثبتاً لها امانتي علي
 تعاليمها ، مقسماً بالله اني علي استعداد لخدمتها . ان الله لمصدق علي
 نعمه يا هنري . غير أن في مساء فرحي سحابة سوداء . انا مكره
 علي تركك . وكان في حسابي ان ندخل المدرسة الاكليريكية
 معاً كاخوين جنديين باسلين ! وأملني بالله وطيسد ان يقصر ايام
 تجربتك . سوف اكثر من صلاتي لك ! فلا بد لقائي والديك من
 ان يلينا فيحرراك . ثق يا عزيزي ان لكل شيء نهاية مهما طال .
 فلا تخف . ان يومك لقريب !

فاغرورقت هنا عينا هنري بالدموع فاشاح براسه وقال :

خمس سنوات ! آه ما ابعد يومي ، يا لوسيان !

٨

سافر ابن ريشيار مع أمه الى جنيف وجاءت عيلة ميرامون الى
 بيارتس ، فسكنوا بيتاً فخماً كان ينتظرهم فيه السيد مارجولي
 واولاده منذ اواخر حزيران . وقد اتفقوا ، هذه السنة ، علي ان
 يعيشوا عيشة اجتماعية لذينة اعدوا لها عدتها ، مصممين النية علي ان
 يذهبوا معاً الى التزهات ، ضاربين في الجبال ، ترويحاً للنفس . وكانت
 هناك اسرتا بالسول وفلورزاك ورفيق المسافرين ، صديق مارجولي ،
 السيد شارقير

وما اجتمعوا حتى أعلنوا بيان الملاهي
 قرأته عقيلة ميرامون وما تماكنت ان سالت : أليس في هذا
 البيان ما يتعب ؟
 اجابت ليلى : كلاً ، يا عجمية . لم نكتب فيه قط إلا حاجتنا .
 وقد كفلت انا والفراة أن نغثل ما شئنا ، وعلى هؤلاء السادة ان
 يصققوا لنا

فمكفوا على السلهو والقصف . وكان رواد الاستحمام في
 بيارتس يشاهدون هؤلاء الشبان ورفيقاتهم في كل مكان : في
 المقاهي واندية الموسيقى وعلى الشواطى يلعبون التنس ، وفي
 السيارات تنهب بهم الطرق الى اسبانية او قرى الارياف ، حيث شاع
 امرهم وما هم عليه من الظرف الخلاب والعكوف على الملاهي
 والتهافت على الملاذ . كل ذلك غرَّ معظم الغرباء فأقبلوا
 اليهم يكتبون في جوقهم . ومنهم كوتة روسية وثلاث كونتات
 انكليزيات مباينات في العمر والعادات وعيلتان اسبانيتان وشاب
 برازيلي يناهز الثلاثين اسمه اميليو دي لافاغا

ولهذا البرازيلي حكاية ، فهو رجل غني يملك في سهول الامازون
 ارضاً واسعة مغروسة بشجر المطاط . ويزيد ثروته استغلاله مناجم
 النحاس في جبال البرازيل ، وهو وطني صميم ، خاض معامع السياسة
 في بلده ، موطداً النية على خدمة مواطنيه بماله وجاهه . غير
 انه قبل ان يربط حياته بنظام . عن له ان يأتي هذه السنة الى بيارتس ،
 رغبة منه في ان يجس وتر النساء الفرنسيات ، وقد قرأ الشيء
 الكثير عن لطفهن وما هن عليه من جمال واناقة . ومما اسره الى

احد اصدقائه قوله : اذا قدرت واحدةً منهم ان تفتني فاني
لمتزوجها وان مُلقةً لا مهر لها . فلم تحف نيات اميليو على جماعة
مارجولي فضربن حوله نطاقاً ورحن يتنافسن في اكرامه والتألف
اليه ، رغم استخفاف السيد ميرامون به لاعتقاده ان صاحب الملايين
يستحيل ان يجمع بين المال الوفير ولطف العشرة والشعور

حاولت الفرادة ان تفتن قلب البرازيلي بالتبرج المترف
والاحاديث الحسية . وكانت ليلي ترشقه بابتساماتها الجذابة .
اما هو فكان قبلة احترام البنات والامهات على اختلاف أسرهن ،
كثير الانقباه والاصغاء اليهن حتى خيل الى كل منهن انه يجنحها
ويتودد اليها فوراً برضاها . فامتعض من ذلك شارتير وقد ابتلعه
النسيان . فاخذ بالطن على اميليو معرضاً بادبه وتودده الى السيدات
والاوانس . فاستنكر ذلك منه المقامر المشهور غاستون مارجولي
فقال : لا تندد بالبرازيلي ، فهو صديقي وشريكي في اللعب ،
ويعجبني منه انه لا يبالي وقد خسر البارحة خمسين ليرة فرنسية ولم
ينقطع عن مغازلة الفرادة . . . امأ رقصه فحدث عنه ولا حرج ،
انه لا يمر هذا الفن . لقد خاصر ليلي في مرقص الكازينو فلفت
اليه انظار الحصار جميعاً . سل هنري عن هذا

فانكمش شارتير وقال : متى كان ابن السابعة عشرة يا هنري
يسدري شؤون الرقص واحكامه ! ؟ أو على خبرة من مراقبة
الراقصين ؟

فاعترضه غاستون وقال : انك بسيط ، يا ابا الشقراء ، ان
هنري لاخبر منك بهذه الامور وادري

وكان ذلك صحيحاً لان هنري عدل عن مقاومة التيار العالمي فجعله
 هذا التيار الى هاوية سحيقة من الانغماس في الرغبات . فكان يرافق
 غاستون الى المسارح واندية الموسيقى فيجلس جلوسه الى الطاولة
 الخضراء ويشرب معه الكحول على سطوح المقاهي ، ويسادل
 الشبان احاديثهم المجنونة ، وهو الذي كان ، لاشهر خلت ، يجعل
 من ان يتلفظ بآية كلمة بذينة . كان يقرأ ما شاء من الجرائد
 والمجلات الملقاة على مناضد المقاهي وفي المصورات ، يهديها اليه
 اصداقائه الجدد لتكون انيسته بعد استحمامه ، وما هو بمدهوش لما
 يقرأ فيها

على انه حين كان يحلو بنفسه بعد الغداء مستلقياً على فراشه او
 جالساً على كرسيه كان يحدق الى السماء الصافية او الخضم الواسع
 شاعراً بغيمة من الحزن تحيم فوق رأسه والاسف الشديد يقض
 مضجعه ثم يرمز من جهة اخرى الى زوال اللذات فيحس منها بفراغ في
 نفسه وحرارة في قلبه . كان ينصب من ناظره ميزاناً يزن فيه من
 حوله من رجال ونساء واحداً بعد واحد ، فلا يجد غير المكر
 والانانية والحطة والحمول والشك والمباهاة بالخلاعة والفساد . هذا
 اذا استثنى عمه مارجولي الذي لم يكن يشينه الا خفته واراؤه
 العنان لاولاده والديه واخته الشرفاء المغرورين ببينة غامضة .
 وكان يرى نفسه على شفا هاوية لا مناص له من السقوط فيها ، ان لم
 تداركه اعجوبة من الله تدعمه

شوق حار ورغبة لهابة كانا ينفخان في صدره . آه ليت الشباب
 يعود ! ليت يسترجع طهارته ! ليت ينسى هذه الامور البذينة

الحسيسة ، وقد لطخت افكاره فافسدتها ! ليت يسترد تلك الخيبة
الغبراء التي لا عهد لها بالشر ! ليت يرجع الى معتقده بالخير ! ليت
في طوقه ان يخلع عن نفسه حلتها في عامها الخامس عشر ! ليت
يستعيد نفسه الكريمة ، نفسه الظاهرة ، الساذجة ، نفسه المفتوحة
للانوار الساهرة ! !

كان يفكر في لوسيان يزور الجبل الابيض ويمتّع بعينه بمناظر
بحيرات ايطالية ، وقد وقف على اقنية فانيس . وكان يردد في
ذهنه بعض مقاطع من رسائله : « سنصل الى رومية بعد ثمانية ايام
واصلي على قبر الرسول بطرس ، واقبل ارض الكوليزة ، واحضر
القداس في الدياميس . لا ! ان اخاف المستقبل ، يا هنري ، ومقاصدي
هي هي . فليخف وليرتعد من يتكل في هذا العالم على خليقة
ضعيفة ، متقلبة . اما انا فمخاف والله يرعاني وعليه قد توكلت ؟
وبه قد آمنت » . هذه الاسطر كانت صدى نفس حرة جميلة
قوية ! فاي فرق ادبي بين هذا الصغير لوسيان ريشيار ، وقد اتهمه
بعضهم بالجنون ، وحياة الكاهن الشاب وحياة غاستون من
حيث النفع والاثار ؟ ان هذه المقايسة خلقت في قلب هنري
افكاراً فقال :

كان علي ان تماثل حياتي حياة لوسيان ، بل كنت اقرب الى
التضحيات منه ، ورغبتني أمحي ، وحميتي أذكى ، وكنت اشد
ترغيباً له في الكهنوت منه لي . امّا اليوم ؟ . . .

سيدخل لوسيان المدرسة الاكليريكية في إيسي وكانا قد
عقدتا النية مرات على ان يدخلها معاً ليشرعا في دروسها تحت

ادارة «السوليسيين» الرشيدة . ويا طالما سمع هنري معلميه في مدرسة اوزانام يتكلمون عن مدرسة إيتي وكان يسألهم عنها باهفة . لقد حرم نفسه رياضات الدخول والمنافسة المقدسة التي كان من شأنها ان تحمله على فضيلة التواضع ، فضيلة الدقة في حفظ النظام ، فضيلة الغيرة الرسولية ، حرم نفسه تلك الخلاوات الطويلة في الكنيسة حيث يتسنى للكليريكيين ان يناجوا قاديهم ويسلخوا عن قلب ربهم ، الكاهن الابدي ، مثلاً لقلوبهم الضعيفة

فكر هنري هنية ، ثم سأل نفسه : لماذا لا ادخل انا المدرسة الاكليريكية ؟ لماذا ؟ وللحال اخذته الرعدة . تسعة اشهر يقضيها كالمسجون ، حيث تتشابه الايام بنظامها ، يتخللها رياضات روحية ، صعبة ، مزعجة ، انكباب دائم على الصلاة وعلى دروس ناهكة . لم يبق في قوته ان يصمد . توهت الاكليريكيين ذاتها تضجره ، اعياد المدرسة المبهجة لا تشوقه ، ولم يكن الا مقابلاً بينها وبين اللذات والملاهي التي كان يكرعها ويمدّها تافهة ، ولا سيما وقد عنت له لذات اخرى لم يكن قد ذاقها ، فكان يحسّ بالجذابة اليها كالعصفور تصليه الحية وهو يحاول الطيران فراراً منها ولكن هج الشرّ يهر عينيه ومغناطيسه يجذب حواسه ، فهو مغلوب على امره . وكان ابداً يردّد في نفسه : كلّاً الا استطيع ا مستحيل ! وما زال غارقاً في هذه الافكار حتى سمع خفيف اثواب وجلبة اصوات وضحك . فأفاق من احلامه او قد حان وقت الافراح والملاهي . نهض فاذا بجميع السيارة يناديه من امام الباب الى الحانة لاحياء اعياد جديدة . وكانت ليلي تداعبه وتقول له :

ألا تنفك نائماً ! لماذا ستموك انطوان ولم يسموك هيلين ؟ حبذا لو كنت من الشعراء وما يمنعك ان تكون كذلك ؟ أتعلم ما عملت إحدى ملكات فرنسا ؟ لقد قبلت نائماً بلطف ، لا لانه كان جميل الوجه ، بل لانه كان شاعراً وقد قال فيها قصيدة ٠»

فنجلت ما دلين من هذه الاقوال وصرخت : الفرادة ! يا للوفاحة !

يا للشك !

ثم التفت حول البنات جماعة من الشبان ، فسد شارتيير لليلي يده ليقودها الى الحانة ، فأبت شأنها في كل مواقفها ، وهي لا تعمل الا ما طاب لها

ثم قالت : لا اريدك يا شارتيير ، لان ضخامة جسمك تخيفني وتنهك وتنفسك يزعجاني ! ولا انت يا فلورزاك ، لانك غليظ الذوق ، وكلما راققتك دست اثوابي ومزقتها . ولا انت ايها السيد دي لا فارغا لاني حانقة عليك منذ الصباح : اني احب ابن عمي ، اجمل شباب عرفت . ان له رأساً كرأس راعر سيسيليانى ، انه ولئن لم يمد لي يده فساهاجمه وأكرهه على ذلك . هات ذراعك يا هنري ، ولنفتتح الطريق ، يا أحب الناس عندي ؟ !

٩

سافر آل مارجولي في هذا النهار الى بلدة اسمها سان سبستيان ، بعضهم في سيارة مارجولي والبعض الآخر في سيارة إميليو البرازيلي . وقد ألقى شهر آب ، فتركت پيارتس عائلتها بالسول وفلورزاك . أما عقيلة ميرامون ، وقد أعيأها التعب من تلك الحياة ، فقد اخذت تهتم بسفرها وتبني امتعتها . وبينما كانت السيارة تقطع بهم قرى الحدود

وقد انسابت تحت نظرهم انسياب البرق جنائن رنتاربا وخليج يازاج
الازرق على سفح جبل جايو كليل الاسود ، حزنت مادلين وتنهدت
وقالت : هذا آخر عهدنا بنزهات هذا الصيف

اماً ليلي فقالت : متى يبت هذا البرازيلي رأيه في المرأة التي
فتنت قلبه . فاحتالي لنا عليه في ذلك ، يا عيمية ، واصنعي الينا
صنيعة . فن الضرورة ان نعلم آيتنا أعجبته فلكت عليه فؤاده .
من المؤكد ان احدانا استهوته لانه لم يفارقنا قط . ومن البين انه
لم يبق عندنا حباً لاحاديث غاستون ولا نكات شارتيير . كوني
سياسية مرنه ، فقد وكلنا امرنا اليك

ثم التفتت الى ابن عمها فضحكت وقالت : ما رأيك يا هنري ؟
أأحبني ام احب الفرداءة ؟ ان لافرداءة في الحياة حظوظاً . امأ انا ؟
فان صح ظن الناس ، فاني مؤملة بل واثقة . . . انه لزوج غني ا
وكم حلمت بمثل هذا الزوج . . . سيبني لي قصرأ في باريس . . .
فتروني انت هناك ، ياريكة ، بعد ان تحتم درس الحقوق ، فلن
اتركك بل اكون لك ملجأ لاني عارفة بمحاجتك الى من يعضدك
ويسهر عليك . . . فعضب هنري من لهجة ابنة خاله الساخرة وهم
بالاحتجاج عليها ، فخنقت ضجة البنات صوته ولم يستطع ان يتفوه
بكلمة قط . . . وكانت السيارة قد بلغت ساعتئذ اعالي «ميراكيز»
حيث يمتد النظر بعيداً على وادي يازاج ، ومن هناك اخذوا
يطوون البلدان والقرى الى سان سبستيان في طريق قامت على
جوانبها الجنائن والبيوت المطلية الحيطان . . .

فامرت الفرداءة السائق ان يقودهم الى ميرامار . قالت : ربما

اسعدنا لخطّ فرأينا الملك الفنس . امّا ليلى فما كانت لتتنبه الى المناظر الجميلة ولا الى الرغبة المزبدة المتطاولة على جدران روجب او كس وصخورها ، بل كانت تنفّس في المارين وما قالكت ان قالت :

لا لا أحب الاسبانيات : انظروا اليهنّ فليس عليهنّ من الجلال مسحة . لا يعرفنّ من الاناقة شيئاً ولا يملكنّ من حسن الهندام ذرة . لم تكن المناديل ؟ ألبسنّ هذه القبعات الكريهة ؟ وبعد ان دارت السيارات حول عاصمة « غيركوا » ، وقفت في متّزه « المادا » تحيط به عن الجانبين المقاهي الكبيرة ، فيها الاغنياء رواد الاستحمام يروحون ويمشيون تحت سقف من الخضرة حيث المنافر ترمي الفضاء بياها ، فتساقط على الورود واليامتين وسائر الزهور الكثيرة على اختلاف الوانها واشكالها . وكان زمرة من الاولاد يرون بين الجماعات يتقدّمون من المتزّهين ويعرضون عليهم السفر الى امكنة اشهر من هذه يبعث مجرد ذكرها في الناس الرغبة في زيارتها : الى لويولا ، الى هرناني ؟ !!

فتقدّم البرازيلي وقال : نذهب الى جبل ايليا لان في عزمي ، ياسيدي ، ان اريكنّ مشهداً لا مثيل له ، وهو الوحيد في مذهبي في العالم . قال هذا وركب معنّ القطار الكهربائي فطار بهم يلج صعداً بين اشجار الصنوبر

لم يكن ، وايمّ الحقّ ، في كلام اميليو دي لاثاغا مبالغة . فما المشهد الذي وصف مثيل في العالم ، فاذا وقفت هناك امتدّ نظرك الى الافق البعيد ، والبحر منبسط تحت عينيك حتى لتشعر انك

امام الانباهية : على اقدمك مدينة سان سبستيان المحتلة شبه جزيرة في البحر يغسلها بامواجه . وبيوتها المدهونة الجدران بالوانها المختلفة تبدو لك ضاحكة ، وخليجها الازرق الممدود بين الآكام السوداء يمثل العين بحيرة هادئة واذا سرحت نظرك رأيت آكاماً كأنها منصدة تنضيداً ، وقمماً خضراء تعلو هذا وتهبط هناك ، وبين ثناياها بعض مصايف رائعة الجمال . وبيوت للمزارعين منفردة ، وقرى الارياض التي اطلقوا عليها اسماء قديمة العهد ، مثل اويسوم ، أليه ، تاغريات الخ . وأفق البحر الواسع يحتم من جهة اليمين خطوط جبال الپيرنه الفرنسية العالية ، وينتهي من جهة الشمال عند جبال الكتاير اللامحة من بعيد بضخامتها كأنها سور له . ويبدو كأنه غريق او يكاد في ضباب مذهب

ما وصل القوم الى هناك حتى نبا هنري عن مرافقة بنات خاله المزعجة ، وانتحى من الجبل اعلى قممه وجلس بين العشب والخنشار ، فلحقته امه وجلست بجانبه ، فظل هنري جالساً جلسته معتمداً على ذراعه مفكراً صامتاً

فقال الام : قرة عيني ، هنري ارى ان زهرة صداقتنا ومحبتنا ذابلة . كيف وانت الولد المعجب بالمناظر الجميلة لا ترى شيئاً تقوله لامك عن مشهد نادر المشيل في العالم . أتذكر انك ما كنت تريد في ما مضى ان ترى شيئاً او تتعجب من شيء الا اذا كنت معك ، فتذهب في عواطفك وتفتح لي قلبك ، وكنت اشعر اني احيا حياتك وادرك كنه قلبك . اما الآن فأرى انك منذ شهور وشهور قد حبست عني ثقك ، فاصبحت لا أدري فيم تفكر

ولا فيمَ تَربُّغ ، فأَفسِنَا غريبين ، ويلوح لي أَن بينَ نفسينَا لسدًّا
من جليد . آه ! ما آلم ذلك لقلبي ، لو تدري ! ...

قالت وبكت بكاء صامتاً وشرَّ البكاء ما كان صامتاً !

اما هو فتعمد البرودة وتم هذه الكلمات :

« هي الحياة قد تفترق فيها الخطوط ، وتختلف الاميال . وقد
تُفلق أشد القلوب توافقاً إغلاقاً ابدياً . والذنب في هذا بعض الاحيان
ذنب الاولاد ، وغالب الاحايين ذنب الامهات

- ولدي ! هنري ! أعندك ما تؤأخذني عليه ؟ قالت هذا
ورنَّ في مسمعها وقع اقدم على السلم تحتها . فصمت هنري
وأشار الى امه أن هذا هو السينور اميليو أرسلته اليك ليلى لتقنعه
بان يطلب يدها . فاني اتنى لك النجاح في مهمتك . وها اني
اتركك وآياه

وما أتم كلامه حتى كان اميليو على كسب منها ، فحيّا الامّ
وجلس . ثم أخذ يوطئ لما في نيته ان يكاشفها به ففاجأها بانه
مسافر قريباً الى البرازيل لانه تلقى تقارير هامّة عن منجم من
مناجمه اضطرّه الى السفر حالاً

فضحكت ام هنري وقالت : وما يقول عنك الرواة والتقصّاص
وقد أثبتوا لنا انك لست تبارح پيارتس الا وقد اخترت لك امرأة
من بين نساء فرنسة الجميلات اللواتي رأيتهنّ وعاشرتهنّ ؟ ؟

فحدّق البرازيلي اليها وقال : هل صدقت الرواة يا سيدتي ؟
قالت : كلا ! وكان زوجي يرى رأيي . فان شاب القرن

العشرين في شغل عن القصص

قال وقد غير نبرة صوته : « ان هذا لمن الغرور يا سيدتي . انا قد بلّوت الاشغال وانهمكت فيها وحاولت ان اذوق لذة الاختيار لامرأة أهواها ، ولا يهتني مهرها بل عقلها وجملها . فوجدت ضالتي الفرنسية ففتنت آبي وملكت عليّ جوارحي ، وقد اخترتها ولو سمحت لي ظروف الحال لاعلنت لك اسمها

- بحمك قل : ألا تحب واحدة من بنات اخي ؟ قل الصحيح ايها السيد . لقد تحدث الخلق طراً بذلك ، ولكنهم لم يستطيعوا معرفة آيتهنّ وقع عليها اختيارك ! ان الفراة ذات ذكاء ثاقب ، عصرية . امّا ليلى فما زالت صغيرة السن ولكنها دقيقة النظر ، نادرة الجمال

قال البرازيلي : لن اتزوج لاهذه ولا تلك . انهما على ما تصفين من المزايا الحلوة والجازبية الاميريكية ، ولكن ليس عليهنّ مسحة من الجمال الذي انشد ، الجمال الفذّ الممزوج بالرصانة والتأنق والعذوبة . . . يشرّفني يا سيدتي ان اتقدّم اليك طالباً يد الانسة مادلين ابنتك . . .

١٠

كيف استطاعت مادلين الحبيبة ، الرصينة ، المحبجة ، ان تحوز قلب السيد اميليو دي لا قارغا ، ذاك سرّ طالما اجتهدت بنات مارجولي في ان يكشفنّ قناعه ، فلم يقوين . وكان لطاب البرازيلي يد مادلين أثر عميق في قلوبهنّ ، خلط عليهنّ مذهبهنّ في فنّ الجمال والتبرّج . فتأسفت الفراة شديد الاسف ، لانها خسرت الملايين وقد قاربت يدها وثار ثائر ليلى وقد عرفت ان

جُهِلَها لم يكن بذي تأثير في قلب اميليو . غير ان الاختين ، على امتعاضهما ، تظاهرتا بأنهما اسعدُ الناس ، بما نالت مادلين من حظٍّ . وما احتاطتاها به من ضروب العناية والتبجيل . وكانت ، لا يام خلت ، منسية ، ولعلها مزدرة بعض الازدراء . امّا اليوم فقد طوّقها الجميع يحاولون وصلها

انقضى الخريف بالحيلة وعقد الاجتماعات لاختيار الوان الاقشة وطرق تفصيلها . وكان لكل هذه الحوادث والمآتي شيء من التأثير في عقل هنري . فهو يدرس الفلسفة بلا حمية ولا نشاط ، فان سفر لوسيان الى المدرسة الاكليريكية تركه وحيداً لا عون له ولا سلوى ، فاستسلم لشهوته التي اوقد نارها فيه غاستون مارجولي وشارتير . فاعتاد هنري ان يوافق ابن خاله كل احد وخيس الى اندية القمار والرقص والموسيقى والمسارح ومجالس اللهو وما تبثي ، وجفا الاسرار المقدسة . فراع معلميه جمود الحياة الروحية فيه وكانوا يسألونه بلطفٍ عن اسباب ذلك ، فيجيب انه يجتاز ازمة من الشك والريب خانقة

ان الشك في الحقائق الدينية عند السواد الاعظم من الشبان الذين تربوا تربية مسيحية لبرهان ناطق في اغلب الاحيان على الخطا حياتهم الادبية . ومن عرف ان يحتفظ بطهارة افكاره وقلبه لا يجد الشك سيلاً الى عقله وقلبه . اما الذي يوخى العنان لامباله الزائفة ويستسلم الى المفسد ، فتترزع عقيدته لان حياته مناقضة لايانه ، فلا تبقى الديانة عنده ذلك اللجام الكابح ، بل تسي نيراً ثقيلاً لا قبل له بحمله ، ويحاول ان يتحرر منه مها جسمه الامر من مشاق

كان هنري ايمان وطيد ولكنه كان راغباً سرّاً في ان يفقد ايمانه ، فانصب طوال الشتاء ، بحجة درس الآراء الفلسفية لعظام الفلاسفة ، على الكتب ذات الجبائل التي لبست على الكثيرين افكارهم وافسدت معتقدهم وكانت سيئاً ، ان لم يكن وحيداً فأولياً ، لهذه الفوضى العقلية والادبية التي يتخبط فيها المجتمع العصري . زد على ذلك البيئة التي ترعرع فيها : ألم يكن يرى حوله ، في بيته ، اناساً قد اعتنقوا هذا المبدأ او ذاك ، اذا استثنت والديه المتمسكين بالادب التقليدي . فيسمع عنه مارجولي يعترف بانه من اتباع تواستوي ، والفراة تلميذة صادقة لنياتر ؟ وغاستون ويلي وشارتير ملحدون لا يؤمنون بالحياة الاخرى فيستعوضون من حل احجيتها بنهافتهم على خيرات هذه الحياة . كان هنري ، اذا طوى كتبه وقد رأى فيها آراء الفلاسفة المتضاربة ، يتساءل : ترى اين الحقيقة ؟ وما الحقيقة ؟ كانت هذه المباحث ، وقد تفهت في عينيه ، تتعب عقله فيجئح عنها الى الاباطيل

جاء عيد الميلاد ، فافتتح موسم الاعياد في بيت ميرامون ، ورجع اميليو دي لافاغا من البرازيل في اواخر كانون الاول . وكان والدها مادلين قد استقصيا اخباره واخبار أسرته وثروته ، فتجمع لدهما منها ما ازال ترددهما ، فاغوتهما الملايين ورضيا بمنفى ابنتهما البعيد . ولولا هذا لما سلما بذلك . وضربا منتصف كانون الثاني موعداً للخطبة

مضى ذلك النهار وبنود الفرح تحقّق في بيت ميرامون . امّا هنري فكان الالم يشغل قلبه . وفي استقبال المساء انتفض بجملته

غيرة ولم يتحمل مدانة ليلي للشاب فلورزاك . وآتى له الحق ان يتجاسر على رشق ابنة خاله باللوم . فامتعضت ليلي وحذجته بنظرة شذراء ملوثة السخريه ، ثم كلمته فاصتمته وكسرت شوكة كبريائه فسمرته في مكانه . فحقق اي حنق . وبينما كان المدعورون يرقصون ويقصفون في المنتدى كان هو قد انزوى في غرفته فأكب على مكتبه واخذ يشق كيداً ويقول :

حتماً الغرور ؟ انا عالم اني احبها ! اجل اني احبها حيناً وأبغضها احياناً . من لي بلذة اخضاعها وقصاصها وتعذيبها كما فعلت بي هذا المساء ! من لي بجلالة ابكائها فتكفر عن ابتسامه الهزء التي رمتني بها في هذا المساء ولكن اتفق ليلي كنه هذه الامور ؟ أتعرف ما البكاء ؟ ما الندامة ؟ ما الحنان ؟ . . . انها ليست بذات قلب ، لا تحب في الدنيا الا ذاتها ، ولا تحترم في الحياة الا جملها ، ولا تعني الا بتبرجها ، وان كنت لا احترمها فلم احبها ؟ آليت على نفسي والله ان لا اتزوجها ، وفي يقيني اني ، اذا ارتبطت بها ، جلبت على نفسي من الاهوال اشدها ، ومن العذابات أفدحها . . . اذن فما علي الا النجاة من براثن حبها ، ومحو صورتها من عقلي ومخيلتي . . . انت ايها المتعاس هزي ! تعرفها وتحكم عليها وتحبها ؟ فكأي من عذاب سائمة اياك !

ثم حاول تحويل مجرى افكاره ، ففتح كتاب حياة يسوع لمؤلفه رنان ، وقد تزع عن رأس المسيح تاج الالهة ، ولم يترك لقارئه ان يذوق الا رائحة الرماد والموت ! !

ونظر فاذا برسالة لا تزال محتومة معلقة على مكتبه ، وصلته

البارحة وهم في مهمات العيد . ففضَّها وعرف انها من لوسيان ،
فادناها ، على غير روية ، من شقَّتْه فقبلها وقال : لوسيان ما
خدعني قط مرة ، ولا خاتلني . لوسيان كان يجبني
» صديقي المخلص هنري

«امتد الزمان بمقاطعتك اياي . فما بالك تحرمني تنسّم احوالك
ودروسك ؟ انت دارس الفلسفة وانا دارسها ايضاً ، ودارس معها
فرع اللاهوت الدفاعي والكتاب المقدس ، ودارس العلوم وتاريخ
الفنون والمالك . على ان الشغل في إيسي كثير متعب ، وان لي ،
على ذلك ، متسعاً من الوقت للتفكير في اصدقائي . فاكذب اليهم
فرحاً . نتبادل هنا الاشعار والمقالات ، ولا يُحظر علينا ان نضحك
بعض الاحيان من غضب اساتذة اللاهوت المحترمين . ولنا وقت
لنتنافس في مباراة القديسين . آه ما اجمل مدرستنا يا هنري ! انها
لعنوان البساطة الحرة ، والتواضع المؤثر في النفس ! انها لمدرسة
الحمة والغيرة !

«تصور جماعة من الشبان الاذكياء الراقين ، على اختلاف
بلدانهم ، فلا شك ان قد بلغك انهم دعوا مدرسة «سان سوليس» :
«مدرسة المعلمين العليا للاكليروس الفرنسي» يجتمع فيها من ولايتنا
ابناء اعرق العيال جاهاً وتقوى وتمسكاً باهداب الدين ، فيها
باريسيون ملتبهون ذكاء وارلنديون لطفاء مكشوفو القلوب ،
وانكليزيون فاترو المهمة ، وايكوسيون واميريكيون وشبان في
الربيع السابع عشر ورجال في العقد الرابع
»وقد خرج بعضهم من مدارس پوليتكنيك ، وغيرهم كانوا امس

ضباطاً ومهندسين ومحامين ، هذا يحمل شهادة المأذونية وذالك شهادة الطب وهذا لاشي . . حشمة العالم وتواضع الجاهل يخلقان المساواة بيننا . التنافس الواحد في الفضيلة ، والشوق الواحد الى مثل أعلى وحيد ، والالتهاب الواحد بروح الرسالة الواحدة ، كل ذلك يؤلف من هذه الجماعة ، على اختلاف جنسها وطبعتها ، عيلة واحدة كبيرة ، بقلب واحد ونفس واحدة . ليت لي وفرة من الوقت فأنقل اليك كلاماً وامثلة واقعة من نفسي مرقعاً عميقاً ، فأبث اليك عن البطولة آيات تريك ان ذرية القديسين لم تنقرض ، فاقص عليك اخباراً مبهجة توقفك على بعض ما في هذا البيت من سرور وغبطة . ان رُبط المحبة تضم افراده ، ويسيطر عليهم سلطان الرجولية الآن ومدى حياتهم الكهنوتية ! !

« اصغر الي ، يا هنري : في الثاني من شهر شباط ، يوم دخول المسيح الى الهيكل ، يلبس صديقك الثوب الاكليريكي ، هدف السخرية والهزء ، ثوب المسيح المقدس . فايان تأتي فتماثلنا بلبسه ، لا أنفك اركع على اقدام العذراء مصلياً لاجلك . . . هنري يارفيق الحياة ، يروعي صحتك الطويل ، ألك ناس الله الذي فرح شبابتنا ؟ اسرع فاكتب الي واخبرني ان رغباتك هي هي ، وانك ملب دعوة المسيح لك بكلمة : حاضر ! »

ما فرغ هنري من تلاوة الرسالة حتى القاها على صفحات حياة المسيح المفتوحة . قال : « دعوة المسيح ! خيالات ! اوهام ! خرافات ! قد تحررت من كل هذه الخزعبلات . » غير ان هذا الشاب الحزين ، لما كان قد احب هذا المسيح حباً جمّاً ، وكانت هذه الصداقة الالهية

تاركة في قلبه فراغاً لا يملأه شيء ، وكان لا يفتأ يحن الى المقدسات
وإن هجرها ، حنا رأسه وطوقه بيديه ، وبكى بكاءً يأْس لم يبك
امراً منه حياته . ثم تنهد قائلاً : المسيح الا يسلم عقلي بالوهته ،
ولا ينبض قلبي لذكره ! ثم مد ذراعه الى الصليب الفضي المعلق
فوق رأسه على ورقة سوداء ، وهو جالس الى مكتبه ، فشهِق
وبكى وقال : رغم ذلك ، يا رب ، كان ايماني بك يعزيني ، ومحبي
لك تنفعني وتقويني

١١

ضرب موعداً لحفلة الزواج مطلع نيسان . وقد رافقت اسابيع
الخطبة الاخيرة شجون وشجون ، لان مغامرات مارجولي التجارية
الحرقاء ، ونفقات ابنه الجنونية وتبذير بناته وخلاعهن ، كل ذلك
زعزع ثروته واستدرجه الى موقف حرج اضطره الى ان يتخلى عن
معمل له كبير تكاثرت بسببه نفقاته وخسائره ، حتى قلت ثقة الناس
به ، وتهافت الدائنون عليه يطالبونه بديونهم ، فرأى السيد مارجولي
نفسه رازحاً تحت اعباء ديون هو واولاده يضاعفونها منذ امس
مديد ، على غير انقباض ومعرفة لكميتها ، فاضطر الى ان يبيع
املاكه في المدينة حتى منزل سكنه ، وبیت مصيفه واحواجه
واراضيه في روان ، فظن الناس ان مارجولي خاسر ، بعد التصفية
النهائية ، كل ما كان يملك الا شرفه

وفي ليلة زفاف مادلين ، رأت ليلي الهدية التي ارسلها البرازيلي
الى عروسه ، فوقفت مبهوتة ولم تتالك ان صرخت : ان بنات
مارجولي أمسين فقيرات

فاجاب هنري : لكن نحن يا ابنة الخال سنعينكن ، وقد عرضت المسألة على اميليو فضمن لي تشغيل غاستون في احد مكاتبه في المناجم البرازيلية واكد انه سيقدم للعمّ مارجولي . . . فقاطعه ليلى قائلة : لا تكلمني عن منفي والدي ، والا اضطر الى اخذنا معه فلا تراني بعد يا هنري . دع عنك هذا ، فانا مسرورة في فرنسا ولن أبرحها . . .

— ولكن . . . حالتكم . . .

فقهت ليلى قائلة : او ترغب في احسن منها . حالتنا فتانة ، ملائ بالطوارئ والفواجي . . . كان من الحق ان نكون اغنياء . . . وها نحن نكابد فقر ايوب . آه من حادث مسل . ! يشوقني جداً ان نضطر الى العمل تحلّصاً من مازقنا . لا تخف يا هنري فلن أَرْضى بفقرى كما رضى ايوب ، ولا انا بمطيلة جلوسي كما اطاله هو على مزبلة ذلي وشقائي . . .

فحزن هنري وسألها : وماذا تنوين ان تصنعي ؟

اجابت : هالك خطتي : اني ساسكن باريس في بيت جدتي وقد افرغت لي جناحاً منه . وهناك استثمر صوتي وحنجرتي ، وقد تحرّجت على ابرع اساتذة الغناء

— وبعدُ افتعلمين الغناء ؟

— تظاهرت بهذا امام جدتي وأبي لاسترضيها ، امّا بعد . .

فمن عاش رأى

فتألم هنري وقال : اوضعي لي افكارك

— قالت الفرادة وقد حكمت نظارتها : اية صعوبة في

كلامها ؟ واي سر ؟ أبلغت بك البساطة الى حد انك لم تفهم ان ليلى تصبو بل تموت شوقاً الى دخول المسرح ؟

واستطردت ليلى بلهجة الناصح المتهم قالت : لا يتغيرن لون وجهك يا حبيبي . فلذات اليوم هن الراقصات «الارتيستات» ، ساكون واحدة منهن ، وهذه البغية كانت اعز امانى . ان ثروتي حتى الآن قد وقفت حائلاً بيني وبين امنيتي . فليحي الفقر الذي قيض لي ان اعلو منصة المسرح !!

فثار ناثر هزري وقال : لكن اباك لا يأذن لك بهذا الجنون - ما كان ابي ليرفض لي اي طلب اوجه اليه انا ابنته الصغيرة . اني لم احدثه حتى الآن عن المسرح . وسأقضي في الدراسة بضعة سنوات في باريس . وما قد وثقت بك واطلعتك على قصدي وسري ، ولست إخالك خسيساً فتخونني

- انت يا ليلى ! انت ستكونين راقصة ؟ !
- يظهر انك لم تفهم . قلت لك وأعيد اني ساكون اولاً دارسة ، ثم اشرع في دروسي يوم تشرع انت في دروسك . ارايت الصدفة السعيدة ؟ منتقابل كثيراً . أليس كذلك ؟ سنأتي غالباً الى بيت الجدة فنتناول طعام الغداء معاً . هل عيّنت موعد سفرك الى باريس في اوائل الربيع ؟ ساسبقك اليها ببضعة اشهر للشروع في دروسي . ولكن تبدلي وانا الجبلية بباريسية يضحكني ، ومن الممكن ان اسافر في شهر حزيران

- اجابت الفرادة آصرة : لا لن تسافر قبل آب

- وما السبب ؟

اجابت الفرادة وقد هدأت : لاني سأزف في السابع عشر من
تموز فاحتاج اليك لتجعدي لي منديلي

فنطقت ليلى الى اختها وقالت : أمصمة انت على الزواج
يا الفرادة ؟ ولم اخفيت عني امر زواجك ؟ وم هو مهرك ؟ ومن
هو هذا المغفل الذي سيتزوجك بلا مهر ؟

— لقد كنت عملة حياتي كلها فلم احب النظريات ،
والفقر يخيفني . والآن قد تقدم الي غني وقدّم لي ثروة ، فرضيت
في ان يكون زواجي على حكم عقلي . فالصفر الذي اصطدت
هو شارتيير

فصاحت ليلى : اشارتيير تجرباً على ان يطلبك امرأة له ؟ ! . . .
هو في الحسين يا عزيزتي

— لا اخافك في هذا : فقد يكون صحيحاً . . . ولكنه
طلب يدي بصورة جدية في هذا المساء فاجبته اليه وسنجعل لوالدنا
غرفة وسريراً في منزلنا وسيهيني شارتيير خمسة آلاف قرنك مهراً .
فلك ، يا أخية ، الجمال والنبوغ وتكريم الناس ! . . . ولي الرضى
بالثروة ، ولكل من كلتيينا حظ تتبعه !

١٢

قلقت عقيلة ميرامون فتركت للمرة العاشرة شغلاً كان بين
يديها ، وقامت الى النافذة تحدق في الطريق الممتدة امام منزلها ، وقد
خيئت عليها ظلمة الغسق ، لعلها تلمح ابنها هنري عائداً على دراجته
وكان زوجها يروح ويحيي في غرفة الاكل ، قلق الافكار
مضطرب القلب

فقلت الام : لا اسمع حركة ولا أبصر احدًا
دقت الساعة الثامنة فقامت الام الى زوجها وقالت : أجلُ بنا
ان نجلس الى الطعام، دفعا لريبة الخدم . فلا يلبث هنري ان
يأتي . . .

فقال الرجل : لا شهوة عندي للاكل . وفي نيتي ان انتظره
فطاعت الى شغلها تنتفض لكل حركة تسمعها
أقامت عيلة ميرامون في سبينات منذ ختام السنة المدرسية لتوفر
لهنري اسباب الراحة بعد ما عاناه من التعب استعدادا لفحص الفلسفة .
وقد امتدت على ارض السبينات ، هذه السنة ، سحابة من الحزن .
لان مادلين كانت لحقت بزوجها الى ما وراء البحار ، وغاستون
مارجولي تعب من نظارة المناجم ، فعمد الى ارض في البرازيل
يحرثها ويزرعها ، والفراة وسارتير كافا في نورقاج يقومان بسياحتها
بعد العرس ، وليلي في باريس . اين الغناء ؟ اين الضحك ؟ اين المرح
والمرج ؟ اين ما كان يملأ مصيف سبينات وجنائنها وطرقها من
البهجة والطرب في الايام الخوالي ؟ ! !

كانت هذه الوحدة تسئم هنري فيذهب الى المدينة متفلا في
متزهاتها واحيائها الى ما بعد غياب الشمس غير عابئ بقلق
والديه عليه

قالت الام : ما الذي يؤخر هنري عن العودة الى المنزل ؟ كان
هنري متكشف القلب ، فرحاً ، محباً ، فامسى غضوباً ، هياجاً ، جاف
العاطفة . والآن ما معنى تغييه عنا وابطائه في العود اليها ؟ وان ما
يؤلمني اشد الالم انه لا يعتذر عن شيء مما يصنع !

كانت الدقائق تتوالى فيراها السيد ميرامون بطيئة وسريعة معاً
والغضب يتأجج في صدره، فيمشي حيناً ويقف آخره، وشرر التهديد
يتطاير من وراء صمته العميق

ثم كشف الساعة فجلس الى المائدة وهو يقول : الينا بالطعام
عشاء كئيب ، صامت . كان الوالدان فيه دائمي الانصات الى
صدى الطريق . ثم اضطربت الام وقالت : لا بد لابطائه من
حادث . فيها قد دقت الساعة تسعاً . ولم يكن له إلا ما يؤخره الى
مثل هذه الساعة . فأبعث رسولاً يتفقدده ويريح بالي ، فقد مت
أوكاد

- كوني مطمئنة لم يعرض له شيء ، أصرفي الخدم ونحن
نسهر . قال هذا وعاد الى تزهته الكئيبة في الغرفة . واخذ يثني
وخياه يطبع على الحائط صوراً وهمية . وفي اثناء ذلك اصطدمت
رجله بصندوق من الخشب ، فاحدث ضجة انتفض لها قلب الام ،
حتى لقد سابت دقاته رقاص الساعة

دقت الساعة العاشرة فالحادية عشرة والنصف واذا بالبواب
الحديدي ين صدى صريره في خلایا الظلمة واذا باقدام تدوس
رمل الطريق المفضية الى الدرج فتصعد في السلم

ذاك هنري ! دخل الغرفة المضاء مرتبكاً وعلى جبهته الصفراء
جرح طویل . فصرخت امه : « جويج ؟ » . ووثبت اليه
- كلاً ! جرح بسيط ؟ لا ادري كيف غفلت فانقلبت عن
الدراجة ، وكان في كلامه بطة وتلعثم ، وفيما كانت الام تغسل
الدم المتجمد على وجه ابنها ؟ أبعداها الوالد غاضباً وقال :

- دعيه ! ألا ترين على آية حالٍ هو عائد اليك ؟ انه
سكران !!

فضاع رشد الأم وتمتت : ما تقول ؟ ولدي يشرب ؟ ولدي
يسكر ؟ وارباه ! وأجهشت بالبكاء أمام هذا الولد ، فخرها بالامس
وعارها اليوم ؟ ! . . .

فانتفض الولد من سكره لبكاء امه وتفتتها وبسط لها ذراعيه
يستغفرها قائلاً : امي !

فدفعه ابوه الى الوراء وقال بصوت الموبخ الغاضب : لقد
أخطت علماً بسيرتك وسريرتك ، وعرفت انك مقامر مديون
تتردد الى مراحيض المدينة ، ولما تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرك .
فارعو ؟ والا فلدي ما يردعك عن غوايتك ! أفهمت ؟ !

كانت دموع امه قد ليلته ، ولكنه لما سمع من تهديد ابيه ما
جمع ، ربأً ونخر كجواد كريم الهب السوط جلده ، وصمد في وجه ابيه
مكتوف اليدين ثم شمخ بانفه فقال :

أصبت ! ما هو الا القليل فامسي مقامراً ، سكيراً ، فاسقاً ،
ولكنني اسألك : آينا المذنب ؟

فتمشت الصفرة في وجه الوالد فغضب وصاح : أتصمنا بالذنب ،
ايها الخالع ؟ !

فتابع هنري كلامه وصوته يتهدج كثيراً قال : كان قد
صحّ عزمي على ان اسلك اكل طريق . وكنت اظهر الشبان
واحبهم للخير واخفهم اليه ، ولم يكن يستهويني من الرغبات الا
اشرفها واعظمها وهي ان انذر الله نفسي ! فاي سدر لم تقيموا في

وجهي صداً لي عن رغبتني !

فاجاب المحامي : ألم نصب الهدف ؟ الا ترى الى آية هوة
انت هاور . فاي كاهن كنت ؟

اجاب هنري : كنت كاهناً لا مثيل لي ، لو مهتدتم عقبات
التجارب في وجهي مكان ان تركوها في طريقي جبلاً
- أريناك العالم لنبلو دعوتك ونعجم عودك

- بل كنتم راغبين في ان يطعنني هذا العالم . والذين
دعاهم الله فللله لا للعالم ! فلم يُعرضون قبل دخولهم المدرسة
الاكليريكية للذات من واجبه ان يجهدوا النفوس مدى الحياة
في نسيانها واحتقارها . انزلتموني في بوتقة التجارب شاباً ضعيفاً
فأنجمت لي ان اقرأ كتباً والرى مشاهد تضلل العقل وتقتل الآداب .
أقصيت عني رفاق الخير والصلاح ، وبدلتموني بهم امثال غاستون
مارجولي وفلورزاك وشارتيير . . . شتم ان اصادق الفراة ولبلي ،
فأبيت وقاومت طويلاً ، آه ! لو تصفحت تاريخ معاركبي وعثراتي
ونفضاتي ، ولو شعرت بعواطف قلبي التي كانت تقذفني قسداً الى
الارتقاء بين يدي ربي بعد سقوطي فانفض ثم لا أثبت ان اهوي . .
حقي استرخيت . . .

ونفس حرة كنفسي فامان تحلق في مماء القداسة ، واماً ان
ترحف على حضيض اللصوصية . أقديماً اكون بعد هذا ام لصاً ؟ !
فخدمت ثورة السيد ميرامون والطف لهجته وقال :

ستنفض وتنقوم يا بني ، أظن ان الا صالح الا الكاهن ؟
أفلا تكون شريفاً ان كنت ضابطاً باسلاً او طبيباً غيوراً او قاضياً

عادلاً ، لا تحالف احكام ضميرك ؟ . . . انظر الى زملائك
طلّاب مدرسة اوزانم القدماء فعضمهم قد تمكّنوا من اعمالهم تضمن
لهم عيشاً هنيئاً ، وانت ، بعد قليل ، تبدأ درس المحاماة في باريس
لصوف تدرس وتستفيد اقتداءً بمن تقدّموك . . .

فتبرّم هنري وقال : ان الذين تحدّثني عنهم لم يسمعوا صوت
الله يدعوهم فظلّوا ساكنين الى مثل اعلى صبت اليه نفوسهم .
اما انا فقد طمعت الى أعلى اهداف الحياة ثم قعدت عنه ولم يبق لي
طعم في سواه . ومن ذاق طعم بعض التأثيرات النفسية المضطربة
وجد افراح الحياة المنظمة تافهة . ولا يحطرون لك في بال ان
تعرض عليّ الزواج . فرأي في سعادة العيلة الهادئة يخالف رأيك ا
فما الحياة العائلية عندي الا ضجر ، بل عصير الضجر ! انا ضالٌّ فدعني
اقتنع بلذات الضالّين واتلّهي بما يتلّهون

فخشم الوالد وتوسّل قائلاً : هنري ، انك لا تزال تشعر
بعاطفة الشرف ، وان عاطفة الاحترام لوالديك قويّة فيك . انت على
صيتير ناصع شريف . وفي يقيني انك تأبى تسويده وتدنيسه .
انك ، ولا شك ، راحمٌ شيخوخة والديك ، وانت قادر على ان
تظلّ فخرًا وعكّازًا لها يتوكّأ عليك . ان شئت عدت الى
الطريق السوي ، الذي يوصلك الى ايجاد جدودك . هنري ، ولدي . .
انظر الى امك

اغرورقت عينا الشاب فخطا خطوة الى تلك المخالقة الوديعة
الجنون ، ففتحت له ذراعيها مصالحةً وجباً ؟
فانجس الفتى في مكانه واجماً ، وقد وضع انه واجد نفسه غير

خليق بقبالات امه ، قال : لقد فات الحين . كيف اعدك بما
لا يستطيع ان اعد به نفسي ؟ وانا شاعر بعجزي عن الوفاء
بوعدي ؟ ... عامل واحد يجذبني جذباً هو عامل الشر ، ولا
احس من نفسي الا برغبة واحدة غالبة وهي رغبة امرأة قهّارة
تسوقني الى استنزاف لذات الحياة ؟ فما أبقيت كأساً الا شربتها
ولا غادرت حمأة الا تمرغت فيها ...

فصرخ الوالد وقد طار قلبه شعاعاً : ان في طريقي ان
اكبحك ، ان لم يفعل فيك اللين والعطف عمدت اذا اقتضى الامر
الى القوة . ثم فار فائره ولم يبق له ان يلجم غضبه فوثب على ابنه
رافعاً يده . فصدّ الولد عنه وقد قدحت عيناه ناراً وانكمش انفه
واتنفخ وقال : أفي صدرك جرأة انت يا من قذفت بي الى هذه
الهاوية ؟ اجل اذا تمرغت في احوال الدنيا كنت مذنّباً ،
ولكن ذنبك اضخم . واذا جرّرت ذيل العار فذاك قصاص
خطيئتك

قال وخرج وأقفل وراءه الباب بعنف فأحدث دويّاً ارتجت له
الغرفة

فصرخ الوالد وقد تشنّجت اعصابه : يا لك من ولد شقي عاق !
أشهدت صفاقة وجهه ؟ أرايت جرّاته ؟ ؟ ؟ « انها
خطيئتك » ! ...

— قالها ملء مسمعي : خطيئتك !

عبارة ردّتها عقيلة ميرامون مرتين ثم قامت الى زوجها
فامسكت يده ونظرت اليه فنظر اليها وظلاً هنيئاً رهيباً

يتراميان النظرات صامتتين ، متذكّرين اطوار الحرب الرائعة
الاليمة التي أشعلها نارها منذ سنين قتلاً لدعوة الله في نفس
ولدها

ثم قالت بآتئاد وفي صوتها رنة حزنٍ فألم فاضطراب : « نعم
خطيئتنا ! »



الجزء الثاني

١

وجع غاستون مارجولي من البرازيل في يوم من ايار وذهب
وهزري مساء يوم احد يتترهان في ساحة الاليزة ، فلم يستطيعا ان
يجتازا الشارع نظراً الى كثرة السيارات واحتشاد الجموع

قال هنري : « يا صديقي اننا واقفان هنا منذ زمن مديد لا
نقوى على براح مكاننا ، فهلم نذهب من هذه الجهة القليلة الازدحام »
وقد سار الصديقان وتمكنا بعد قليل من الوصول الى ملجأ في
الشارع ولم يبق بينهما وبين الملجأ الثاني الا بضعة امتار . وكان
هذا الملجأ قريباً من الرصيف الشالي حيث وجهتهما ، غير ان
السيارات الصاعدة النازلة لم ينقطع لسيرها وصل حتى استحال عليها
ان يجدا سبيلاً بين دواليبها الدائمة الحركة

فتنهّد هنري وقال : ابطأنا

اجاب غاستون : كلا لا يزال لنا من الوقت عشرون دقيقة ،
واظن ان اخي الفرادة منذ تزوّجت قد غيّرت من طباعها ،
فلا بأس في ابطأنا عن العشاء بضع دقائق ، ولست بنادم ولا حزين
على هذه الوقفة في هذا الوسط البهيج واذكر اني راجع اليوم من
اميركة ، ولست مثلك نشوان بنّاظر الحياة الباريسية ، واني لمرتاح
الى اشباع عيني من اناقة باريس ولطفها وجمالها المتجلي امام نواظرنا ،

الا وهو زهوها وملاهيها ولذاتها وافراحها
رفع الشبان رأسيهما ، واذا بالشارع غاص بالسيارات وعلى
جانبيه اشجار البلوط والدب الجميلة ، لم يذهب بزهر اوراقها
الجديدة ذاهباً ، ومنظر الخضرة على الجانبين ، تتخللها الازهار
البيضاء ، يسبح العين ويُفرح القلب

يتتهي هذا المنظر بما يفاجئ المارة مفاجأة تسحر ألبابهم وتحير
عقولهم : فان آخر ما يقع عليه نظرك هو قوس النصر يبدو لعينيك
قليل الحجم طويلاً بسبب طول الشارع . واذا ما حدثت اليه بناظريك
رأيت قطعة سوداء على بساط ارجواني يلعب من ورائه قرص
الشمس الاحمر . وعند الافق لا يمكنك النظر الى القبة الزرقاء التي
كنت تراها كقوس من دم وهيب . واذا ما ارتفعت بنظرك قليلاً
قليلاً أخذ اللون الاحمر الوردي يتحول الى اخضر باهت حتى يفرق
في الازرق الجميل في اوج السماء . وكانت الشمس ، في تلك الساعة ،
وضاءةً وأشعتها تعكس اللون الاحمر على احواض المياه ، راقيةً
خطوطها في اطراف الارصفة وعلى زجاج القصور والبيوت وواجهات
الحوانيت والمخازن ، حتى على نحاس السيارات المتجهة الى محلة
النجمة

وقف هنري مبهوتاً امام هذه المناظر ولم يتالك ان قال :
« ان هذا لمن المدهشات ! »

على ان غاستون ما كان ليأبه جمال هذا المشهد العجيب بل كان
يحدق الى افواج المارين تحت شجر البلوط يتتزهون ، ويتستع ثرثرة
السيدات يتحدثن عن احدث الازياء ، ثم ينقل بصره الى الالواح

الملونة وعليها اعلانات تذيع اقتتاح الاندية او تعين ميقات السينما ،
ويبتين الشبان راجعين من ضواحي المدينة ونواحيها ، بعضهم
يركبون الدراجات وقد نصبوا في مقدماتها ضئلات من زهور
الاكاسيا ، والبعض الآخر يركبون السيارات الفخمة الخاصة ،
وفيها السيدات المتبرجات عليهن من الاثواب الملونة ما يدهش ،
وفي صدورهن ترتقص أطباق من بواكير ورد ايار . فوقف غاستون
امام هذه المشاهد موقف الاعجاب فقال من خلف شفتيه : ما أحلى
لقلبي ان اعود فاراك يا باريس الجميلة الفتانة !

وفيا هو كذلك ، اذا بشرطي المخفر يرفع سوطه الالبيض ،
وبلاطة الشارع الخشبية ، وقد تركت فيها دواليب السيارات آثاراً
تلمع تحت أشعة الشمس المحتضرة ، وتحيك عليها شبكة من الخيوط
الوردية

فعدل الشبان عن قطع الشارع ومكثا هناك يسحرهما مرور
العجلات المتواصل تمشي بها الخيل خبياً ، وجماهير العمال المستخدمين
واصحاب المخازن والحوانيت راجعين الى باريس وقد سكرُوا
بالهواء الطلق الذي استنشقه في نهارهم ، وهم عائدون زرافاتٍ
زرافاتٍ يشون الهويئا متدوقين نعمة الهواء مساء الاحد . وكانت
تلمع على صدور الرجال ازهار السوسن الجميلة على اختلاف الوانها .
والسيدات ماشيات يدفعن امامهن كراجات اطفالهن او متوكئات
على اذرع رجالهن لما عانين من تعب الركض نهارهن في
الحقول وراء الازاهير ، تلوح في ايديهن باقات نالها بعض الذبول .
قال هنري : هاك يا ابن خالي ، ان هؤلاء اسعداء

وما اتمّ كلمته حتى مرّت عن كتبٍ منها عجلةٌ مكشوفة ،
يعاوها الغبار ، والتعب بادٍ على جواديهما لوفرة ما فيها من الزهور
وشباك صيد الفراش ، وقد جلس على مقعدها الوالدان يحيط بهما
صبية مكشوفو الرؤوس يضحكون

فقال غاستون : هؤلاء من الطبقة الفقيرة . لقد قاموا باكلة
على العشب في غابات سان كلود وحسبهم بها سعادة
كانت الالوان الارجوانية اذ ذاك قد اخذت تصفّر ، كاسية
الاشياء بلون اصفر برتقالي ، ثم اكفرت فغارت في العتمة . وما هو
الا ان اشتعلت المدينة بانوار الكهرباء حتى ظهرت في مقدّمات
الحوانيت والقصور ، على مسافات متباينة ، اعلانات ترتقص عن جانبيها
وتحتها وفوقها الاضواء بالوانها الجميلة

قال هنري : الى العشاء يا غاستون فاني خائف من تأنيب
الفراة وليلى على ابطائي بك الى هذه الساعة . قال هذا وطويا
الشارع الى الرصيف الشمالي ووجهتهما شارع مونتانى
قال غاستون : ما ظنك يا هنري في الفراة وليلى ؟ اهمى في
شوقه الى مرأى أخيها عائداً ؟

— كيف لا وقد مضت على غيابك سنون

— أجل ! كان عليّ ان اذهب اليها منذ الصباح ، عند
مغادرة الهاجر ، ولكنني كنت تعباً . . . فأثرت مرافقتك ، وقد
أحببت ان اقصّ وأخلق وأغير ثيابي لثلاث تنبه ما بي . فأخترت
اصبحتا امرأتين عصريتين لا يهتبهما من الحياة الا التبرج ومجاراة
الازياء

فأيد هنري قوله مستطرداً : ولعلها مبالغتان في اتباعها !
 — أيزعجك ذلك منها ؟ نعم انا مسرور بنجاحها كل
 السرور ، مسرور بجمال ليلي وغنى الفريدة . مسكينة اخي الفريدة
 لقد احسنت بتزوجها شارتيير . ثقي يا هنري ان كل شيء في هذه
 الحياة ما خلا المال باطل . لا يعوزك الا المال لتسعد ، والخبر
 يحقق الخبر . لقد سمعت بنفقاتك وما بذرت من مال ابيك منذ
 خمس اوست سنوات ، وما وفي ابوك عنك من ديون
 فانقبض هنري وقال : لا ذكرت ذلك يا غاستون ، فذكره
 يزعجني . اما والدي فقد عرف ان يتخذ الوسائل التي وقفت حائلاً
 بيني وبين رغائبي

فقاطعه غاستون : وممّ تعيش يا عزيزي ؟

— من مرتّب ضئيل رضي والدي ان ينقذني اياه كل شهر ، ومن
 بعض اشغال اتعاطاها ، فأدّيج تارة مقالات اشهرها في الجرائد
 واحبر طوراً أخرى اشرح فيها ما غمض من القوانين فتجمع على
 حدة ، والتمقط اخبار الخطباء في الندوة البرلمانية من نائب
 يصرف وقته في مراسلة منتخبيه . فانا كما ترى اقطع من كل
 وادٍ عصا

لم تك هذه الموارد لتكفيك لاسيما اذا زوّفت اليك شقيقتي
 ليلي بعد ان مضت على خطبتكما سنوات اربع . ولم يبق
 لتأخر كما عن الزواج من مبرّر ، فاجتهد ايها العزيز في ان تضع هذه
 الخطبة حداً والاأصمت مهزلة من المهازل

— ما شأنني في الامر وما ذنبي ؟ والليلي افكاراً لا تبدلها .

كلما فاتحتها بضرب موعد الزواج ، قالت : انها لن تتزوج قبل اجتيازها الخامسة والعشرين . وهي لا تكمل الرابعة والعشرين الا في آخر الشهر القادم ✕

— اذن هي تريد ان تستغل شبابها ؟ لست اخالها الا بحقة . فما يجوجها الى ان تثقل عنقها بنير الزواج القاسي وتعرض للهجوم العائلية الكثيرة . . . ومتى كانت تعنى بمثل هذه الشؤون ؟ وبهذه المناسبة اراني عازماً على اللحاق بها الى الاندية التي يترددان عليها . لقد امسكت من لذات الحياة الباريسية زمناً طويلاً وانا ظمآن اليها . صهرنا شارتيير غني . وقد صممت على ان اغرمه ، بين مرة واخرى ، ما يجب علي دفعه . اتظن اني تركت عملي في شركة « هيليكوت اندسونس » في نيويورك لا كون مستخدماً بسيطاً في مصرف باريس . لقد صبح لي شغل في باريس فبادرت اليها بعد ان اعتذرت هناك الى مدير الشركة ، ولكنني انتبهت من الآن الى مقاصدي ، انكم لن تروني كثيراً على مقعدي في المصرف . لقد مللت حياة الجلوس على المقاعد الجلدية ورا . نوافذ المصارف

سمع هنري هذا الكلام ساكناً واجماً وقاد ابن خاله الى بيت جميل في شارع فرنسوا الاول وكان شارتيير يسكن الطابق الثاني منه ، وما هو الا ان حملها المصعد الكهربائي فوضعها على باب المسكن . حتى صاح غاستون :

— ان لانخي قصراً يحاكي قصور الملكات !

ورأهما الخادم يدخلان فعرف غاستون وتقدم منه فهاونته على خلع معطفه ، ومن ثم قاده هنري الى ميضدع صغير فيه امرأة في شرح

شبابها ، جالسة تقلب صفحات مجلة مصورة ومعها شاب على عينيه
نظارتان بزجاجة واحدة . . .

صاح الزائر الجديد : الفرادة اخي الفرادة ! فلاقته اخته جزلة
مسرورة وهي تقول : اخي غاستون الحمد لله ! . كدت احسبك
عدلت عن العودة الينا ! . . او تأخرت عن ميعاد السفر فسبقك
القطار او . . . او . . . لماذا تأخرت ايها الحبيب ؟ . . نحن في
انتظارك لتشاطرنا العشاء

ثم انسلت بلطف من بين ذراعي اخيها ، والتقت الى شاب
طويل الشعر وقف يتفحص غاستون وقالت له :

« هو اخي الذي حدثتك عنه ، قد وصل الساعة من نيويورك ،
ثم نظرت الى اخيها فقات : هو السيد پول دافون من اعز اصدقائنا
ومن اشهر المصورين . وسيكون له شأن في عالم التصوير »
فقال پول : آه ! يا سيدتي !

اجابت الفرادة : فمَّ عجبك . ما ابداع الصور التي ترسمها
يا پول . انها ستدر لك المال . او تظن ان شاروليك اوليفير ومارسون
وجورج اوربول احسن منك . انك تحاكيمهم فنًا ان لم أقل تفوقهم .
فستصير ان شاء الله بعد سنين قلائل من اشهر مصورينا
فخني پول رأسه وقال : انك لتغالين في اطرائي يا سيدتي ، وما
انا بمستحق ذلك منك

ولم يكمل كلامه حتى سمع من باب غرفة البليار صوت
شارتير القصير القامة قادماً ليستقبل ابن عمه
- اهلاً وسهلاً ! عساك لم تتعب في البحر ؟ اجيدة صحتك ؟

كيف بارييس ؟ ألا تلوح لك كلعبة طفل ازاء نيويورك ؟ أيعجبك شيء فيها بعد ؟

— بل اشياء يا عزيزي شارتيير، حتى اني بعون الله لن اتركها
قالت الفرادة : آمين ! آمين !

ومن ثم قاد شارتيير ابن عمه الى غرفة البليار وراح يدي اليه بالنصائح، ويعلمه كيف يجب عليه ان يستسير في عمله الجديد، طالباً اليه الاعتصام بالحيمة والنشاط والدقة

— اعرف كثيرين من رؤسائك في هذا المصرف يا عزيزي غاستون ، وكلهم مستعد لخدمتك ومعاونتك في مهنتك . كن قدوة المستخدمين ونحن مساعدوك . لا تكتفِ بساعات العمل المحدودة بل كن غيوراً على المصلحة فلا يفوتك سببٌ من اسباب الترقى

واقصر هنري ميرامون على ان يوجه الى الفرادة السؤال الوحيد التالي : أين ليلى ؟

اجابت : عادت تعبئة من تزهة على شاطئ البحر الشمالي فدخلت غرفتها لتبديل ثيابها ولما تخرج بعد . ان كل ما يمتد الى الزى والتبرج بصفة هو شغل ليلى الشاغل عن كل شيء آخر
وكان بود الفرادة أن تنم على اختها واذا بليلى خارجة من غرفتها في وشاح من حرير وسارت راكضة الى غرفة البليار وهي تصيح : أوصل غاستون ؟

صوب غاستون وجهه الى اخته ولم يدن منها بل وقف مبهوتاً . اذ لم يرَ فيها تلك الفتاة اللعوبة الضاحكة الصغيرة التي غادرها ،

لكنه رآها امامه سيّدة ذات جمال فتان رائع يأخذ بجماع القلوب .
وقد وقفت ليلي في الباب ضاحكة ، ويدّها البيضاء علي رأسها
تقضي ستار الباب ، وبدأت طويلة القامة ، هضيمة الكشح ،
رشيقة القدّ وزاد طولها رشاقةً ثوبها الاخضر . قالت : ألم تعرف
اختك ليلي ؟

— كيف أعرفها وقد فارقتها صغيرة السن قصيرة القدّ ، وإذا
بها الآن رشيقة القوام رائعة الجمال . وفيما كان الاخ واخته
يتعانقان دخل المنزل ضيف جديد اسمه ابراهيم ميلس وهو يهودي
ذو ثروة ضخمة كان منذ شهرين قاعداً عن حضور الاجتماعات في
شارع فرنسوا الاول . دخل فقبل يدي الفرادة ويلي واعتذر عن
تاخره لانشغاله بجهام تعود عليه بالنفع الكبير . ثم دخل الجميع
غرفة الطعام فقال هنري لليلي :

كنت ظننت ان رجوع غاستون يوثق عرى صداقتنا . فتغيّرت
افكارى ، ما لهؤلاء الضيوف يا ليلي ؟

اجابت : ان پول داقون صار منّا منذ أعلنت الفرادة انها امينة
سره المطيعة ! . اما ابراهيم ميلس فانت ادري باننا نعاشره
لاجلك . انه على ما نعلم مدير دوائر ادارية كثيرة ، ويملك
الكثير من المصارف والمناجم ومتاجر الحديد ، وهو مزعج ايها العزيز
ان ينشئ جريدة يومية واسعة الصفحات ، ولما كانت مهتك
الصحافة رجوت حمله على تعيينك محرراً للقسم الاوفر في جريدته .
وانا ولا ريب فائزة بما ابغى كن مطمئناً

— واظن انك لاجل ابراهيم ميلس ، قد لبست هذا المساء ،

توبك المخطط بريش الطاووس

- اذا كان ذلك كذلك فانا محقة في عملي

جرت على وجه هنري غمامة سوداء ولم يفه بكلمة مدة العشاء .
على ان غاستون كان بطل تلك الساعة . فكانوا يسألونه عن اميرة
فيجيب بسهولة قال :

لم اقض في نيويورك الا سنة ونصف السنة ، اما في السنين
السابقة فقد سكنت البرازيل معتقاً من الاعمال ضرورياً . . . كنت
حيناً فلاحاً وحيناً تاجراً او مزارعاً او مرتبي حيوانات

قال ابراهيم ميلس : البرازيل بلاد جميلة ذهبت اليها مرتين
لاؤسس شركات معدنية ، ولا يزال في ارضها كنوز وافرة يمكن
استثمارها

اجاب غاستون : فليستثمرها من شاء وليتفع بها . لقد
ساعدني فيها صهر ابن خالي هنري ميامون ، السيد اللطيف اميليو
على احترام الزراعة ، ولن انسى صنيعته الي ، بل اشكرها له مثلياً
عليه . ساعدني على احترام الزراعة ولكن ماذا تريدون ان ازرع
ايها الاصحاب . . . لقد قضيت هنالك ثلاثة اشهر زرعت خلالها
كل شيء ، وكادت الافاعي تبتلعني حياً والذئاب تقترب مني ، فنقلوني
الى المناجم . فيا لله ! ! لقد جازفت بجلدي في هذه الصناعة ، وكان
بين فعلتنا عمال يلعبون بالخناجر لعب الاسبان بالقصب ، بل اكثر ،
فتركت المناجم . . .

فقاطعه شارتيير وقال : اعتقد انك فاسد اشياء اخرى . لقد
قلت اذا لم تخني ذاكرتي ، انك لم تلبث طويلاً في معمل يقددون

فيه اللحم قرب مدينة پارامبوك ، وقد اشتغلت ايضاً في شركة كانت تصدّر خشباً من الامازون . . . ولما اراد اميليو ان يبيّك عنده ليشغلك بقربه . . .

— لا تهرف بما لا تعرف يا حبيبي شارتير . انا لا أنكر على صهري اميليو محبته لي وعطفه عليّ الاّ انه كان يشغلني شغلاً مضمناً ويكلفني نقل ارقام وتصفية حسابات عديدة كل يوم ، حتى اني لو داومت على تلك الخطّة ، لكنتم اليوم ترونني في احد مستشفيات المسولين

فضحك ابراهيم ميلس ضحكة المستهزئ اما شارتير فعبس وقال قول مجد :

العمل والثبات ضروريان لكل من رام نجاحاً وتقدماً .
أرأيت اي كدّ يكدّ اميليو في سبيل وفرة ماله ، فكيف تتكاسل انت وتنفر من الشغل ، في حين انك في اشد حاجة الى المال لتستقيم حالك !

— الا تعلم ان اميليو يكدّ ويعمل ليؤمن حياة الآخرين ؟
اتجهل ان بيته اصبح داراً للحضانة . لم ييضر على زواجه ست سنوات حتى رأى على بساطه ثلاثة وراثاء يتداعبون والرابع في الطريق !

فصرخت ليلي بمل فيها : هنري لم تقل لي شيئاً ، انك تنتظر ولداً رابعاً لاختك ، فاني ارثي خالها واشفق عليها .

قالت الفرادة : مسكينة انت يا مادلين ، ابنة عمي . لقد قضى عليك الاّ تقطفي زهرة شبابك ، وفي اجمل سنينك تهينين

المصاصات وتمخطين الصبية الباكين . . اذا كانت تلك قسمتك من
الحياة فبنست القسمة !

فانقبض شاتير وقال : في العالم نسوة لا يطالبن بحقوقهن من
الراحة والسعادة ، بل يجدن السعادة كلها في افراح الامومة وواجباتها ،
بل لا يعرفن غاية لوجودهن الا ان يكن امهات ، لا كما ترعهم
عصرياتنا من ان الويل كل الويل في الاولاد

فقهته زوجته الفرادة وقالت : نعرف جميعاً انك تحب
الجدال في هذه المسألة ، ولطالما سمعناك تندد بقلّة النسل ، وهي الجرح
البليغ في جسم الوطن كما تدعوها . واطن انك تتحفّر الساعة لتدلي
الينا ببراهينك . رافّة بنا يا عزيزي ، اذا كان في الامر ما يهتك
فنحن لا نعبأ به . . .

— فاستصوبت ليلي كلام اختها وقالت :

والاولى بنا من هذه الاحاديث ان نسمع غاستون يجبرنا عن
حياة مادلين ! هات يا اخي . واراد هنري ان يخرج عن صمته
فقال : ان اختي مسرورة من حالتها وطريقة عيشها وليس في ساء
حياتها من غيمة الا كونها محرومة من مشاهدة ذويها لانهم لم تأت
فرنسة الا مرة واحدة بعد زواجها

فشئ غاستون : ان شمس فرحها بزوجها واولادها قد بددت
هذه الغيمة . واقرباء اميليو عديدون وكلهم مشغوفون بمادلين
يخدمونها ويعطفون عليها وربنا لن تعود الى هنا فتراكم

فضحكت ليلي ضحكة صفراء وقالت :

لقد عوض الله اهلها منها بالعزيز هنري ، أعقل الطلبة وابرّ الابناء !

فنظر هنري الى ابنة عمته كانه يقول لها :
 أجل سأكون سعيداً اذا استطعت ان أبغضك !!
 وكأنها فهمت ما يحول في فكره فالتفت اليه التفاتة ازدراء .
 وقد رفعت رأسها ثم امالته الى كتفها اليمنى وقلبت شفتيها المستهزئتين
 فبانت من تحتها اسنانها البيضاء .

انتهوا من الاكل وقاموا الى التزهة ففترقوا في قاعة البليار وفي
 بهو الدار حيث نُصِّدَت آنية المزروعات الخضراء ورزم الزهور
 بشكل يفرح القلب ويشرح الصدر

ذهبت الاختان غير مبديتين اهتماماً باخيهما . فالفرادة انتحت
 بيول دائوان ناحية واخذا يتجادلان ويتجادلان عن اساتذة الفن في
 فرنسا كشابلان وروتي وغيرهما . امأ ليلي فقد جلست على طرف
 البليار جلسة الفنج وطلبت من شارتير ان يناولها لفافة تبغ فاشعلتها
 برشاقة وهي تداعب ابراهيم ميلس ، الذي كان يفضل شرب كأس
 من ماء الكامومي على ثقافته ولا يدخن احسن تبغ هاغانة

وكانت ليلي تقهقه ضاحكة جواباً على تغزل المثري اليهودي
 بها بصوت خافت ولهجة بريطانية ، مما ضاق له صدر هنري ميرامون
 فنظر واذا بجريدة على البليار فتناولها متظاهراً بأنه يقرأها
 ولكنه كان لا يقدر على تبين كلماتها ، بل كان ينظر اليها مصغياً
 الى ليلي تتحدث عن معلمها في الغناء قائلة : انه مغن شهير يضمن
 لها مستقبلاً باهراً في عالم الغناء

وزادت ان اختلت بابراهيم ميلس في زاوية للشرفة مظلمة
 وقالت له :

اليك والى استاذي وكلت امري ، وعليكما اعتمد في
تدريبي ، لاني اريد ان ابدأ عملي في الفصل القادم فاعطني مسرّحاً
من مسارحنا الباريسية . الوعود في الهواء لا ترضيني فألمي وطيد
في ان اصل بسعيكما الى غايتي ، واذا شئتما وصلتُ قدّبرا
الامر . . .

ومن ثم ذهب شارتيير الى غرفة الاستقبال وفتح البيانو وألحَّ
على ليلى بالغناء فاخترت من دفتر كان معها أهيح اغنية للشهوات
وأدعاهها الى البلبلة ، وقد وقع نبراتهما دايسني توقيعاً عجيباً
فاسرّ غاستون الى هنري قائلاً : أسمح لخطيتك بان تغني مثل
هذه القصائد يا هنري ؟

اجاب هنري وقد امتنع لونه : هي العادة فما حيلتي ؟
أنت ليلى غناءها . فطلب اليها ابراهيم ميلس ان تعيد ، ألا
انها اغلقت البيانو وقالت متأمرة :

— لقد فات الوقت ، واشغالنا كثيرة غداً . أليس الحق ما
قدمت ، يا الفرادة ؟ ! تزهات فغناء في الصباح ومخاصرة بعد
الظهر . ولا أعلم كم نتلقّى من الزيارات ونزد منها . اودّعكم
فتقبّلوا احترامامي

أما الفرادة فبعد ان كانت تصغي الى پول داثوان يشرح لها
جمال نورمانيا نو تريكس في صورة اخرجتها ريشة روتي تبرمت
باختها واغلظت لها الجواب : ما اقدرك على تسريح الناس يا ليلى !
اما المدعوون فاخذوا يستأذنون بالانصراف وكانت سيّارة
ابراهيم ميلس تعجّ على الباب فركبها . أمّا رفقاؤه الثلاثة فساروا

في الشارع مشياً على الاقدام وقد سأل احدهم بول دافوان قائلاً :
 اين نكمل السهرة ؟ ؟

اجاب غاستون فرحاً : في موغارتر ارى ليلي بارعة في الغناء ،
 ولكن الحانها ، وان جميلة لا توازي اغنية من اغاني القمّة هناك !
 ما رأيك ؟ ؟

قال هنري : موغارتر بعيد عنا . فانا اقودكم الى ملعب
 انكليزي فنحسو هناك من الشراب ما طاب لنا ونكرع شيئاً من
 الوسكي الحقيقية

فتعجب غاستون وقال : اتتردد الى مثل هذه المحلات يا هنري ؟
 انا كلفٌ بها ولكنني قويّ الجسم ، اما انت فليس من الحكمة ان
 ترتادها لانك ضعيف هزيل واصفرار وجهك يرب ٠٠٠
 - هو هذا يا عزيزي فعلى من كان ضعيفاً مثلي ان يجرع
 كأساً من الوسكي ، فيستعيد قوّته ويفرح قلبه ويصالحه
 والحياة

- الا ان الوسكي نار تحرق الكلّي
 اجاب هنري : لم طول الحياة ، اذا استطعنا ان ننهب
 لذّاتها نهياً

٢

طال رقاد هنري صباح اليوم التالي ، ثم استيقظ ثقيلاً الرأس ،
 منهوك الجسم ، ضيق الخلق
 أما غاستون فكان قد أفاق ودخل غرفة ابن عمته وتقدّم اليه
 وعرض عليه خدمه :

— أتريد ان اقوم مقام خادم غرفتك ؟ فقد أضفّتي عندك ،
فحقّ لك عليّ الخدمة . فسرّح هنري نظره في غرفته الضيقة وما
حواليه من الكتب والاوراق المبعثرة والثياب المشتتة هنا وهناك
وقال حزينا :

غرفتي ليست جميلة يا غاستون ؟ لقد أخطأت باستنجاري مسكناً في
شارع بوسكه ، ولم يكن لي من غاية الا القرب من بيت شارتير
ومن ليلى فاذهب الى شارع فرنسوا الاول في القطار الاصفر في
بضع دقائق ، ولكّني اقطع مسافة طويلة حتى أصل الى مدرسة
الحقوق في جامعة السوربون . آه ليتني قبعْتُ في غرفتي في شارع
سارفاندوتي ، بجوار لو كسمبورج . ادفع هنا الاجرة غالية ولست
مرتاحاً . انا في الطابق السفلي على طرف ملعبٍ مظلمٍ أكاد لا
أرى ما حولي في منتصف النهار . وجدران الغرفة ترشح الماء
شئاً فتقتلني الرطوبة

ادار غاستون نظره في الغرفة وقال : لا موقد فيها ؟
— ولا خياله . اني أشعل الأزاز لاصطلي ، والسعال والزكام

يلازمانني

— ما لك يا جيبني الا ان ترتحل من هنا
— الرحيل يجشمني نفقات ضخمة والمال ابدأ ينقصني
— الا يعطيك شارتير احياناً
— آه فلنعد اليه ! امأ من جهة دعواته لي الى تناول طعام
الغداء ، فقل ما شئت . اما دراهمه فلعمر الحق ما زلت اتشوق لونها .
انه رجل لم أرَ في زمانِي الجُل منه

— كيف تعيش ليلي ؟

— متى كان شارتير في باريس ، كانت ليلي في منزله وهو يقدم لها بارتياح طعامها وفراشها . اما اذا سافر شارتير فترود الى غرفتها في شارع شاتيو تسكنها وحدها ، لان جدتها قد ماتت .
— ان السكن ليسور . اما النفقات فمن اين تتناولها ؟
— انها تحصل بضعة درهمات من الغناء ، وانا اكمل لها
الباقى !

— اننى رايت لك يا عزيزي ، ولو كنت مكانك لتمنعت من ان اجاري ليلي وانفق عليها للتبرج وتطيش ! آه من شارتير ما أنجله ! ... تجمل بكل الحلال الطيبة الا هذه ! ... توقعت منه بعض الغنيمة ، فطاش سهمي

وفيا كانا يتحادثان كان هنري منهمكاً بلبس ثيابه ، وما هو ان اتم حديثه حتى 'حمل اليه بريد الصباح فاذا به يتناول كتاباً من ابيه يعلنه فيه انه قاطع' عنه بعد الآن ما كان معتاداً ان يدفعه له من المال كل ثلاثة اشهر

— ما بالك مقطباً يا هنري احانقُ ابوك ؟

فكان جواب هنري انه مزق الكتاب ورمى به نقفاً الى المهمل وفض غلافاً آخر وقال : هذا غير ذاك ! هذه دعوة الى زواج صديق حميم ورفيق عزيز من رفقاء المدرسة ، هو « لاموت » . لقد صتم على هجر الغزوبة . قصر اهله قريبٌ من مزرعة السبينات وروابط وثيقة تربط عيلتنا فلا استطيع الا ان احضر زفافه . سفرة لا بد منها ولا بد ان يعقبها توبيخ الوالد . وليس ذلك

بالمعجب المضحك ، على ان في الوقت متسعاً لي ، فسافكر في امر
الذهاب ملياً فلا يعتمد للصديق على خطيبته قبل ثلاثة اشهر

قال غاستون : لا ازال اذكر جلياً « لاموت » هذا ، لقد كان

بوذه ان يتعلم الطب ليداوي مرضاه ومزارعيه مجاناً لوجه الله

— صح ظنك : على انه لم يبق له صبر ريثما يقدم فحصه

ويطبع اطروحته . وخطيبته اقل بنات ولايتنا مهراً . لقد كتب

لي : « ان ليس لها من حطام الدنيا شي ، ولكني احبها . » ألا ترى في

نيتته من السلامة ما يفتنك في عصرنا يا غاستون ؟

— اين يدرس فتاك ؟

— في باريس

— اتراه غالباً ؟

— لا اراه الا نادراً . . . واطنه يقطن قرب الپيتاؤون مع

جماعة من الطلاب كانوا رفقائي في مدرسة اوزانام وليس من همي

ان اراهم

— لم وهم رفقاؤك ؟ ولست ازال اذكر انهم انبل الشبان

خلقاً واشرفهم محدثاً ؟

— لقد شئتنا الحياة ، فتباينت افكارنا ولغاتنا وامتنع علينا

التفاهم . فحافظوا على ايمانهم وظلّوا شباناً يُقتدى بهم وهم جاهدون

في الدرس على تعقل وهدى

— ادركت كنه فكرك . ان عشرتهم تضجرك

ورفقتهم لا تلذك لانها بريئة من الافراح والملاهي التي تطلب

— ساء ما توهمت ، انني تناولت طعام الغداء عندهم مرتين

وثلاثاً . فعشرتهم مفرحة ورفقتهم جذابة . وقد رأيت في شبابهم من الحقّة والبشاشة والنشاط ما اطربنى . انهم يتحدثون ويتفكّحون وينضجون من الافكار في عشر دقائق اكثر ممّا تنضج البيئة التي اتردد اليها في سهرة طويلة . والواقع ليس هناك ما يضجّرني الا هذه البيئة

هناك ترى طلبة الطبّ والحقوق والصحافة جالسين كالاخوة حول منضدة واحدة يتبادلون الاحاديث المفكّكة عن حوادث مدرستهم . وهكذا يستفيد طالب الطب من طالب الحقوق ما يوسع مداركه ، وتلميذ مدرسة الزراعة يأخذ عن طلبة مدرسة الفنون الجميلة اصطلاحات التصوير والدهان واسرار المعامل الصغيرة ، وفي ايام الاحاد يدعون رفقاءهم من المدرسة العسكرية ودار المعلمين وغيرها الى مؤاكلتهم ، فيأتون ويأكلون البقناك مع التفاح ومطبوخ الكبوش

لا يا غاستون ان رفقة هؤلاء لا تضجّرني ، فانهم يعيشون فرحين ويتفكّحون بما طاب لهم ويتبادلون من الاحاديث والكلام المضحك ما شاؤوا .

انت اعلم الناس بطبع الشاب انه كريم يعطي كل ما يملك وليس الكهل كذلك

هؤلاء الشبان يقتصدون ببديهيّاتهم ولطائفهم ويلقون من النكات الجميلة ما يعبر عما في قلوبهم من الشواعر الطيبة امام اي كان ، فتسمع هناك في ساعة واحدة اشياء كثيرة من الفنون الجميلة ، وتطلع على امان عديدة ومقاصد حميدة لمساعدة البشرية ، وآراء

قيمة في الفلسفة وطموح لا غاية بعده الى التضحية بالنفس في سبيل
الوطن واصلاحات اجتماعية ومقاصد رسولية جليلة . آه لتلك الشبية
ما أسلمها ! آه ما أشجعها وما أوقعها في قلبي !

— انك لتحيرني يا هنري وقد التبت عليّ ؟ لانك تطرى
شباناً قلت لي ان افكارهم غير افكارك ولقتهم غير لقتك ! ..
واحسرتاه يا غاستون هذا كله لا يحول دون اعجابي بهم
وحسدي لهم من اعماق قلبي !

— اذن فما لك الا ان تحذو حذوهم

— لست بقادر وليس لي من الحزم والارادة ما يكفيني ،
هم جاؤوا باريث لطلب العلم من مناهله وانا اتيتها سعياً وراء
الشهوات والملاهي والمنكرات ، التي تسكرنا بظاهرها الغشاش ولا
تترك في ذوقنا الا السأم ، وفي نفوسنا الا الحمية . لقد عبثت
باجمل سني حياتي ، وانهكت صحتي وبذرت مالي . ولطالما اسررت
بذلك الى نفسي كلما عدت اليها في مثل هذه الساعة . ان مهاز
الضمير لا يفتأ يعذبني ! .. .

— انك واهم يا حبيبي فلم تضطرب نفسك ؟ انا احب
الملاهي واتعشقتها واميل الى الكسل والبطالة ولست ، على ذلك ،
قلقاً مضطرباً مثلك . خلق الناس ، لكل طبعه . فهذا رزين وقور ،
وذلك طياش فرفار . سلكت طريق الخفة والطياشة فسر عليها
فرحاً ولا تنظر متحيراً الى الطريق الوعر الذي يتسلقه برزانة سادتنا
الزهاد

— ان ما انا عليه من الجبانة ويختلف العادات السيئة يسيرني

في هذا الطريق الرحب الذي سلكه آخرون كثيرون معتبطين ،
على اني احب ابدأ الى الاول ، لان لي لنكد طالعي ضيقاً لا يزال
حيّاً

- خلاصة القول : لا ضميري . فحكمك ايها العزيز مصيبٌ
فلا اعتب عليك ، ولا اريد لك شراً ولكن آية حاجة لي بهذا
الضمير ؟ وما نفعي منه ؟ انت اخبرني . ان هو الا لاقلاق راحتي
وبلبلي ؟

- اجل لقد اصبحت !

- ان حياتك ايها العزيز خمس سنوات في باريس لم تقض على
اعتقاداتك الصبائية ، فانك لا تزال تتغنى باعمال البطولة والفروسية
التي كنا نتغنى بها يوم كنا اطفالاً . اُخَلِّقْ لتذهب فتدفن نفسك
في مراکش او تموت حباً للوطن ! اني اتصورك جاثماً في طائرة
محاولاً اجتياز بحر المانش او جبال الالب التي اودت بحياة
كثيرين من امثالك ، ابطال العلم والاكتشاف او اتملك
رسولاً شاباً ملّ قلبك العزم تأتم الصين لتبشّر صغارها فتموت
في الاصفاد

وعلى ذكر المرسلين ، أسألك ما حل بصديقك الحميم لوسيان
ريشار وقد ترك العالم الى المدرسة الاكليريكية

- لا يزال فيها

- وافكاره في الدعوة الاكليريكية لا تزال هي هي ؟

- نعم منذ ست سنوات !

- ليس ما تقول من المعقول . لوسيان وحيد لامه وهو من

اسرة شريفة واقرباؤه كثير نبلاء اغنياء ، وقد ورث ثروة كبيرة
عن ابيه آه لو افهموه الحياة ونعيمها . . . ولكنهم حجبوا عليه
كامثاله منذ خروجه من المدرسة

- عرف لوسيان الحياة وعجم عودها وذاق حلاوتها . وهو
عارف ما يعمل . وقد خدم في الجيش سنتين !

- خدم في الجيش سنتين وعاد الى المدرسة الاكليريكية ؟ !

انك تستهزئ بي !!

- ما قلت لك الا الحقيقة !

- لقد تيقنت الآن انك لم تكن يوماً جندياً ولم تعرف ما

يحدث في المعسكرات

- لقد شككت في الامر مثلك وعجبت به عجبك، لكن

لوسيان اخبرني ان المعسكر لا يفسد على الجنود الاكليريكيين
عقولهم ولا يبلبل قلوبهم بل هم الذين يصلحون الفاسد فيه
ويثقفون المعوج

- وما عساهم فاعلون ؟

- اعمال الرسالة : بامثلتهم الصالحة فاحاديثهم وقراءاتهم

وغير ذلك من الوسائل ، ولديهم منها الشيء الكثير

- آه لو أتيح لي ان اراهم هناك

- هذا ما كنت اردده ، حتى اتاني يوماً صديقي لوسيان

بمجلة اسمها « الرزمة » وما هي الا صلة بين هؤلاء اللاويين الذين

يخدمون الجندية . اخذتها وقرأت فيها ما اثر في نفسي اشد التأثير

وانحرف هنري الى منصدته بلباقة واخذ يبحث عنها بين المجلات

والنشرات المنضدة عليها وأخرج من بينها اربعاً او خمساً من المجلات
الخضراء فتصفحها هنيئاً وقال : اسمع هذا :

يتساءل اخوتنا الجنود ، كل يوم صباحاً . ما الذي اعمل اليوم
لاستفيد من حياتي العسكرية وافيد رفاقي ؟

وهذا من حسنات الخدمة العسكرية انها تقربنا الى الناس
وتساعدنا على معرفتهم . لا رجال التأليف الذين نقرأ كتبهم بل
احياء اليوم الذين يجب علينا ان نساعدهم على خلاص نفوسهم

— انا موافقك على هذا . . . ففي الجندية يخلط الناس
بعضهم ببعض وجنودنا يعلمون حق العلم ان الكاهن انسان مثلهم
ومن جبلتهم

— اسمع فاكمل لك القراءة ؟

أستطيع رفقاؤنا الجنود ان يقولوا عنا : ليس الكهنة من جبلة
غير جبلتنا ولا هم من ذرية غير ذريتنا ، فلحياتهم الادبية قواعد
وشرائع كما لكل الناس ، الا انهم يؤمنون بها ويطبّقون حياتهم
على مبادئها

— لقد احسن الكاتب !

— اسمع لي هذه الكلمة عن البرّة العسكرية التي يرتديها
الرسول ويستطيع ، اذا شاء ، ان يعمل وهو يلبسها :

يجب علينا ، كل مرة تناولنا البرّة لنطرحها على اكتافنا ، ان
نفكر بثوب النعمة الذي نلبسه ، ولا ينبغي ان نلبسه قبل ان نقبله
كما نفعل ، كل صباح بثوبنا الاكليريكي ، فالثوب العسكري هو
ايضاً ثوب الفقر لانه ليس لنا ، هو ثوب الطاعة لشريعة سمح بها الله ،

ثوب الطاعة لقانون وطني جدير بان يولد فينا روح التضحية والتجرد
وهما من اخص واجبات الاكليريكيين ، خصوصاً ثوب الاخوة
الذي يجعلنا مشابهين الآخرين لا بالخارج فحسب بل يساعدنا على ان
نشعر بالآلام التي تشعر بها قلوب من لبسوه

فقيهه غاستون وقال : هذا خليق بان يستمى شعراً . ما كنت
احلم بان اسمع هذا عن البزة العسكرية ، ولكن هذه عقلية
المتريدين ! على اني اظن يا هنري ان الجنود لا يدركون هذا العلو
الشاق بل يعتبرون رفيقهم الاكليريكي ولدأ مؤدباً ليس الا ،
ولا يذهبون الى ابعد من هذا . فاقولك ؟

- بلى انهم يخلقون الى اعلى ما تتوهم . اصبح لي سمعاً
فاقرأ عليك صفحة تؤيد قولك اآه لو تعلم كم أثرت في قراءة هذه
الصفحة وملخصها : ان جندياً اكليريكياً مر بمكتب ضابطه مساء
يوم من ايام الشتاء وكان في المكتب مدعوون كثيرون . فاستدعاه
الضابط وقال :

افهمت علام يدور حديثنا ؟

قال الاكليريكي : لا يا سيدي !

- نقول : اسعد الناس من اختار الطريق الذي اخترت

- هذا ما اعتقدت واعتقد ولكن ما حملكم على الجهر

بهذا ؟

- اجل انتم معشر الكهنة اسعد الناس لان لكم من

الشجاعة ما يجعلكم تغلبون انفسكم وتتسلطون على اهوائكم ،

يحل الله فيكم بل نعمه فتعرضون مستغنين به عن كل ما في

الحياة من لذة . انكم تحبونه فوق كل شيء . وقد استبسلتم في محبتكم حتى انكم لا تعشقون في الحياة سواء . اماً نحن فانما تنقصنا الشجاعة . . .

ما اتم هنري القراءة حتى طرح النشرة على الطاولة واسترخى وقال :

اجل لقد نطق الضابط صواباً ، هي الشجاعة تنقصنا . وان لوسيان وامثاله لمن السعداء .

قال غاستون ضجراً : دعهم في نعيمهم يقتبطون ، وتعال نأكل . أتريد ؟ لقد حمل الخادم القهوة وكادت تبرد . . .

— اشربها باردة وان تافهة مثل هذه الزبدة . وهي من احط نوع . آه لو تشعر باضطراب نفسي وقلقها في مثل هذه الساعة يحسو والذي كأساً من الشوكولاتة اللذيذة ويقرأ جريدته فرحاً على سطح السنينات بين الزهور ، ثم يقوم ويدور دورته حوالى المزرعة تظلمه الاشجار فيقطع الثمار ويستنشق الروائح الجميلة من الازهار الفواحة ، وانا في مثل هذا الوقت اذهب الى مرأب اعرفه او ادخل الى هذه الغرفة التي لا نور فيها ولا هواء ، فاحبس نفسي بين جدرانها أقلب صفحات كتي لا كتب مقالة ادرجها في ذلك المعجم ، وذلك لاحصل شيئاً اقتات به . . .

انهم يقولون : ان الحياة جميلة ! وانا اقول انها لمهزلة . والذي يقتلني حسرة قول الناس في : « ان هذا لشاب خليع ! »

خرجت الفرادة وايسل من المترو في محطة الكونكورد

وابتسمتا لحرارة شمس حزيران وحركة شارع ريشولي ، ونعمومة
الهواء اللطيف ، وقد دغدغ وجوههما بنسياته حاملاً اليهما روائح
الورود والياسمين

قالت الفرادة : سنقوم بزهة جميلة مشياً على الاقدام ، انظري
لقد خرج الباريسيون كلهم افواجاً وجماعات وافراداً عصر هذا
النهار . . . هاكهم يمشون كأن ليس لهم شغل في هذا العالم ، سوى
ان يطوفوا الشوارع ليزوا الناس ملابسهم وتبرجهم ويتمتعوا بهذا
اليوم الجميل . فلنعمل عملهم !

قالت هذا وانطلقتا تقفزان مسرعين يساعدهما ثوبها الضيق
وقدّهما الناحل مع ما تتعلان من احذية عالية الكعوب ووجهتهما
الشارع الملكي

كانتا تمران آمنتين بلا توقف ولا تردد شأن الباريسيات اللواتي
لا تحبهن العجلات والسيارات ، وان كثرت ، متجنبتين العوائق
والمخاطر ، متحدتين بين المارين مسرورتين كأنهما في منتدى
كانت ليلي ، لايام خلت ، قد اصابته نجاحاً عظيماً بغناء غنته
خارج باريس في حفلة أرصد ريعها لاعمال الرحمة

— لقد قدّموا لي زهوراً جميلة يا عزيزتي وبلغت منهم الخامسة
مبلغاً عظيماً حتى لقد استقبلوني استقبالاً ملوكياً

قالت الفرادة : أحسبك على حياتك . نعم لقد احسنت عندما
احتفظت بحجرتك ، يلذك طبعاً ان تفوزي باستحسان الناس
وتصفيقهم ، وان تنبهي في نفوسهم عواطف الاعجاب بفنك كما يلذك
اكرامهم لك وترفعهم اليك . ما اضجر حياتي وأتقنها اذا قوبلت

بحياتك . زوجي من عامة الناس . عاش لكل ما هو مادة ، لا يعرف من العالم الا زاويته قرب النار حيث يجلس مستريحاً ، ولا يلذذ الا ما يهيأ له كل يوم من طعام ، ولا يهتم من شيء الا ما يجمعه من مال

المال ! المال ! ... ليس على شفتيه غير هذه الكلمة ، وحكمه على الناس بضخامة محافظتهم ، فيحتقر الذين لا يسعون ليزيدوا مداخيلهم بطرق علمية . اما الذين لا يملكون شيئاً ، فهما تكن خلافتهم ، فهو يجهلهم ولا يقر بوجودهم . هالك مثلاً :
بول داثوان ، شاب ثاقب الذكاء . فنان من الطبقة الاولى لا يعوزه سوى بعض الدراهم ليستأجر بيتاً ويتنظر زبائنه ، ليشغل لا سعيّاً وراء الخبز بل لاجل الفن فقط ... وفي مثل هذه الظروف تبرز شخصية الفنان السامية

— لا شيء . احق من هذا ! وما فعلت لاجل داثوان ؟ هل استطيت شارتير ؟

— نعم ! ... او تعلمين جوابه . قال : ان فتناً مصوراً لا يأتي عملاً يدر عليه الربح لهو جدير بان ينظف نحاس المنازل ويبيض جدرانها بالكلس !

— هذا منطق شارتير . أتعرفين يا أختي ؟ اذا كان زوجك ينمو كل يوم بالعمر والحكمة ، فان نجسه لا ينقص بل بالعكس يزيد وينمو . كل يوم يمضي يضيف فيه شيئاً الى نجسه وان لم تقتاطي الامر وتنظمي علاقاتك به استعبدك . وربما صار هاربا غون بازائه كريماً جواداً

فتنهدت الفرادة وقالت : لمن تقولين هذا . اليوم صباحاً
خاصني لاني عبتُ على خياطي امراً ، وهو يرى اني اطلب كثيراً
واخرح كثيراً ، واني لا اهتم إلا بالتلهي والتزهات . . .

وبإذا يريد ان اهتم ؟ ليس لانه في تمام السابعة والخمسين ،
ومصاب بمرض النقرس ولا لانه لا يجب ان يفارق البيت ، اقبل ان
احبس نفسي ضمن جدران هذا البيت لارضيه . . . نعم اني
ساستحبس يوم يخطط الشيب رأسي لا قبل هذا ، اما الآن فاني أريد
ان انعم بشبابي وثروتي واصرف في سبيل افراحي ما تغل علي
اموالنا وارزاقنا !

فضحكت ليلى ، وقالت : توظيف المال صعب في هذه
الايام ؟ فعلى زوجك ان يشكرك لانك تصرفينه وتوفري عليه ما
يلازم اختيار الدائنين والمصارف من هم وعناء !

— لا تعجلي يا اختي ببيع حريتك . فزواجك السنة القادمة
سابق لاوانه

— السنة القادمة او السنين التي تتبع ! لست مضطرة الى
ذلك . هنري لطيف محب لي ، على انه لم يقرّ قراره حتى الآن ولا
اشغل مركزاً يكسب منه مالاً ، وهكذا فلن يصير غنياً طول
حياته . ثم من جهة اخرى أهو غني بصحته ؟ لا لعمرى لقد أسرت
الي غاستون البارحة ان هنري لازم فراشه الاسبوع الماضي يومين
متوالين والحمى تعاوده . وما سبب ذلك ؟ سيبه ان غاستون
يقوده ، منذ ايام ، الى المسارح الصغيرة فيتغشيان نصف الليل قبل
ان يعودا الى غرفتها في شارع بوسكه

- كان هنري كل عمره هزيباً ، لكن لا تأسفي ، فهزاله
واصفار وجهه يزيدان في جماله ، فهو لبقٌ آين !
- اجل ان رأسه لرأس بطل وعينه تارة متوقدتان وطوراً
مظلمتان ، وجبينه مقطبٌ تعلوه ابدًا غيوم الحزن . . . ان حزنه
الدائم يضجّرني يا الفرادة . لم أره مرةً مسروراً سروراً كاملاً ،
واذا ضحك تكلف ، وكلما اعتقدت انه يجملته لي شعرت بانه
مفلتٌ مني . يصغي اليّ انكلم وعقله شاردٌ ، يحكم عليّ
احكاماً قاسية . . . بلا حق . انه لا يفضلني في شيء . وهو عالم
هذا . واذا صحّ ذلك فلم هذه الابتسامة الصامتة تطفح بالاستهزاء
المرّ القاسي ! آه ان هنري شاب ملوّه ألغازٌ واحاجٍ لا اقوى على
حلّها !

وقفت عند هذا الحدّ من درس نفس خطيبتها واخلاقه ،
وكانت الاختان قد وصلتا الى حاجز شارع « مادلين » فوقفتا
مبهوتين في شارع الزهور ثم انتحنا ناحية الشمال ودخلتا حانوت
خياط انكليزي في زقاق « مارلب »

فقداهما الخياط الى غرفة التجربة . فجلستا تعبتين من تلك
الزهوة الطويلة وجلبة الشوارع . وما هي الا هنيهة ، حتى نظرت
ليلى الى المرأة الكبيرة فرأت صورتها وهي صورة فتاة جميلة . فلقد
كانت ليلى معقوضة الشعر وعلى رأسها قبعة واسعة تهتّ عليها ريشات
طويلة بيضاء اولعت بها كثيراً سيدات باريس في ربيع تلك السنة ،
فراقت لها القبعة ونظرت الى اختها نظرة اعجاب فوجدتها متشحة
بشوبٍ جديدٍ والخياط واقف امامها وقفة الفنان المفكر ، امام عمله

يصلحه وهو على جسمها . فانتقدته ليلى ، ولكن الخياط البريطاني كان صامتا متظاهراً بأنه لم يسمع شيئاً ، وكان يدور برزانة حول الفرادة ويده على ذقنه مقطباً مفكراً . وما لبث ان خرج من تفكيره واحلامه وشرع يفتق كم الثوب بسكين . ثم اخذ قطعة من الصابون الابيض ورسم خطاً جديداً طواه من هنا وعلق به دبوساً من هناك وركع ليدور الثوب من أسفل . . . ثم عمد الى اصلاحاته اخرى . فاخفت الثنايا التي كانت في غير محلها وأفرغ القماش على الجسم فاصبح الثوب غلاباً للجسم محكماً . فبعد الخياط قليلاً وتنازل ففتح فاه وقال :

أوريط !

فأثبتت ليلى كلامه قالت : أجل « أوريط ! »

فسألته الفرادة . متى يتم فتسلمني اياه ؟

أما هو فكان يدون نقاطه غارقاً في حساباته . فعادت الاختان الى الكلام عن الاقشة واختراع الازياء الجديدة واخذتا تتصفحان مجلة للازياء كانت امامها منعمتين النظر في صور من حير علفت على الجدران تمثل آخر الازياء الباريسية . اخيراً تركتاها وخرجا وهما تفكران في الساعات الطويلة التي صرفتاها في تجربة الثياب والقبعات والثرثرة والتردد الى المحلات الكبرى او الى دكاكين التحف والنوادر !

هما الآن في الشارع الضاحك المزدهم بالمسارات الجميلات المتبرجات اللباسات قبعات الربيع ، وفي آخر صف الشجر كانت بائعات الزهور يجردن عجلاتهن طافحة بالزنايق الفواحة والرياحين

والورود العطرة . وكانت هناك بائعات صغيرات يقدمن لكل
المارين وسادة من الورق المنفوخ ملأها حبوباً عطرية

- اشتروا الخزامى وفاردين الالب ١١

وكان باعة الجرائد متباطين حزمأ منها يصيحون بملء افواههم :
الصحافة ، الصحافة آخر الاخبار النكبة الاخيرة !

فاضطربت الفرادة وسألت اختها : وما هذه النكبة؟

اجابتها ليلي : مئات من الناس البله دهمتهم كارثة فسحقوا لا
اعرف اين ؟ . . ولم تأخرت يا الفرادة تقديمي . . . اما
نكبتنا فاننا تأخرنا عن الموعد الذي ضربناه لمصوري ! وسيكون
عنده پول داثون ، أليس على هذا تواعدنا ؟

- بلي ، وقد طلبته ليأتي فيرى صورتي المكبرة وينتقدها
وسنرى هناك ايضاً هنري وغاستون

كان الشبان قد وصلوا ساعة دخلت الفرادة وليلي بهو الانتظار .
وكانت صور كثيرة معلقة بجدران الغرفة ، وصورة الفرادة المكبرة
موضوعة على قاعدة من خشب قرب الشباك ، تمثلها جالسة على كرسي
ذات مسند عالٍ ، وقد رفعت رأسها الزاهي فظهر عنقها الابيض
وزادها جمالاً شعرها الاسود المدور كتلاً على خديها

وما ان رأت الصورة الفرادة حتى قالت : ما هذه بصورة بل
حفرني !

اجاب پول داثون : ألم أقل لك هذا . ولم يتالك ان وقف
وقفة الجد وألقى محاضرة قصيرة قال : « تقديمي فانظري هذا الوجه
عن قرب ما اجمله ! فانك لا تجددين لا التقاطيع النافرة ولا كثرة

التفاصيل التي نراها في بعض الصور فنعدّ شعر الشخص المصوّر .
 أما هنا فلا شيء . من هذا ، لا خطوط بارزة ولا ألوان قائمة ولا أنوار
 حادة . تأخري الآن وتأملي قوة الحياة فيها ، انظري الى هذا الرأس
 الفارق نصفه في العنقة ، كأني به يحاول الوثوب من اطاره . . . ثم
 التفت الى ليلى وقال : « انت ، لا شك مسرورة »

أجابت ليلى : انها جميلة . لا انكر عليك ذلك . ولكني
 اريد منك بعض تنقيحات واصلاحات
 — أين ؟

— هنا ، حول العينين ، يجب ان يكون الظل اعمق
 فيكسب النظر سناء وجمالاً

— ذلك لك ، فما طلبت الا الهين !

كان هنري في هذه الفترة يتأمل فيتعجب ، وعلى وجهه سماء
 السرور والوضى . وكان يداعب داثوان ويدخل في حديثه معه
 كلاماً يعبر عن طول باعه في الفن ومعرفته للفنانين

ثم قالت الفرادة لهنري : اجلس يا عزيزي فيأخذ رملك . إلبس
 وشاحاً اسبانياً وقبعةً من اللباد وسبعة الجناحين وسلم نفسك
 للمصور فيخرج لنا اعجوبةً من اعاجيبه

اجاب المصور : أصبت ، سيكون رسمه جميلاً جداً
 اما ليلى فكانت تنظر الى صورتها مقبّبة . فأنست ذلك
 منها اختها الفرادة فقالت : ألسن مرتاحة اليها ؟

— بلى ! كل الارتياح ، لقد توفّق المصور ، الا اني ارى ان
 العنق طويلٌ ، وان صلته ليست بيّنة ، وانه ينقصني ، في هذه الصورة ،

كما ينقضي كل مساء عندما أتشح ملابسي حلي بدونه تظل زينتي ،
لا بل كل زينة التحلى بها ناقصة ، بل عادمة الجمال والطلاوة !!
- آية حليلة تنقصك ؟ أعقد ؟

- نعم عقد . آه اني لا اطلب كثيراً فالقليل يكفيني ،
يروضني خيط من اللؤلؤ . أسمع يا هنري ، فاذا خطر لك يوماً
ببال ان تقدم لي شيئاً يسرني ، فحقق لي هذه الامنية ، التي طالما
نقصت علي عيشي . . . سمط من اللآلي !!

اجاب هنري : سيكون لك بدل العقد عقدان من اجل العقود
صبراً فاربح اليانصيب

- غريب طبعك يا هنري ، انا اجادك ، وانت تازحني . انا
في حاجة قصوى الى هذا العقد . فان لم احصل عليه مت حسرة !
- هم جديد أضيفه الى همومي وأضعه في ذاكرتي هم
العقد !!

- انت قادر على اعظم من هذا وأجل ، اذا ما قدتني يوماً الى
صانع ماهر

- والمال يا مليكتي ؟ ؟

- المال ؟ اسمعي يا الفرادة . ان الرجال ، كما قيل فيهم ،
لا يصدقون ! المال من همك لا من همي . انما انت خلقت لتحصله .
وما لنا وهذه التفاصيل . . . المال هو اللازمة التي تتغنون بها كلما
طلبنا منكم شيئاً . المال ؟ هو شي ؟ يحظر على النساء ان يتحدثن
به . . . ان لم يكن لك من المال ما يكفيك ، فيجب عليك ان
تسعى اليه . . . والوسائط كثيرة . . . أسمع

اجاب هنري بصوت متقطع : نعم الم تقنني واسطة الآ
استعملتها

— اذن تعيرني اني حاملة اياك على الاستدانة ؟
— لا يا عزيزتي ليلي ، لا أعيرك بل أريد ان أبين لك اني
لست ممن يذوب عطشاً الى الذهب والحفاظ عليه . لقد دقت
الساعة الخامسة فهلتي معي الى المقهى نجرع واصحابنا كأساً
من الشاي

قالت ليلي : حيث يا هنري ا فاجتهد في ان تجعل لقمة العصر
جميلة انيقة . . . أتدعو كل الرفاق ؟ انك لشهم ، وقد ظننتك
حارداً ! رُح ! متى شئت ان تكون لطيفاً فليس من يضارئك
يا عزيزي

فصاحت الفريدة : ليت زوجي يتعلم منك . انه ما دخل
قط مرة حانوت حاويات . بل لا يستطيع ان يفهم كيف يدخل
الناس الى مثل هذا الحانوت

اجاب پول داثوان : ذلك لانه لا يجب الحلو
وما هم ان وصلوا في الحديث الى هنا حتى كانوا نزلوا الطوابق
الثلاث واستقبلوا في الخارج الشمس والسرور وكثرة الناس
والسيارات ، وبكلمة موجزة حرارة باريس اللطيفة في مثل تلك
الساعة

قالت الفريدة : سيروا بنا الى الجانب الايمن . اني اعرف
هناك مقهى جميلاً فيه من ضروب المشروبات والمأكّل الفاخرة ، ما
يرضيكم

وما هي الا هنيئة حتى شوهوا جالسين فرحين ، كطلاب نالوا
عظمتهم ، الى منضدة حوت من اشكال الحلوى مائدة . وكانوا ،
وهم يكرعون الكؤوس ، يضحكون ويتحدثون ويتفاكهون ما
راقهم ، وقد سألتهم الفراة الفضولية :

هل صتمت النية على ان تقضوا سهرتكم في لونا پارك ؟
اجاب اخوها غاستون : نعم لان هنري يجهل هذا المكان وما
فيه من الاشياء الجميلة الجذابة ، وتعدنا اعلاناته في هذا المساء
بمجات يكون لها وقع في قلب هنري فيسر ويتلذذ
قالت ليلى مغتبطة : اليكم بنا ! ألا اقتدونا معكم ؟ من
الواجب ان ننهي يومنا كما بدأناه بالفرح والسرور

قالت الفراة : أصبت ! أصبت ! ان زوجي سيئذمر . لكن
لا بأس ، فان لم يشأ ان يوافقنا تركناه قابلاً في زاويته ومضيئنا . . .
يكفيني من الرفقاء الفرسان الثلاثة ! ألا تكون انت برفقتنا
يا پول ؟

— انا رفيق المازح واللاهي !

— أحسنت ! نذهب الساعة الى بيتنا في شارع فرنسوا
الاول ، فنناول طعام المساء ، ثم نلبس ثياب السهرة ، وعند الساعة
الثامنة تأتون الينا فنذهب معاً

كانت ليلى عندئذ مسندة رأسها الى كرسيها وشمالها على المنضدة
وينها تدير الكأس على شفتيها اللطيفتين ، فوافقت على خطة اختها
بعينها الضاحكتين . . . وكان في زناهما وردة ذابلة انعشها
المشروب الذي كانت تتجرعه جرعة جرعة ، فاذا بوجهها يتلألأ

جمالاً تحت قبعتها الواسعة ، فغزّ على هزي ان تترك المنضدة ، وكان
يودّ لو بقيت جالسةً لينعم بمنظرها وهو صامت
الا ان الفرادة كانت تلحّ عليها بالنهوض لانها كانت ضربت
لصديقتهما بلانش موعد لقاء في الساعة السادسة

نهضوا جميعاً وماسخطوا في الشارع بضع خطواتٍ حتى رأوا
سيارةً مقبلةً بسرعة واذابها تقف امامهم فجأةً ويدُ رجلٍ تحفض
زجاجها ورأس ابراهيم ميلس يطلُّ من بابها

— ما اسعدني بمصادفتكم ، لقد مضى على فراقنا من طويل . ما
شأنكم في هذه الانحاء ؟ فسردت له ليلي كل ما عملوا ، بعد الظهر ،
بثلاث جملٍ .

— انتم فرحون سعداء ، وأرى انكم لا تضجرون ، أغنّى
لكم المزيد واحسدكم . . . انا راجع من اجتماعٍ اداري اضجرتني
فعرضت عليه ليلي ان يرافقهم الى السهرة ، قالت :

اننا ذاهبون الليلة الى مقهى لونا پارك لنختم يومنا فرحين ،
فاصحبنا يا ابراهيم . فاطرق اليهودي المتمول هنيئةً ثم قال : في
هذا المساء ؟ اجل انا حرٌّ ، رضيتُ ، سأرافقكم . ثم فتح باب
سيارته وقفز الى الرصيف وقال : إسبحن لي يا سيداتي ان اقدم
لكنّ سيارتي تقلكن الى بيتكن

— كللك لطف ! فلا ازعجت نفسك

— لي شغل في هذا الحيّ فلا تقلقن ، ساعود مشياً لاني لم
امش اليوم واستبقين السيارة ما طاب لكنّ ، وسيكون السائق
رهن امركن

— قَلَدْنَا جَمِيعًا لَنْ نَنْسَاهُ . . . إِلَى الْلِقَاءِ هَذَا الْمَسَاءِ !
أُغْلِقْ بَابَ السَّيَّارَةِ فَعَجَّتْ وَافْتَرَقَ الشَّبَّانُ . فَرَّاحُ هَزْرِي
وَوَاسْتَوْنَ إِلَى عَرَفَتِهَا عَلَى مَهْلٍ فَوَجَدَا عِنْدَ الْبَوَابِ بَعْضَ رَسَائِلَ ،
فَفَضَّهَا هَزْرِي وَأَجَالَ نَظْرَهُ فِيهَا وَتَوَقَّفَ طَوِيلًا عِنْدَ أَحَدَاهَا فَصَاحَ
غَاسْتُونَ :

آهَ مِنَ النَّاسِ مَا أَثْقَلَهُمْ ! تَبَّاهُمْ ! أَتَنَى لَهُمْ وَقْتُ لِيَكْتُبُوا
رِسَالَةً مُؤَلَّفةً مِنْ سِتِّ صَفْحَاتٍ ! يَكْتُبُونَ سِتَّ صَفْحَاتٍ فِي حِينِ
أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرْسَلُوا رَقْعَةً بَرِيدِيَّةً ! ! يَرْجِعُ عَهْدُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَا
قَبْلَ الطُّوفَانِ . هِيَ أَمْكُ طَبْعًا . . . تَعْظُكُ : أَنْ أَسْتَعْلِ ، أَنْ
أَقْتَصِدُ ؟

أَجَابَ هَزْرِي وَعَلَامَاتُ الرِّصَانَةِ بَادِيَةٌ عَلَى وَجْهِهِ :
سَاءَ ظَنُّكَ ! هَذَا صَدِيقِي لَوْسِيَانُ رِيْشِيَارُ . يُخْبِرُنِي أَنَّهُ يَسَامُ
شَهْسَاءَ يَوْمَ السَّبْتِ الْقَادِمِ فِي كَنِيسَةِ إِيْسَى . وَيَدْعُونِي إِلَى حُضُورِ
حَفْلَةِ السِّيَامَةِ

— أَظُنُّ أَنَّكَ ذَاهِبٌ إِلَى هُنَاكَ تَضِيعُ الْوَقْتَ فِي التَّعْرِفِ إِلَى
شَبَّانٍ سَاقَهُمْ سُوءُ الْبَغْثِ إِلَى اعْتِنَاقِ حَالَةٍ يَنْدَمُونَ فِيهَا بَعْدَ عَلَى
اعْتِنَاقِهَا ، كُلُّ النَّدَمِ . أَنْتَ مَجْنُونٌ إِذَا فَعَلْتَ !
أَجَابَ هَزْرِي وَقَدْ تَجَلَّتِ الْغَرِيزَةُ فِي جَوَابِهِ : أَنْ لَوْسِيَانُ أَوْدَى
أَصْدِقَائِي وَأَخْلَصَهُمْ لِي ! وَذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ اعْظَمُ أَيَّامِهِ . فَهُوَ يَدْعُونِي
وَأَنَا ذَاهِبٌ !

٤

فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمَعْهُودِ مِنْ شَهْرِ حَزْرِيَانِ ، لَيْلَةُ عِيدِ الثَّالُوثِ

الاقდس، كان هنري في قطار الكهرباء ينظر على غير اكتراث الى الصروح والاشجار وجدران المدرسة الحربية والساحات الواسعة
تَمَّ امام عينيه

كان في مقدمة القاطرة وحده الا رجل في جداره يناهز
الخمسين ، قصير القامة طويل اللحية ، غارق في جريدته . ولما وصل
القطار قبالة الحصون توقف الرجل المجهول عن القراءة وقال : أوصلنا
الى إيستي ؟ لاشك انك آت اليها ، ايها الشاب . إهديني ، اذا
سنت ، فانا لا اعرف باريس ولا ضواحيها

أجاب هنري بصوت فاتر : أجل اني قاصدٌ إيستي

— انت من المشغوفين بالطيران . كذلك الكهل الذي
يكلمك وقد بلغ حبه للطيران مبلغ الجنون ! فاذا عسانا نرى بعد
عشرين سنة ! ؟

— ألى الطيران انت ذاهب ؟

— طبعاً واني لمتقرب ان أرى طائراً من طيورنا الجبارة يخلق
عالياً في هذا الصباح ، فلم أشأ ان اعود الى مقاطعتي قبل ان ارى
طيارة تخلق . . . لا بد ان نرى واحدة تطير ! . . .

— لست ادري ، ولست الى المطار بقاصد

— الى اين وجهتك اذن ؟ وقد قلت انك آت الى إيستي ؟

— ان في إيستي يا سيدي اشياء غير الطيارين والطائرات . انا

ذاهب الى المدرسة الاكليريكية !

فدهش الرجل وارتحت اعصابه فسقطت الجريدة من يديه ،

لانه كان من مدينة صغيرة تُدعى « هومس » وقد قضى عمره يتدح

الاكتشافات والتقدم هارباً من الثوب الاكليريكي
 فقال : الى المدرسة الاكليريكية ، ملجأ الخمول ؟ أصبح ما
 تقول ؟ أمثل هذه الملاجي تُبنى بازاء ساحة المجد حيث يطير
 فرسان القبة الزرقاء الى فتح السماء ؟ ؟

وصل القطار الى ابواب فرسايل فهرول الشيخ نازلاً من القطار
 معتبراً نفسه سعيداً ، اذ تسنى له ان يهرب من رفيق اكليريكي
 على جانب كبير من الخطر

ففكر هزلي في كلامه : « فرسان القبة الزرقاء » هؤلاء
 يهتفون الارض وما فيها وما عليها ليفتحوا السماء ويساعدوا الناس
 على الاستفادة من فتوحهم من هم هؤلاء ؟ ومن منهم تختصه
 بغار الظفر ؟ أطيارو إيسي ام اكليروسها ؟ ؟

وما لبث ان ترك القطار كصاحبه اوما سار بضع خطوات
 حتى رأى امامه ، في شارع ارنست رنان ، بيوتاً كثيرة النوافذ ، وعن
 شماله ، تحت الجدار ، لاح سطح الكنيسة عالياً ، كنيسة المدرسة
 الاكليريكية

وكان في ساحتها جمهور غفير من الاهل والاصدقاء ينتظرون
 فتح الابواب ، وقد نصب ، فوق رتاج الكنيسة ، تمثال العذراء
 يمثلها ضاحكةً كأنها تقدم ابنها للزائرين

وكان هذا التمثال عزيزاً عند سكان إيسي جميعاً . ولم
 يتقدم هزلي قليلاً حتى شعر بيد امرأة تمتد الى يده ، وصوت عرفه
 يقول له بتهنئة اللطف والدعة :

أشكرك يا هزلي على مجيئك . ان قدومك ليسرّ لوسيان ،

وتيقن انك لو لم تأت لكان فرحه ناقصاً

فرفع هنري عينيه فوق عقيلة ريشيار اللطيف وشعرها الفضي ،
وقد وصلت امس الى باريس مع بعض النسبات وخادمة قديمة
العهد رأت لوسيان يوم مولده فغنيت به طفلاً وخدمته صبياً
ودارساً . . .

- اجل هي جانت ، جانت نفسها شاءت ان تحضر
الاحتفال . . . ابقى معنا ، يا هنري ، فلنا في الكنيسة امكنة
خاصة

حان موعد السيامة ، فدخل المدعوون في ممشى الطابق الاسفل ،
وصعدوا في السلم المقفية الى الطابق الاعلى ، وتابعوا السير في الماشي
الموصلة الى الكنيسة . فأجلس هنري على كرسي في الصف الاول
جهة اليمين ، قرب درجة الخورس . فراح يسرح نظره في ما
حواليه متعجباً ! ولم يكن يحلم انه يرى كنيسة جميلة في مدرسة
اكليريكية !

رأى فيها عجائب القرن السابع عشر ، قرن العظام ، صحنها
من الرخام اللامع وستقفها مدهون بالوان برّاقة كانها كنيسة ملوكية
نُقلت من قرسايل . وكان نور حزيان اللطيف يدخل من نوافذها
العالية وعليها صور مختلفة الرسوم والالوان ، كُتبت عليها آيات
لاتينية . وكان للكنيسة تجاه كل طابق رواق يحيط بها
تسندة قوائم بيضاء وأعمدة من رخام رمادي اللون . فاكثت
بالجموع . فطرب هنري لهذا المنظر وعادت اليه خفة روحه فتستهم
من خلف شفتيه :

— انها لاشبه بقاعات التمثيل !

وكانت الكنيسة تحت الاروقة لا تزال فارغة تلوح بمقاعد المحفوظة كأنها قاعة تمثيل . كان صحن الكنيسة كله لا يزال فارغاً ، وكان بلاطه مفروشاً بالسجاد الاحمر اللون ، يمتد حتى درج المذبح ، ولم يكن هناك كراس . اما مقاعد الكهنة والاكليريكيين فكانت تواجه المذبح منظمّة بعضها تجاه بعض ، طوال الكنيسة يمينا ويساراً ، وتحت الرواق ، عند مدخل الكنيسة ، قرب الارغن ثلاثة او اربعة كهنة شيوخ جالسين مطرقي النظر يفكرون بالله . عبثاً يتحرك الناس ويضجون فوقهم ، عبثاً يعمد المرسقي الى الضجة بفتح الارغن وتقلب صفحات كتبه ، وعبثاً تتساعد الضوضاء من جوق المرتلين في جلوسهم ، فالكهنة الشيوخ لا يتحركون وهم غارقون في بحر صلواتهم وتأملاتهم كانت عليهم قصان بيضاء تريد بانتفاخها وتجعدّها حذبة ظهورهم . وكانت رؤوسهم الصلعاء تلوح لمن فوقهم ككرات من عاج على شاشات ناصعة البياض

فتفتح باب الكنيسة فدوت فيها اصوات الملحنين مقبلين من البستان . ثم دخل الشماسة باحتفال رائع يتقدمون رئيس الاساقفة بعضهم بلباس اسود وآخرون بقمصان بيضاء ، والشماسة المستعدون للوسم بلباس ابيض . فاذا بهنري يجد بين هؤلاء من كان يفتش عنه ، اي ذلك الشاب اللاوي الجميل ، الذي يمشي الهوينيا بين رفقائه مكتوف اليدين ، اصفر الوجه ، يتدقق منه فرح السماء

— لقد تحققت ! فهذا رفيق حياتي ، هذا اعز رفاق صباي !

وكانت قرب هنري عقيلة ريثيار، ضامةً اصابعها على درابزون
الرواق . فتمتمت بصوت تحنقه العبرات : ولدي ! لوسيان !!
وكان لوسيان ساعتئذٍ قد احتل مكانه في الصف الاول بين
الاكليريكيين ، غير بعيد عن درجات الخوروس . عندئذٍ بُدئ
القداس ، ولم يلبث ان أوقف للاحتفال بقص الشعر
وكان هنري يتبع كالحالم صفَّ هؤلاء الشبان المرتدين
السواد ، يتقدمون اثنين اثنين ، ويصعدون الى المذبح ، حيث يجز
الاسقف شعرهم فيسقط تحت مقرضه ، ويرجعون الى اماكنهم
مضمومي الايدي ، خاشعين ، حاملين على ذراعهم القمصان البيضاء
مرتبةً بطريقة يسهل لهم معها ارتداؤها اذا ما حان الوقت لذلك ،
بعضهم صاعدٌ وبعضهم نازل بنظام بديع وحركة واحدة متناسقة ،
يلمع على رؤوسهم الشقراء او السمراء الاكليل الاكليريكي ،
وهو اكليل ظاهر ابيض مدور كالبرشانة ، فالقميص الابيض
الجديد ، قميص الطهارة ، لباس العفاف . تلك هي رتبة الاكليريكيين
الذين رُقوا الدرجات الصغرى

فيمَ كان هنري يفكر؟ كانت ام لوسيان قد قدمت له كتيباً شرحت
فيه كل دقائق الحفلة ، فلم يفتحه ولم يقرأه ، بل كان يتفرس في
كل واحد من هؤلاء المختارين للرب ، وهم شبان مثله بشرٌ من لحم
ودم ، تهزهم حمية الشباب فيرتجفون ، ولكنهم موطنون النية
على ان يضخوا بكل ما عندهم ، امياهم ورغباتهم الارضية ، على
مذبح المحبة ، محبة الرب

وكانت حركات الليتورجية تتابع باتساق ، في وسط الكنيسة ،

على البساط الاحمر ، فيتقدمون تارة اثنين اثنين واقفين ،
 وحيناً منفصلين مسرعين ثمان وعشار ، فيركعون منصتين لتبسيّات
 رئيس الاساقفة . فترى الشمامسة فرحين مصنّفين ، على اتم الاستعداد
 للقيام بادق الرقب ، تقرّبهم الى بيت المقدس وتسيرُ بهم رويداً
 الى المذبح . وكان البوابون يذهبون واحداً واحداً الى الباب
 يفتحونه ويفلقونه ويعودون ، ويقرعون الجرس الواحد تلو الآخر ،
 والقرّاؤون يقرّأون . ثم شرعوا يضيئون الشموع في صفوف اللّائين
 اللّاسين القمصان البيضاء ، فسرت الاضواء من واحد الى آخر ،
 وقد خفت من حدتها نور ذلك الصباح ، فبدت كأنها ورود
 شاحبة اللون او نقاط بيضاء ضاربة الى الحمرة ، فكانت اجمل
 مذبح لشبابهم وفتياتهم

لم يشرق عليهم بعد فجر الكهنوت المقدس ، ولكن نور نهاره
 سيشعّ عمّا قريب ، فكانوا يتجهجون لذلك ويتوقّعون طلوع شمس
 مقبطين

ثم عاد الشمامسة الصغار الى مراكزهم على المقاعد ، وما لبث
 الفصل الثالث الاشدّ وقعاً ان ابتدأ

بعد ان دعا الاسقف الذين جزّ شعرهم ، وبعدهم الشمامسة
 الصغار ، قام احد الكهنة فنادى خمسين شاباً بامثالهم واسباء
 ابرشياتهم باللغة اللاتينية ، وكان صوته يدوي في وسط ذلك
 السكون ، فيقوم كل من قرى اسمه من مكانه ويجيب دعوة
 الله له قائلاً : ها اُنذا حاضر

آه يا لها من كلمة وجيزة ! لفظة تخرج من شفاه مرتجفة

وحنجرة خنقتها رهبة الساعة وخشوع الموقف

« هاء نذا ! هاء نذا حاضر ! » . لفظة كانت افواه الفتيان ترددها ، لفظة سامية المعنى ، فيها التضحية بالحياة والكفر بالارادة الشخصية ، وتحلي القلب عن الحب العالمي وعذوبته الى الابد ! ...

فلأت عيني هنري دموع حرى بل دموع الدهشة ، بل دموع « الأسف على ضحايا جميلة لا تجدي البشرية نفعا ! ... » ثم وقف الاسقف والتاج على رأسه ، ورفع صوته ينبه الفتيان الساجدين امامه الى انهم لا يزالون احراراً ، وان في استطاعتهم ان يتقيدوا بنذر العقبة الدائم او أن ينشوا عن التقيّد به ، على ما يشاؤون ، فراح هنري ينظر اليهم ويحدّق بـل عينيّه ويفكر فيما عساهم يفعلون : هل يتردّد احدهم قبل ابرازه الهدى الاخير فيقوم فينصرف ؟ ..

فاصفرَ الفتيان وارتعشت شفاههم وملكهم التأثير فظّلوا جامدين . فراجع الاسقف التنبية بصوت اقوى ، لفظة لفظة ، يردّد فضاء الكنيسة صدى كلماته ، فوقف الحضور خاشعين قال : « لا يزال الوقت متسعاً لكم ، فافقهوا دعوتكم ، ولئن صحت غرائكم ، ورسخ مقصدم المقدس في قلوبكم ، فباسم الله تقدّموا ! »

فقاموا كلّهم خاشعين وخطوا خطوة الى المذبح وبهذه الخطوة ، خلفوا العالم وراءهم . ثم سجدوا السجدة الكبرى . فرموا باجسامهم القتيّة الجميلة على وجه الارض ،

فالتصقت بها كالجلث الهامدة لا حراك فيها
 وكانت الكنيسة ساعته تبعث اناشيد الفرح فوق هؤلاء
 الموتى ، والامهات يبكين ، والحاضرون ، وقد ملكتهم الرعدة ،
 يحدقون الى هذه الضحايا النقية البيضاء منطرحة على السجاد الاحمر ،
 فيخيل اليهم ان البسط نائلة صبغها الاحمر من دماهم
 ها هم منطرحون على مسافات متساوية ، ورؤوسهم منحنية
 على اذرعهم اليسرى ، واعنقهم غارقة في النصفه ، والقميص الابيض ،
 الموشى بانامل الام او الاخت ، تراه على الجسم فتحسب الجسم
 قابلاً له

ها هم راقدون لا يتحركون ، واصوات الضراعة صاعدة من
 جميع المقاعد تنشد طلبه جميع القديسين !
 ازهار اقطفت ، قلوب خطفت ! حياة قضي عليها ! ضحايا
 لا نفع فيها ! يتظاهرون بالموت وهم على حق في ما يفعلون ! ان
 هم الا اموات . تلك هي الافكار التي كانت ترتكم على رأس
 هنري في تلك الساعة

ذكريات الانجيل كانت تتر في ذاكرته ، وضميره يهمس في
 نفسه :

- أجل ! ان هم الا اموات . انسانهم الاول ، انسانهم
 القديم ، قد مات ، ولا اعتداء به سواء . اكان شاباً عفيفاً قديساً ام
 رجلاً دنساً خاطئاً . . . فكلهم اليوم في النقاء سواء ، أبراراً كانوا
 ام متبررين ، سينهضون كلهم رجالاً جدد ، مرسلين اصدقاء
 واخوة للمسيح ! بل يكونون ، عملاً قليل ، كهنة ، مرفوعين الى

مقام الله نفسه ، ولن يقدرُوا ان يفكروا او يشعروا او يحبوا كما يفكر ويشعر ويحب الناس ، بل كما يفكر ويشعر ويحب يسوع المسيح ، لان الكاهن لا يظل انساناً بل يكون يسوعاً آخر

كان جوق المرتلين ذاهباً في ألحانه ، والكنيسة تدعو القديسين ، جميع سكان البلاط السايوي ، الى مشاطرتها الفرح بهؤلاء الفعلة الذين يرسلهم ربُّ الحقل الى حصاده

أما هم فكانوا غارقين في صلاتهم ، ذاهلين عن هذه الحياة الزائلة ، موتى عن اباطيل الارض ، مرتقين امام قلب يسوع المسيح ، وهو منذ الآن صديقهم الاوحد ، الذي لا ينقلب عليهم ولا يتركهم ، صديقهم الاوحد القدير ، المحب ، المسعف ابداً !!!

ماذا كانوا يقولون له سرّاً ، وقد سلموه مقاليد حياتهم ؟ واي عهود قطعوها بين يديه ؟ إماتة ابدية ، امانة دائمة ، محبة ثابتة . كانوا يناجونه مناجاة الحبيب الحبيب ، فهم ليسوع ويسوع لهم . واي شيء يفصلهم عن حب المسيح ؟ لا شيء : لا جوع ولا عطش ، لا اضطهاد ولا سيف ! حتى الموت نفسه عاجز عن ان يقوم حاجزاً بينهم وبينه

أجل لسوف يتألمون لكنهم معه يتألمون ، تسندهم قوة حبه وحنانه . سيحاربون ويشقون ويتعبون ، متحتلين ثقل النهار وحره ، ولكنهم لاجله يتحملون ! واذا دهمهم مساء الحياة ، رقدوا في عذوبة صداقته الالهية ، وبها قوام راحتهم ومكافأتهم لمترك خسارة الحياة لتفزعهم . اما الفقر فقد جعلهم اشبه بملئهم وصديقهم ، فما عساه ينقصهم بقربه ؟ حضوره الدائم معهم ثروة

دونها جميع ثروات الارض . فهم يردّون الآن مع صاحب كتاب
الاقتداء : انت في وانا فيك ، جميع ايام حياتي ، حتى بين مخالب
الموت !!

تجارة رابحة سامية ، اتحاد لا ينغصم ، صداقة كاملة شاملة ،
هي وحدها تشبع قلوبنا شعباً لا تجوع بعدها الى شيء . . .

اهتزّ قلوب الحاضرين من جميع الطبقات وسرت روح
الخشوع في صفوفهم . وبدا المدعوون من الكهنة القديما كأن
حمية كهنتهم التي تنبعث فتدكي ، وجعل الشبان العالميون يتهايمسون :
آية محبة بشرية توازي هذه المحبة ؟

والامهات انفسهن وعدن الله ، باكيات فرحاً ، انهن لن
يسترجعن ابداً ما أعطين

آه من له بحضور هذه المناسبة تُمثّل على مسرح هذه النفوس في
كنيسة إيتي وقد غمرتها الشمس وبددت في جوها دخان البخور ،
وفي باريس الواسعة الاطراف ، في باريس مدينة النور المفاخرة ابداً
بانها دماغ الارض وقلبها ، في باريس مدينة المعارض الرائعة
والمدارس الراقية والمسارح العجيبة والقصور الشاهقة الفخمة ! في
باريس مدينة العلماء واقتنائين والخطباء . آتى لنا حماس اشدّ من
هذا الحماس ، وجمال يضاهي هذا الجمال وشعور يسمو على هذا الشعور
المنبعث من بين جدران مدرسة اكليويكية ، من جانب هؤلاء
الفتيان المكبتين بوجوههم على الارض يكتبون موتهم عن العالم
ليخلصوا العالم . . .

وقد أقفم هذا المشهد قلب هنري فرحاً ، فبات يردّد الكلام

الذي سمعه صباحاً امام ساحة الطيران : « هولاء هم فرسان الجو الحقيقيون المحققون في اثر المثل الاعلى ، الزاحفون الى فتح العالم فتحاً سليماً . وستصير العام القادم هذه الكتيبة من الشمامسة فيلقاً مؤلفاً من خمسين كاهناً يبشرون بكلمة الخلاص في ابرشياتهم او في ولايات فرنسة او البلدان البعيدة كالبرلندة او اميركة خمسون كاهناً ! »

« وتستطيع هذه الفرقة ان تجدد شعباً كاملاً . وحسبها لذلك ان يتقدس افرادها خمسون قديساً يُرسلون الى وطننا الخاطيء ، وخمسون قلباً ملتهباً بحب الله والانفس كقلب منصور دي پول وقلب خوري ارس ! تلك خميرة تخمر العجين كله ! ملحٌ يصلح ما فسد ويظهر ما تدنس !

« آه لو كنت اعزل حياتي السافلة الباطلة القتالة !

آه لو اني واحدٌ من الحسين !

آه لو فضلت الدعوة الاكليريكية على كل ما صبوت اليه حتى الساعة ، اذن لكنت اخترت حالة شرفت حياتي وجملتها وجعلتني شريكاً للكنيسة في جهادها الخلاصي وشريكاً ليسوع المسيح في اعماله الابدية !!

في ذلك كان يفكر هنري ، وهو ساجدٌ ورأسه بين يديه وكتفاه تهترآن وعيناه تذرفان الدموع السخينة . نسي اين هو ، وذهل عن حوله ، مصفياً في اعماق قلبه الى اناشيد صباه التقية اجل ، لقد سمع هو هذه الدعوة : « اتبعني » وأعد نفسه للرحيل ايام كان في شرح الشباب ، في سنته السابعة عشرة . وكان يخيل

اليه ان نفسه الاولى ، تلك النفس الجذلى النقية ، لا تزال تختلج بين جنبيه ، فتجدد كيانه بلامستها اياه ! أصبح هذا ؟ أيكن ان يكون في قلب جفقه الشك واذبله الشر زاوية خفية طاهرة بيضاء تحتفظ بالاماني الطيبة والحمة والغيرة ، التي كانت تفور في سرايين شبابه ؟

تغلغل هنري في هذه الافكار فقطعت عليه سلسلة الاحتفالات ، والاسقف ذاهب في عمله ، وقد وشح الشماسة الجدد مختلف الالبسة الكهنوتية ، ثم عاد الى المذبح يواصل تقديم الذبيحة ، وعند المناولة هبطت قبلة السلام عن المذبح فسارت في صفوف الكهنة من فهم الى فهم ! ولا تسلم عما احدثت هذه الحركة الاخوية الجميلة من التأثير العميق ، اذ كان كل شماس يكب على عنق الاقرب اليه فاتحاً كلتا ذراعيه ليضمه الى صدره فيتلاثمان

وما انتهوا حتى علوا درجة المذبح ليتناولوا جسد الرب ، وكان كل واحد ، لدى عودته من مائدة الخلاص ، يقف امام كأس مملوءة خمرًا وينحني ، جرياً على عادة قديمة ، ليبل شفثيه

وان هي الاذقائق حتى منح الاسقف البركة الاحتفالية ، فصعدت الموسيقى وصدور الحاضرين بتسبحة الشكر . وتأهب الموكب من جديد للخروج من الكنيسة باحتفال كما دخل . كل هذا وهنري جامد هائم في بيداافكاره واحلامه الماضية اللذيذة ثم تتم في قلبه وغصة اليأس تحنقه : « فات الاوان ! فإين من المنحدرات ما اذا هبطنا الى اسفله ، لم يبق لنا من قوة تسوقنا صعداً الى قمته ! لقد استرقتني لذاتي بدلاً من أن أسترقها وأسيطر

عليها . ولم يبقَ في وسعي ان أفلت من مخالها او اكفحها ! زاع
ذهني عن جادة الادبيات الصحيحة بمعاشرتي اقراناً توهمت انهم
يصدقوني الولاء ، وما كان اشدّ ضلالي ! فأسميت لا اشعر
بمحضور الله في قلبي ، وكان حجاباً كثيفاً قد أسدل بيني وبينه ، فبتنا
غريبين متنائين !

آه ! لو استطعت ، أسوءَ ببتاع المذات ، ان انساه ! فاحمر
اسمه من كتاب وجودي ! كم تمنت ان لا يكون اله ! ! في
قد سئمت الحياة ، لاني لن استطيع ان انساه ! لن استطيع . .
لاني عالم انه كان ! !

وأحرّ قلباه ! اني لتأس تائه ضالّ غريق اوهامي !
« انا عالم انه هو الطريق والحق والحياة ، بل شاعرٌ بهذه
الحقيقة ! ورغم ذلك لا اخفُ اليه ، لا املك من الشجاعة ما يدفعني
الى الذهاب اليه ، مما يضطرني الى ان اترك لذاتي تافهةً واقطع
وصلي بعوائد ألفتها . آه لو استطعت ان انسى هذا الاله الذي
يعكّرُ عليّ كأس الحياة ويمرّ حلاوة اللذات العابرة !

« آه ! لو خنقت هذه الجذوة التي تنهك قواي ، ولا تنفك تلتهم
قلبي ! متى تضع الحرب في داخلي اوزارها ؟ متى استريح منها ؟ متى
اتخلص من هذه البلوى ، هذا الاسف ، هذا الضجر ، هذا
العذاب ؟ ؟ . . . »

ثم وقف ، واذا بالكنيسة فارغة ؟ تركها القوم وتوجهوا الى
الباب يخرجون ، فاتبعهم ، فعرفه ثلاثة شبّان ، فقدّموا اليه
وصافحوه قائلين : « عِم صباحاً يا هنري ، جئت معنا تهنئُ لوسيان

ريشيار . « وكان هؤلاء من زملائه في مدرسة اوزانام ، وهم لاموت وسارته وماليسه ، وقد عُرفوا فيها بالطلبة الصالحين المنصتين على الدرس ، وقد أتى هنري مرافقتهم في بحبسه الى باريس . ثم مشوا فتبعهم وهو يتذكر الماضي الذي قضاه معهم في مدرسة اوزانام ، فقطعوا المشى وبلغوا بستان المدرسة الاكليريكية فقال « سارته » : لا يأتي الشماس الجديد لمقابلتنا الا بعد ان يرى ذويه . فهيا بنا نزور بستان إيتي ، فقد طالما حدثنا عن جماله وترتيبه صديقنا لوسيان ، فخيّل اليّ اني قد عرفته قبل ان ازوره . وجال هنري مع رفقائه بين الرياحين وسلال الازهار ، حتى وصل بهم الى حوض المياه فوقفوا يحدّقون الى الاسماك الحمراء في حوض الحديقة

وقد حمله الفضول على ان يدفع رفقاءه الى اجتياز الدهليز المفضي الى الحديقة ، فتوجهوا نحو منته القديس يوحنا ، ومنه الى معبد لورات ، حيث كان يحتلّ لوسيان للصلاة ، فقال رفيقه لاموت : « هنا كان يسكن لوسيان مع اثني عشر من رفقائه الاكليريكين ، وقد أقيم عليهم ناظرًا ، وكان يتألف منهم حرس الشرف لسيدتنا مريم العذراء والقربان الاقدس ، وذلك دليل على ما لصديقنا من الميزة الرفيعة عند رؤسائه . »

ومأ استرعى خاطر «ماليسه» «ممرّ الاربعين» «quarantaine» فقال : « كل قدماء إيتي يحدّثوننا عن هذا الممرّ . فالواقف فيه يشرف على باريس اوكم وقفة فيه للسكينة يحملون الاحلام ويريمون الخطط لتمليك يسوع عليها كافة . . . » واذ ذاك تلقّظ لاموت بما

كان يفكر اصداؤه سرّاً قائلاً : « جميلة حياة الكاهن ! »
فسأله مالميسه ساخراً : اتأسف انت على انك لم تعتنقها ؟
فاجاب لاموت ضاحكاً : « لا يا حبيبي ، لكلّ طريقه . انا
اسعد العرسان ، واني اعدّ الايام التي تفصلني عن إكليلي . واعتقد باني
جديراً بان اجعل زوجتي اسعد النساء ، وان اربي اولادي تربية
حسنة . عمل شريف قد وقفت له حياتي بجملتها ، وقد سبقت
فاحببته . غير اني على يقين من ان حياة الكاهن اشرف من حياتي
واسمى ، فأعجب بها واحترمها . »

ثم عادوا الى المدرسة ، فاذا بهم تحت سقف المشى امام
الكليريكي اتى الى الحديقة ، هو لوسيان ريشيار ، الشدياق الجديد ،
باسماً متهاً كأن انوار الشمس تُكَلَّلُ رأسه ، فبسط كلّ منهم
ذراعيه وضّمته الى صدره ، وقد عقل التأثير ألسنتهم

٥

قالت ليلي : « اين هنري ؟ لم أره منذ اسبوعين ، انني اشعر
باضطراب في نفسي . ارسلت اليه استحضره في هذا الصباح ، وقد
كتبت اليه : اني لفي حاجة اليه ، وفي نيتي ان احدثه بشأن
ذي بال »

فاجابت الفرادة : وما عسى ان يكون هذا الشأن ؟ ألك ان
تبوحي لي به ؟ هو لا شك خصام حبّ ! . . . »

برحت الاختان متزلهما قاصدين الى حديقة « الباغاتال » ،
فجلستا على مقعد من حديد في احد ممشيها . وكانتا قد الفتا ، منذ
اوائل الربيع ، الخروج مرّة او مرتين في الاسبوع للتنعم برأى

الطبيعة ورسم مشاهدتها الخلابة . وكان پول داثوان قد دبر لها معلمة ارملة فتية تعيش من فنّها ، فتختار لها الامكنة وتفرض عليها رسمها ، ثم تصلح ما وقع في رسومها من الخلل

قالت الفرادة : « هنري ولد متقلب لا يقر له قرار : لا يقيم يومين متتاليين على حالة واحدة . فهو تارة حزين وأخرى فرح . اذكركم فرحه الجنوني ليلة سهرتنا في لوناپارك ؟ انني اراهنك على انه سيأتينا اليوم بوجه عابس ولا عبوس القريسي الصائم . » فأجابت ليلى : « هذا صحيح . وها هو ذا مقبل . فانا ذاهبة لملاقاته . »

فسارت مسرعةً ووجهها القصر ، وثوبها ينسحب وراءها على العشب الاخضر متلاثلاً بياضاً ، فراها هنري فخنف نخوها ثم قال :

— وصلي كتابك ؟ وبعد ، فماذا تريد مني ؟ واي حديث

لك اليّ

— كان عليك ان تستطعني اولاً عن صحتي ! فلست بمكثرت لها ، امّا انا فلا ابرح قلقاً لصحتك . انك مريض ، وفي مرضك ما يُبدّر ابطائك في الجواب منذ خمسة عشر يوماً

— كلاً لست مريضاً

— ولم تأخرت عن زيارتي

اما هو فلزم الصمت

— قل ، لماذا ؟ اريد الوقوف على السبب

— تريد ان تعرفني ؟ . . . لاني قد سئمت مرآك ومجانبك

دوماً اما معلمك في الموسيقى الذي أخشى ان يُعلمك اعجابه بك ، واما المجنون پول داثوان ، واما اليهودي الثقيل ابراهيم ميلس ،

الذي اراه يختلف الى بيتك في شارع فرنسوا الاول
- اذن جئت الى « باغاتال » لتكسيل لي صاعاً من غيرتك ؟

ليس المكان مما يوافق لذلك

- آه يا ليلي ! ما اشدّ هذه الامور تنغيصاً لعيشي ! لو تعلمين !

- ألكلامي هذا الوقع في قلبك ؟ انا لا اكترث لذلك

ببساطة ، وانت لا تزال ولدًا . قم يا عزيزي فاكشع ضباب الهم عن
بالك . هات ذراعك وقديني الى حديقة الورد . فقد وددت ان
امتع الطرف برأى ورد « باغاتال » في هذا الصباح الجميل ، وانا
برفتك ، يا مطربي المحبوب .

قاما فتواريا بين ظلال الاشجار ، وقد رأتها الفرادة يختفيان

وراء دوحة من الدُفلى

ثم قالت ليلي : « انظر فقد خلا لنا الجو ، واضحت « باغاتال »

لنا بجميع ورودها . « ومدت يدها البيضاء الى الزهور تزيه جمالها
على اختلاف انواعها والوانها . وكان بعضها منتصباً وقرها ذابل
في اعلى ساقها ، والآخر خاشعاً ساكناً بهيئات مختلفة

فتمت ليلي قائلة : ان هذه الزهور لاجل ما ترى أعيننا .

وأحسن منها روائحها العطرة التي تتغلغل في مسام جسمنا ، فتسكرنا
وتذكرني بمجذائق اصبهان ، معيدة الى مخيلتي اشعار « سعادي »
الوردية

اجاب هنري : امّا انا فتذكرني بزيارات القربان الاقدس ، يوم

عيد الجسد . فضحكت حتى استلقت وقالت :

- أجل ، لقد كنت في ايام الصبا تنثر على شعاع القربان ورق

الورود او تبخره، مما كان يجعل بك في ذلك الوقت . على انك كنت فيه ايضاً تُفكر في ابنة خالك وتتلظى بجها سراً . . .

— لا لم يكن لي مجتها عهد . ولما اخذت أحبتها ، كنت عدلت عن تبخير القربان الاقدس ، ويا ليتني اصررت على تبخيره . . . ولم اتوَلَّع بابنة خالي . فلو فعلت لكنت . . .

فضحكت ليلى وقالت : ما الحيلة وقلباننا لا يتفقان ؟ اذا سُررتُ انا حزنت انت وشكوت انك لا تجدني مرةً وحدي . واذا وفرت لك مواجعتي انجيت علي باللوم وبدوت كانك سئمتني . افتريد ان تفسد علي بهجة هذا الصباح ؟ او لا تدري ان اخلاقك مزعجة ! ؟

— واني لمن هذا اتفقت وانا لم . فان كنتُ سودوي الطبع ، فذاك لاني لست براض عن حاضري ، واماً مستقبلي فبالمخاوف اترقبه

— حسبك ياساً يا عزيزي ! واذا ما وجدت في حديقة ورد ، وجب عليك ان ترى الحيلة ورداً . ترى اي شيء ينقصنا هذا الصباح من اسباب السعادة ؟ ها نحن لا نزال في زهرة الشباب ، متعابين ، وكل ما حولنا جميل ، فنحن اذن في فردوس عدن ! قالت هذا وجرت به الى مقعد ، فجلست عليه بجانبه ، ومياه الري تترامى من رأس انبوب متطايرة في الجو يضرب الغمام فوقها قبة زاهية ، وقطيرات الماء تعلو وتتساقط على شعر ليلى وقبعتهما الصيفية ، فتترك عليها غبرة لأمعة

— قلت يا ليلى : نحن متعابان ! العمرك ، اعيدي علي هذا

القول . اراك مشغولة عني بغيري ، اراك مُزربةً بي . لذلك اراني
اشك في حبك واخلاصك لي . واني لفي حاجة الى حبك . فيا
ليتك لا تهدين الآ بي ، فتقومي لدي مقام كل شيء فقدته ولا
يبقى لي سوى حبك خالصاً لي وحدي

— آه ! عزيزي وسلواي !

— من اجلك فقدت عطف ابني عليّ ، وقد عارض ميلي الى
التزوج بك ، واعتد خطبتي لك ذنباً لم يغفره لي بعد . ولولم
تُخفف امي من استيائه وغضبه ، لوقف مني موقف الغريب ؟ بل امي
نفسها — امي ! وهي لا تزال تعطف وتشفق عليّ — اشعر بان
ثقتها بي قد تضاءلت منذ قامت الحواجز بين قلبها وقلبي بداعي
عصيانى اوامر ابني واسراني في المال ، وهي تتخذ من برودتي دليلاً
على جفاف قلبي ونكراني جميلها

— ليس ابواك من ابناء العصر . سيأتي يوم فيه يفقهان
ويعذران ، يوم تُنشئ عيلة لها ثروتها وشهرتها ، لننسحب من
المدينة ونعيش ناعمي البال سعيدين
فقاطع هنري خطيبته قائلاً :

— ماذا تقولين ؟ لننسحب من المدينة ! .. اُرضين بهجر
باريس ، هجر الفن الذي تتعلمين ولنقضي على مسرح الحياة عيشة
ضجر لا يتبدل لها لون ؟

— واي شيء . يُضجرنا ؟ اراك لا تعرفني معرفة حقيقية ، بل
جاهل اجمل ما في ! انا لست عطشى البتة الى المديح والاجلال ،
ولا انا ، كما تظن ، هائمة دهري في الابطال . بل اشعر احياناً

بظما إلى شيء آخر ، إلى سعادة أخرى ، إلى السعادة البسيطة . . .
فانا عالمة أن الملذات التي ارتشفها حاضراً ليست بالسعادة التي أنشد ،
وما من أحد غيرك على الأرض يستطيع أن يسعدني ، وانما يُعبط
المرأة شعورها بانها محبوبة

كان صوتها هادئاً عذباً ، يسطو على شوارع هنري ، فيصفي إليها
وقلبه يرقص فرحاً ، فيتحاشى عن مقاطعتها خوف أن يحول مجرى
حديثها . ثم اخذت تتكلم كأنها تحدث نفسها ، قائلة :

« لو كان شأني شأن فتاة غيري ، لاعتقدت بانها تجازف باستقبالها
بتسليمك حياتها . فلقد أتيت من الاعمال في سني دراستك ما
اوجب الخطأ من كرامتك وسمعتك مبدراً قسماً كبيراً في
ميراثك ، نازعاً إلى الشائعات ، مقامراً ، معاقراً الحرة ، متادياً من
جهالتك ، مغامراً بنفسك في لجة الملاهي ، مثقلاً كاهلك بالديون

» أما انا فلا يسترعيني منك الا شيء واحد هو انك تعرف ان
تحب . . . احببتني وحدي منذ صباؤك حتى زمان لهوك وطيشك .
فانا اغفر لك كثيراً لانك احببتني كثيراً . . . »

فتناول هنري يدي الفتاة ، وضماها بين يديه قائلاً :

« واصلي حديثك . . . قولي ما عن لك ، يا ليلي ، يا نصيبي
لقد صح حلمك ! فلم اعرفك كما انت ! ولا انت كشفت لي عن
هذه الزاوية من نفسك ، زاوية الحنان اللطيفة ! ! »

فعطفت تقول : « اصحيح اني أدهشك ؟ دعني اقص عليك
حلمي : سنحتفل باكليتنا العام المقبل ، واكون انا ممثلة في أحد
المسارح فأحز وفراً من المال يكتننا من فتح بيتنا . أما انت فيسعدك

ابراهيم ميلس بان يُقيمك محرراً في جريدةٍ يُنشئها . وسيعتصم
كلانا بالرزانة ، فنوفر مالا نفقي به الديون التي استدنتها خفيةً عن
ايك . ولن تقضي علينا خمس او ست أو عشر سنوات ، حتى نعود
الى مزرعتنا ، فيتخطى لنا ابوك عن مزرعة «السينات» الجميلة : ثمة
نقوم باصلاحات لا تكلفنا سوى مبالغ طفيفة . ففي «السينات»
طرق واشجار ومياه جارية ومشاهد خلابة . ونبتاع سيارة تتجول
بها في المدن والمتنزهات ، واقتني كلبية اداعبها على ركبتني ،
ويكون لدينا كتبٌ ومجلات ، وانشدك الاغاني اما منفرداً واما
بصحبة بعض اصدقاء مختارهم . فما أجمل ما تكون تلك الزاوية
التي نحصر فيها سعادتنا !

فاجاب هنري :

= أيمكن ما تقولين ؟ وهل تحلمين فعلاً بما اقدمت انا على
ان احلم به على مرأى ومسمع منك ، وهو حلم سيجعلني اسعد
اهل الارض ، هناك بعيداً عن المدينة ، في بيت الشرف والسلام ،
قرب امرأةٍ محبوبة محبة ، سأقرب بها على ملكاتي السيئة ، فأصبح
انساناً جديداً ، هادماً حياة الكسل والبطالة ، بانياً على انقاضها حياة
جديدة شريفة يافعة . آه ! كم يلد لي ان أدب في تحقيق هذه
الامنية ! واني لاعكف بكل قوى قلبي على هذا العمل ، ولا أنجح ،
يا ليلي ، يا نصيبي ، يا ليلي !!!

= سنكتاتف في العمل . انت تعلم ان السعادة لا تقوم
بوفرة المال ، ألا ترى ان القليل منه يكفل لنا ان نعيش سعيدين
في «السينات» ؟ سنقل من زيارتنا وخدمنا ، ولن اطعم في

اللبس والزین ، بل سأنهج فيها نهج البساطة اقصاها
 وكانت كل كلمة تلفظها ليلى تريد هنري دهشاً ، كأنه لم
 يصدق كل ما أدعت . فراح يتصفح عينيها ووجهها لينتبت
 صدقها . وما كان بعده عن الظن ان وراء جبهتها البيضاء وعينيها
 الجميلتين البرأقتين من واقع الكذب والرتاء ما توهمه حباً خالصاً
 حاراً !! ...

ثم قالت : نعم ستكون ثيابي في غاية البساطة ، وقصاني من
 الصوف الابيض والطراز اليوناني ، مما يضاهاى جمالاً ، في نظري ،
 كل ما في «شارع السلام» بباريس من ازياء فتانة ، واراني سعيدة كلما
 تصورت نفسي لابسة مثل هذه الثياب ، متجولة في حديقتنا ، اقطف
 الازهار العاطرة وارجع الى البيت وفي يدي ضمة منها
 قالت هذا ، وأكبت برأسها على هنري ، فأسر إليها بفرحه ،
 والفرح العميق من طبعه صامت ، فصمتا

...

مسكين انت ، يا هنري ! أفي إمكانك ان تكون مرتاحا
 الى قلب ليلى ؟ ام في امكان ليلى نفسها ان تكون مرتاحة الى
 قلبها ، لعمرى ان من كان العوبة لعوامل النفس ، غير مقيد بنظام ،
 غير منقاد الا لهوائه ، غير قادر على ان يملك نفسه في حاضره ،
 يعجز لا محالة عن امتلاك نفسه في مستقبله
 أما ليلى فقد عبرت ، لا محالة ، عما كان ذاك الصباح يكتنه قلبها
 من الاماني ويرسمه ذهنها من الخطط . لكن لمانها الذي اشاد
 آنئذ ببساطة الحياة وشرف الحياة الزوجية ، سيصدق كذلك مساء

اذ يمضي في اطراء البذخ والتنعم والاعراب عن الطمع في المجد
الفارغ ، وامتداح الملمات الارضية . وقد نسي خطيبها الساذج ان
لاختلاف الاحوال والاماكن تأثيراً بعيداً في اخلاق النساء من
امثال ليلى ، فان مخيلتهن لا تقفأ تشير فيهن افكاراً وعواطف
جديدة لا تلبث ان تتقلص

فاذا ما ارتدت ليلى ثياب الرقص ، وبرزت على الاضواء ،
وتجتمع حولها المعجبون بفتها وجمالها ، فلا يبقى لها من رغبة الا في ما
يعود عليها بالشهرة ويُنبئها الفوز

كانت ليلى ، ذاك الصباح ، بين الورود في حديقة «باغاتال» ،
فمنّ لها ان تتخيل حياة ملوؤها الحب في بستان زاهر فتحقق لها ذلك
في الحلم ، ولكن اوراق ردها الذهبية تناثرت بعد ساعة من
الزمان كما تنثائر اوراق الورد الذابلة

وكان الفرداء لم تخطى الحقيقة تماماً لما ان لحقت باختها
وخطيبها بعد ان فرغت من الرسم تحت اشراف معلمتها ففازت
باستحسانها لما انتجته ريشتها ، فقالت :

«لقد انقضى وقتكما سريعاً ! وعلى اى موضوع دار حديثكما
خلال الدقائق الستين التي مضت منذ فراقنا . اخال ليلى تمكنت
يا هنري من اقناعك بان تشتري لها عقد اللؤلؤ ، فهي في حاجة قصوى
اليه . وقد اعدتها هجسه في قلبها راحة النوم ، واوشكت ان تموت
بحسرة الشوق اليه . افلا يأتى الخطيب ان يسبب خطيبته ايما قلق
وكآبة ؟ »

فاكفهر وجه ليلى ولاحت على محياها ابتسامة الحزن وقالت :

انا عقلُ من ان اتعب دماغ عزيزي هنري بمطالب شاذة .
فعلى من تريد ان تتزوج برجل فقير ان ترغب عن الزين والحلى
التي تقتضي مالا كثيرا . فلندع للاغنياء تدليل خطيباتهم
وانما كان ذلك الجواب منها عودة الى الانانية . اما هنري فاخذ
يتفرس فيها ، مقراً بمجملها مردداً في سره :

« آه ما أعق حبها ! ! قالت : لندع للاغنياء تدليل خطيباتهم !
آه لو استطعت ان أحقق لها عكس ذلك ، فأريها ان الفقراء ايضاً
يعرفون ان يبذروا المال في سبيل الحصول على ابتسامة من اللواتي
يحببنهم . عقدت من حجارة كريمة ! . . . كم يبلغ ثمنه ؟ . . . إني
لباحث عنه ومقدمه لها ، ما لم اكُ محاولاً إيجاد المستحيل . »

تركا حديقة الرود آسفين ، والفراة يتحدثان عن محاضرة كانت
مزمعة ان تحضرها مساء ، وليلى صامته صمتاً يهيم به هنري ، معتقداً
بانها لا تزال تفكر في مستقبلها السعيد ، وانما كانت ساعته تتنازع
جنانها مطامح تافهة ، فتحدثت نفسها قائلة : أجنونة انا ؟ لقد نسيت
هذه المحاضرة ! ترى اى ثوب ارتدي ، هذه الليلة ، وبأية قبعة أزين
رأسي ؟

٦

وبعد بضعة اسابيع ، اتى هنري يستأذن ابنتي خاله بالذهاب الى
مدينته لحضور زفاف «لاموت» صديقه ، قال :
سأقتيب عدة ايام . فان امي ترغب في ان ابقى قريباً منها .
اماً ابي فسيوئني . فارتيا لحالي وكلفاني تبليغ أباك ما خالي ما
تشاء ان

وكان مارجولي والدُ الفرادة ويلي قد شاخ ، فبات كسيحاً ،
فوضعتاه وحده في بيت شارتير ووكلتا امره الى الخدم

فقات الفرادة : قل لوالدي ان صحّتنا جيدة ، وان شكنا من
قلّة مراسلتنا فأعلمه ان لنا في باريس ما يشغلنا عن المراسلة

اما ليلي فقالت : اما انا فانتظر تركيب « الهاتف » في بيت
شارتير ، فأحدثه حينئذ كل يوم . ثم بشره بانني سأحيي ليلة طرب
في مدينة روان ، في منتصف حزيران المقبل

وعطفت الفرادة قائلة : سترتدي شقيقتي يومئذ ثوباً جميلاً
وتتقلّد العقد الذي تتوق اليه ، وتتوقعه على آخر من الجمر

فعض هنري شفتيه ، وقد خيل له انه احقرُ الشبان واتعس
الناس . فقد زار الصاغة وساوهم ، فرأى ابسط العقود يبلغ ثمنه
آلافاً ، ومحفظة دراهمه فارغة ، ولا احد يقرضه مالاً . فثبت له
ان ارضاء خطيبته ضربٌ من المحال

فسأل : ايُّ عقدٍ ؟

فاحمرّ وجه ليلي وارتبكت هنيئة ، ثم استعادت سكينتها
وقالت :

لقد فهم رغبتى ابراهيم ميلس ، فشاء ان يقدم لي
عقداً ! ...

فقاطعها هنري : اني لآبى على ابراهيم ميلس ان يقدم لك هذا
العقد ، ولا حق له في ذلك ! هذه هي ارادتي : انهاء هو عن
تقديمه وانهاك انت عن قبوله . أسمعك ؟ .. لا أريد ...

وكان صوته يرتجز غضباً بين اسنانه ، والاصفرار يغشي محياه

فانتفضت ليلي كالملكة المهانة صائحة :
 أأمة هي التي أتكلها ؟ ... ويحك ! لم تسيطر عليّ بعد ؟
 واني لمزدرية او امرك ؟
 اما هنري فكان يردّد القول : لاحق له . . . لاحق
 له . . .

فهرّت ليلي كنفها ، فاجابت والهزم ملّ فيها : نعم
 انت خطيبي ؟ ولك وحدك ، لا لابراهيم ميلس ، الحق في تقديم هذا
 العقد لي . غير انك تأبى ان تتمتع بهذا الحق . . .
 قال هنري : ليلي لا تضحكي مني ! لا تردديني اما
 اقساك !
 قالت :

أتريد ان ابوح لك بسرّ طالما كتمتك اياه ؟ انك لمستحقّ كل
 الهزم . لماذا غضبت ؟ انا عالمةٌ بعجزك عن ابتياع هذا العقد لي .
 اما ابراهيم ميلس فثّر كبير طمره المال ، فشاء ان يقدم لي هذا
 الحلّي ، كأنه يجود بزهرة ، او بجمل في سيارة ، او بكرسي في ملهى !
 فما ضرّك أن اقبل هديته ؟
 - يضرتني ويسوءني ان تتقبلي حلّياً من يد رجل ليس
 بخطيبك

فجردت ليلي وجعلت تقول : أريد عقدي الا غني لي عنه ،
 وقد قطعت عهداً لصديقتي باني سأعني في روان وانا لابسة هذا
 العقد اريدّه مها يكن غالياً عزيزاً !!!
 - تريدينه ا وانا مستعد لابتياعه لك . وسيكون لك لا

محالة . لكن انما يُقدمه لك خطيبك ، لا ابراهيم ميلس
فتعجبت وقالت : تقدمه انت ؟ ان بك الجنونا ! أنى لك
الدراهم ؟

- انما ذاك منوطٌ بي . فقدك ستحصلين عليه ، فامي
مستريحة . اودّعك . . . فهتت ليلي بامساكه ، لكنه تملّص منها
وانحدر في السلم لا يلوي على شيء . وما ان وصل الباب حتى
ركب عربةً أفلته الى محطة أورسي فوصلها قبل سفر القطار
السريع . . .

كان القطار يشقّ الهواء ويقطع المسافات ، وهنري يردّد هذه
الكلمات : عقدك ستحصلين عليه . وعدتُ وسأبرّ بالوعد ، ولكن
كيف الحصول على المال ؟

واستلقى على مقعد الحافلة وأسند رأسه الى مخرّج من جلده ،
تتهادى اشباح مختلفة في مخيلته . ولما وقف القطار ، كان قد عقد
النية على ان يستدين المال من اغني قداماء رفقائه في المدرسة . وفيما
هو كذلك ، اذا باحد موظفي المحطة ينادي باسم مدينة عرفها ، وقد
نشأ فيها وترعرع . وما لبث ان استقلّ سيارة الى بيته الوالدي
الواقع في أعلى حيّ من المدينة القديمة

وكانت المدينة غارقة في سبات عميق وقبب كنانها تناطح
الافلاك ، كأنها حرسٌ يصلي دفعا للغضب الالهي . فحوّل هنري
نظره عن تلك الابر الحجرية ، لانها بدت له كأنها تطعن اذنيه
بصوت جارح يقول : الى الاعالي ! وانما الصوت موجه الى ابن
عصا اياه ، بعد ان كان في ايام صباه يفتقه معنى الدعوة « الى الاعالي »

ويلين لسماعها

دخلت السيارة شارعاً واسعاً ، فوقفت امام منزل جميل ينم
عن النبل وكرم الاخلاق ممّا اكتست به جدرانها من بساطة
فساور الحزن هنري واخذ يقول في نفسه :

« ما من احد ينتظرنى ! ... وعلام يحرم والديّ نفسها لذّة
الرقاد لاستقبالي ، وقد امسيت ولداً شريفاً عاقاً ؟ ولئن ينهض
الخادم ليفتح لي الباب ، فحسبي سعادة ان يبقى لي مرقد في هذا
البيت ؟ »

ولم يكده يدخل غرفته ، حتى أقبلت امه تعانقه وتضّته الى
صدرها . اما هو فلم لم يرتح على صدرها ، مقابلاً حبها بالحب ؟
ترى اي شيء ستر شقيقه ، وعقد لسانه ، فلم يتكلم ؟ فقد كان
عليه ان يهتف هتاف الحب والندامة ، فاذا به يبتعد عن امه ، مبدياً
حركة ظنتها برودة وغضباً ، راشقاً اياها بنظرات حسبتها قاسية ، على
انه لم يك في واقع الحال خائفاً الا من نفسه ، ولم يردعه
سوى مرأى شيب امه وتجدد وجهها الجميل يتقطر منه الحزن
والكآبة !

لما ينست امه منه عمدت الى معالجته بالماديات ، محاولة كتمان
ما يساورها من عوامل الكآبة . فقدّمت له طاساً من الشوكولاتة
المعطّرة ، ثم اوغزت اليه بان يرقد شطراً من الزمن على فراشه
الناعم الوثير . وقد أمرت فأعدّ له ، الا انه لم يغمض له جفن ، وقد
ضغط على نفسه لئلا يشهق ، كولدٍ ينتحب ، على تلك الوسادات
الناطقة بما كان يذوق من راحة عليها في ايام صباه ... بل تغلب

عليه السهاد ، وغاص دماغه في بحر من الافكار ، تارة يتصور امه تبكي في غرفتها المحاذية لغرفته ، وأخرى يترآى له ابوه يستشيط غيظاً ، وقد اختط لنفسه خطة القساوة ، ثم بدت امام عينيه ليلي ، ليلي المداهنة ، المملقة ، التي جازت عليه خزعلاتها في حديقة الورود بباغاتال ، حيث اجادت بتشميل مهزلتها الغرامية

عقد ليلي ا ترى اي اصدقاء صباه يستطيع ويرضى ان يقرضه المال اللازم لاتباعه فيلجأ اليه ؟ وكان يردد في ذهنه اسماءهم : فلورزاك ، شارتيير نفسه ، مالميسه . . .

ولما كان الغد ، أيقن ان امله في اصدقائه باطل ، اجل انهم لا يزالون يُعربون له عن ولائهم ، لكنهم لم يبدوا من الفرح بملاقاته ما كان يتوقع ، وقد نضبت ثقتهم به ، فكانوا يجدونه بلطف ، غير انهم لم يفتحوا له قلوبهم كما كانوا يفعلون من قبل

وعلى ذلك فحسب الشاب التاعس ان يُقيم بعيداً عن باريس يوماً واحداً ، ليقفه ان المال خارجاً عنها عزيز صعب تحصيله . اما في باريس ، مدينة الاسراف والتبذير ، فلا قيمة له فيها ، وكان خمس عشرة ورقة من فئة الالف فرنك هي في نظر اهل العاصمة حزمة من ورق ابيض وازرق لا قيمة له

اماً هنا فالريح ضئيل ، ولا مندوحة لكل امرئ عن الاقتصاد والاعتدال في النفقات

وعلى هذا لم يبقَ لهزري من أمل في الحصول على ضائته اجل ان عيلة فلورزاك موسرة ، ولكن فلورزاك نفسه لا يحصل من ثروتها الا على مبالغ زهيدة يُنفقها في حاجاته العادية

اليومية . اما شارتيه فهو من المسرفين في المال لا يحسب له قيمة ، ولكن اباه من فئة الموظفين ليس لديه رأس مال ، وانما يعيش من مرتبه . اما ماليته فله اربعة اخوة وثلاث اخوات يتقاسمون ثروة اسرته . ومن ثم فلم يبق الا « لاموت » ، وهو الغني الاوحد من اصدقائه ، ولكن من اين لهزي أن يستعين به ويقنعه بان يقرضه خمسة عشر الف فرنك ، وقد صحت عزيمته على اقامة حفلة اكليله صباح ذلك اليوم ؟ !

فتنهدهزي وقال : ما العمل ؟ ما العمل ؟ أعدل عن مشترى العقد ؟ وما كاد هذا الفكر يجتاز ذهنه حتى تصور ليلي تسخر منه مادة يدها لتناول العقد من يد ابراهيم ميلس . فصاح : لا لا ! ذلك لن يكون ! انها لتحرزن العقد ! لكن هذا العقد لن يكون الا الذي اقدمه انا ، مهما كلفني الامر

ثم فكر في ابيه ، ابيه القاسي ، الذي لم يلن له ، بل لم يشأ ان يقبله ولا ان يكلمه ، وقد برح البيت ليتناول طعام الغداء خارجاً لئلا يجالس ابنه . . .

قالت له امه : خرج ابوك الى المدينة ، وسيأتى عن العود ، لان في نيته ان يمر بالصراف ليأتيني من عنده بحلي الماسية ، فاني بحاجة اليها ، هذا المساء وغداً

فقال هزي في نفسه : حلى من ماس . . . حلى لا تحملها أمي ابداً . . حليها الخاصة ا أوليست لي ؟
أما أختي فهي غنية جداً وعندها من الحلى ما هو أثمن واجمل !
وما عسى أمي ان تعمل بحليها ؟

كان هنري ، أبان حفلة العرس لصديقه لاموت ، يودّ هذه الافكار المسكرة في رأسه ولم يكن لينشغل عنها بالفتاة التي كانت ترافقه ، ولا يلتفت الى جوق بنات الشرف ، ولا الى العروس الجميلة الفتانة بثيابها البيضاء ، ولا الى « لاموت » صديقه الراكع على مسجده ، ولم تفتأ عينا مخيلته تنفرسان في حلى امه تريانها تلمع في اطراف اذنيها وعلى ثيابها

وكان يقول في نفسه : اني لفي حاجة اليها . ولم أكُ لائقاً بالاصول الادبية الضيقة البالية . فللابن ما للام . وممّ يتعب ضميري ؟ من شاء السعادة داس كل حاجز بينه وبينها . ومن احجم عن الصعوبة فاتة الظفر . اذن فلا تقف امام المصاعب وقفة المفكر ، بل تب ودسها غير ناظر الا الى الغاية !!

خرج المدعوون من الكنيسة ، فذهبوا الى ردهة الاستقبال وتفرقوا يتحدثون . فتقدّم هنري من امه ، وأعلمها بانه راجع الى باريس في قطار المساء . ولم يبق له من الوقت الا ما لا بدّ منه ليكتب بعض رسائل ويتناول الطعام ويجمع امتهته ...

— دبر عربة فاتبعك

— وان هي الا دقائق حتى رجع يدعوا امه . فتقدمت اليه واسرت اليه في اذنه تتوسل اليه قائلة : ابوك لا يرجع الى البيت قبل سفرك ، افلا تريد ان تودعه ؟

فابتسم الولد ابتسامة المستهتر وقال : اني ، وعلام أضيع وقتي في ازعاجه بالمداينة والتضع ، وقد امسيت في عيونه غريباً ؟
فاجابته امه متألّمة : هو ابوك ويحقّ له ان يغضب عليك

لكنه قاطعها الكلام ملحاً عليها في الاسراع الى البيت
لتوديع اهله قبل الانصراف . وكانت امه طوال الطريق توتجه ،
فلم يكن جوابه الا الصمت العميق

وما وطئ عتبة الباب حتى خف الى غرفته ، فاغلقها وغدير
ثيابه وشرع يكتب رسائله وينضد امتعته في صندوقه

ودخلت امه غرفتها المحاذية لغرفته ، ففرغت ثيابها وارتدت
ثياب البيت . ثم تزلت الى المطبخ تهيئ لابنها من حواضر البيت
طعاماً لطيفاً كان يحبّه كثيراً . وكان هو يسمعها توجه او امرها الى
الخادم . فانسل الى غرفتها ، حيث رأى ثوبها الممعللي منشوراً على
سريرها وقفاها الابيض فوق الموقدة . ثم نظر فاذا باب الخزانة
مُسدّد والجواهر والحلي تلمع داخلها فانقض عليها وانتشلها ،
ثم اغلق باب الحجرة وانقلب الى غرفته لا يحرك ساكناً . على انه
لم يلبث ان جلس الى مائدة الطعام تجاه امه ينقر الاطعمة نقرأ .
اما هي فكانت تتجنب جهدها كل كلمة او حركة تهيج اعصابه ،
وراحت تحدثه عن صحته ، قالت : لقد اقلقتني حالتك ، يا بني .
فاني لم أعاينك قط اشدّ هزالاً واصفراراً منك الآن . ما بالك لا
تأكل ؟ هلاً تمكث مدة عند أمك فتعني بك وتُهيئ لك من
الاطعمة ما يروقك ، وتبذل جهدها في سبيل ترفيهك !

فتمللم هنري قائلاً : « ان بقيت هنا أزعجت والدي ، وكانت
حياتي ثقيلة عليه . . . ولقد قضيت هنا ثلاثة ايام حسبتها دهرأ . »
ثم قال بلهجة خشنة : « الى السفر ا والآفات الوقت وطار
القطار . وأفلت من بين ذراعي امه دون ان يقبلها ، وقد خُيل

اليه انه لو فعل جاءت قبلته لها كقبلة يوداس ليسوع
وما توارى عنها حتى استلقت على كرسي منهوكة القوى يتنازعها
اليأس ، وقد اعرض ابنها الحبيب عنها وعن ابيه ، وجاءت زيارته
هذه لها كزياراته السابقة تُذيب آمالها لا تنعشها

ولما عاد زوجها الفاها تبكي . قفزيا السهرة كئيبين يتحدثان
عن ولدهما ، فيجهد هو عقله في محاجتها شجبا لولده ، معددا
كل ما صنع اليه وأنفق على تعليمه ، وتتناسى هي بأسرها محاولة
الدفاع عن ابنها العاق واسدال ستر العذر على طيشه وسيناته . . .
لم تظن عقيلة ميرامون حليها الا في اليوم التالي . فقد تفقدتها
فيه فلم تجدها . واذا كانت بالامس قلقة تعبة ، تعذر عليها تعيين
المكان الذي وضعتها فيه . فأخذت تسأل نفسها : أفي هذه الخزانة
وضعتها ام في غيرها . لكن النهار انقضى وهي منهمكة في
التفتيش والتذكر بدون ما جدوى حتى تبين لها ان هناك سرقة

وكان دخل البيت يوم السرقة شخصان ليس الا : مريم
الخادمة ، وهي حديثة العهد في المنزل لا يُعرف شي . من اخلاقها ،
وخولي مزرعة « السبينات » وقد ادخلته الخادمة غرفة في البيت
وتركتها فيها وحده ينتظر رجوع سيده . غير ان الخولي المذكور قد دلت
خدمته طوال خمس عشرة سنة على امانة وشرف . ومن ثم حامت
الشبهة حول الخادمة . فاخذ الزوجان يتذكران حرركاتها ذهابا
وايابا مساء السرقة . قالت عقيلة ميرامون :

- هل دخلت مريم غرفتنا من الساعة الخامسة الى السابعة ؟
- لم يكن ذلك في امكانها بعد السابعة ، لاننا قضينا

سهرتنا فيها . وكنت انتِ قد أعددتِ غرفة النوم والامسة
تفادياً من مداخلتها الثقيلة . ولكن ينبغي ان نعرف ماذا صنعت
بين الساعة الخامسة والسابعة ؟ ثمة السر كله
- كان هنري آنذر في الغرفة المحاذية ، جالساً الى مكتبه
يُدون رسائله

فلا بد من ان يكون شعر بها تدخل الحجرة ان كانت هي
السارق ؟ فإلنا اذن الآ استيضاحه الخبر هاتفياً

رضي الاب باستيضاح ولده ، على نفوره منه ، وقام الى الجهاز
الهاتفي فأخبر هنري بسرقة الحلوى والجواهر قائلاً : ان ظنونها تحومُ
حول مريم الخادمة ، وطلب منه ما لديه من الحبيج القاطعة على صحة
جرمها قبل اقدامها على الشكوى وتوقيف السارقة !

ورغم طول الشقة لم يلبث صوت الولد ان بلغ مسمعي الوالد ،
واذا بذلك الصوت المضطرب المتهدج يجاهر بما يلي :

يا والدي لا تتهمن احداً ولا تشكون البريئة ، ان ابنك هو
المجرم ، ان ابنك هو السارق . لقد كان في حاجة الى الدراهم بعد
ان امسكت عنه ما يحتاج اليه ، فعمد الى الجواهر والحلى فسرقتها ..
وقد طارت من يديه الى حيث لا تلبث ان يُعرف مقرها ! ..

فجعد الرجل جمود المصعوق . ثم انتفض ممتعاً ورمى بجهاز
الهاتف من يده وهو يصيح :

أبني هو السارق ؟ ... ولد ... ي ... هنري ميرامون
سا ... ر ... ق ... ؟ !

ثم تراجع خطوتين الى الوراء ودق كفاً بكف لوعة واسفاً ،

وهوى على الارض جثة هامدة ! !

٧

كم وقفة لهزري ، بعد الفاجعة ، تجاه ضيقه ، وقد رثت في
اعماقه هذه العبارة الوجيزة ، الاشدّ فعلاً في قلب المجرم من سيف
مرهف الحدّين : « لقد قتلت والذي ! » عبارة ما انفك يردّها في
نفسه المرتعشة الخائفة مذ تلقى النبأ المشؤوم ، فكان لها في قلبه
وقع اشدّ من وخز الابر ، وقد قذفته الايام الى جانب فراش ضحيته
يحضر مأتمه ويشيئعه الى قبره

افجع بمهزلة القضاء ! ان هزري وحده كان يشيع موكب
قتيله . أعلّ التآثر آمه فلازمت فراشها . اما اخته وصهره فلم
يتمكننا من اجتياز البحار فييصرا القليل ويبكيها قبل الدفن
هو ، هو ، وحده تلقى التعازي من اصدقاء عيلته الكثيرين ،
فكانت كل مصافحة ، وكل كلمة اسف ، وكل تعزية تفتت
قلبه فتعصره خجلاً وارتباعاً من نفسه . فودّ لو سمحت له الحال ،
ان يصبح بهم : الا كفوا ايها القوم عن تعزيتي ، فانا خدّاع غدار
اسمعكم حانياً رأسي حزناً وخجلاً ، في حين ان ابني قتييل ، وانا
قاتله ، انا ! ...

لم يكن له من قوة على احتمال هذا العذاب طويلاً . ففي كل
كلمة من كلمات امه ونظرة من نظراتها توبيخ له ، وقد ابى عليه
جنبه ان يعاني هذا الالم المرتكفيراً لازماً ، فيظل بجانب امه
المرزوءة ، ولم يبق لها غيره في العالم ، يمسح دموعها ويسد فراغ
قلبا . فلم تمض خمسة عشر يوماً على دفن ابيه حتى أخرجه حب

الذات من هذه الدائرة المؤلمة ، فقفلى عائداً الى باريس
لم يلتقَ هناك الاصدقاء الذين كان يرجو عطفهم عليه وتسليتهم
له ، فشارتير وعقيلته سافرا الى الپيرنه مصطحبين ليلي ، وبول داثوان
مستشفين في كورتاره ، وغاستون مشغول عنه بالسباقات . . .

كانت العطلة اذ ذاك في بدنها ، واسعة شهر آب الالهابة تلفح
باريس فيهجورها معظم سكائها فتعسي بلقماً
« قتلْتُ والدي ! » عبارة لم يرح صداها يتجاوب في نفس

هنري ، فيهيج هائج ضميره ويرشق قلبه بنباله الوخازة
ألم ضاغط كان يحاول ان يتخلص من عبئه مهما كلفه الامر .
لقد طرق باب الراحة والسعادة بوسائل شتى من دوس عوائق وسحق
قلوب وملاشاة حياة ، مؤالياً على نفسه ان يطرد في سيره لا يجبس
رجله حابس

كبت اليه ليلي من بيارتس رسائل فتانة ، مما جاء فيها :
« متعاس انت يا هنري ، وانا سبب تعسك ا فقد أغنتك طلباً ،
لمن الله ذلك العقد ا فلو لم تسلب حلى أملك فتبيعها وتشترى لي
عقداً ، لما حدث ما حدث . ان لك علي حق التعويض ! واني
لمعوضة . فقيم انتظارنا للزواج سنة بعد اخرى ؟ على ان فقرك كان
حائلاً بيننا وبين رغبتنا ، فزال بوت ابيك ، فلا مانع ، اذا شئت
يمنعنا من الزواج في هذا الشتاء . »

كان يعمل نفسه بهذا الحلم ، فيتزوج بالمرأة التي يحب ، ويفتح
بيتاً ويسير قطار حياته الى بلاد السعادة ولا يبلغه هذه الناية ، الا
ان يطالب بآرثه من اموال ابيه وارزاقه ، فاستدعى غير متلکى .

ولا ميث علماء الشريعة ليحصروا الارث ويقسموه . وانه لعمل دقيق ! فان اقدم عليه خطأ من مقام أمه ، وخلف لها الف صعوبة ، وأزرها ان تقلل من نفقاتها وتعديل معاشها وتبيع بيتها في المدينة ، ذلك البيت الذي دخلته عروساً ، فعاشت فيه امرأة سعيدة ، فكان مسقط رؤوس اولادها ومكان نشأتهم ومسرحاً لمأساة زوجها - وفي ذلك ما فيه من التضحية !

كانت الام ترسل ولدها فتضرع اليه : ان رويديك يا بني ! فيغضب هنري ويتشبث بقاصده حتى بلغت به الصلابة الى الامساك عن مجاورة امه ، فكتب الى المسجلين الشرعيين ان امضوا في العمل !

لم يكن يخاف عليه ان هذه الخطبة القاسية تحزن تلك المخلوقة التي غمرته بحنانها ومحبتها ، وتفرق بينها تقريفاً ، ان لم يكن ابدياً ، فحائلاً دون لقائهما . غير انه كان مجتازاً ساعات حافلات بضروب الجنون ، بل ازمة خانقة من الانانية تذهب ببعض الناس الى استخدام كل ما يصادفون من آلات البناء يبنون بها صرح سعادتهم ، وإن على انقراض سعادة الغير

بيع المنزل الوالدي ، قال هنري عن امه العجوز وتركها تقاسي مضى الفقر والوحدة ، فاطلقت حوزيها وباعت خيلها ، واتزت في ارض « السنينات » تصحبها خادمة واحدة

حصر هنري فكره في صعوبات قضيته ، فأفرغ في درسها آخر ما عنده من جهد ونشاط ، مختلفاً الى المكاتب ، متصفحاً المخطوطات ، منجسباً في غرفته بين اوراقه وكتبه

كان فكره مطمئناً الى آمال مستقبله الباسم ، الى عشه الصغير
 العزيز يلحلم ببنيانه في اول الشتاء تسيطر عليه ليلي وتبسم له .
 فأنقضى على حلمه شهر آب وعقبه ايلول ، ويلي في نوم عميق !
 تلبّد الضباب على هام الجبال فأنتهى موسم السياحات فرجع
 سياحنا ذور الجرأة الى «بو» واطالوا هناك سكناهم تغمرهم اللذات
 على اختلاف انواعها ، يصحبهم پول داقوان . فكان غاستون
 مارجولي يهيج القلب بسط الكف ، ينفق بما كسب من لعب الصيف
 الماضي بلا حساب ، وكان الماثري الكبير ابراهيم ميلس قد لحق
 بالقوم منذ ستة اسابيع فبهزم بكثرة نفقاته

تلك احاديث لم يكن لهزي علم بها ، وقد ألف جفاء ليلي
 وقطع رسائلها عنه ، فلم يكن يعجب من صحتها الطويل ، بل
 كان يذوب رافة بها ، كلما خلا بكتابها اليه في شهر آب يراجع
 مقاطعه ، وقد قالت له فيها : انها لتجرحه اذا حضرت الاعياد
 وهو ملتفٌ بمجدده . لذلك فهي تتجنبها مؤثرة تزهة الجبال على
 مخالطة المقامرين ولاعي التيس والراقصين واحاديثهم ، وتبسط له
 انها اخذت تبغض الحلى والجواهر بعد مأساة حلى أمه ، ولم يبقَ
 بودها ان تلبس سوى خاتم الخطبة . كان هزي يتذكر هذه
 الكلمات اللطيفة وهو منكب على الدرس ، يناسب به ميله الى
 المقاهي ، وما يلقه من دواعي التشتت التي اعتادها
 لم يكن يخطر له في بال ان ليلي تتبدل بين ليلة وضحاها
 فتذهب عواطفها السطحية مع كل ربح ، وتتلأشى احلام سذاجتها
 وحكمتها الفائرة

أيَّ حكم يحكم على خطيئته ، لو كان له ان يراها وهو في مكتبه جالسة الى مائدة انيقة تنفكه وتضحك ، وقد لبست الوان الزينة وزها في جيدها سمط من اللؤلؤ الكريم ، وفي شعرها قطعة من الزهر ، ووقف الى يمينها رجل من اشرف ممثلي المستعمرة الانكليزية مفعماً النظر في لآئها معجباً بوجهها اللطيف البراق الضارب الى السواد . وهي تحيب على نظراته بصوتها الهادئ الرنان : أمستجمل انت هذه اللآلى ؟ تلك هدية من ابن عم لي . لقد فعل آخر ما يستطيع ان يفعل في سبيل اهدائها الي ، أليس ذلك لطفاً منه ؟

٨

لم يكن رجوع ليلى الى باريس الا في تشرين الثاني ، وكانت في القسم الاخير من عطلتها الطويلة تجتري في الجواب على رسائل هنري براق بريدية موجزة ، فاضطربت افكار الشاب ذاهبة به كل مذهب . وما هي ان رجعت ، حتى اسرع الى منزلها في شارع فرنسوا الاول ، فوجد نوافذه مفتوحة بعد اغلاقها ثلاثة اشهر ، فلم يتمكن من الخلو باهل المنزل ، بسبب كثرة الزوار الذين كانوا يلزمون الفرادة وليلى ، ويسألونها عما فعلته وشاهدته وتأثراته منه اكثر من سواه في عطلتها

كالتا تكثران الخروج في النهار شأن كل باريسية بانث عن باريس ثم عادت اليها ولم يبق لها ما تكتسي به من الملابس الجديدة . واذا كان المساء ولم يكن عندهما زوار خرجتا الى اندية الموسيقى والمسارح ، فلا ترجعان الا اذا مال الليل ، وقطيلان النوم صباحاً

فرفر هنري زفرةً وقد قال : « ما ذلك الجفاء الا تعمداً منها .
اني اراها تجانب الاجتماع بي وسأستوضحها الامر مكرهاً اياها على
الاصفاء الي . » ولم يلبث ان دخل على الفرادة فجأةً قبل العشاء .
وكانت ليلى في البهو جالسةً الى المعزف توقع عليه أغنية منذ
ساعتين . فغضب اليها هنري مجتازاً غرفة زينتها المحاذية للبهو وصاح :
واخيراً ها نحن منفردان !

وكانت ليلى تنقل اصابعها على السنة المعزف ، فلما رأت هنري
يدنو منها على ذلك الشكل التفتت اليه مقطبة وهي تقول :
— ما شأنك ؟ لا مجال لي الى الحديث . . . انني ادرس . . .
كما ترى ! . . .

اجاب هنري ببلهجة الأمر : ستدرسين فيما بعد . وجلس هذاء
المعزف ، وليلى تلاعب السنثه عابسة واجمة
اما هو فاخذ يعاتبها بصوت خافت مضطرب قائلاً : « وما معنى
ذلك الصمت الطويل وتلك الرسائل المقتضبة ، وهذا اللقاء البارد
بعد غياب طويل ؟ رسائل شهر آب اللطيفة علّتني بالاماني الطيبة !
اكنني رأيت بعد ذلك نياتك تنقلب وتعملين على العدول عن مقصد
كان ملائني فرحاً ولذة ؟ أيسكون انك ارجأت الى سنة اخرى
سعادة اجتماعنا التي انتظرها . وهل يروعك ربط حريتك في القريب
العاجل ؟ حسبي بهذه السنة تجرّبة ، على انني اخرج من غيري الى
فرح ينسيني تلك المأساة الرائعة ! أفني عزمك ان تؤجل بي بعد ذلك
الفرح ، وكنت قد بعثت أشعته امام عيني حيناً ؟ ليلى ، ان في سلوكك
هذا لقسوة وصلابة ، وما ذلك من صفات قلبك . . . »

فكرت ليلي قليلاً وقالت : قلبي ! آه ! لو كنت مصفية الى
قلبي ! ...

واعتمدت بمرقها على السنة المعزف فأخرجت اصواتاً متنافرة ،
وجعلت ذقنها بين يديها وعيناها حائرتان ، ثم استطردت كأنها
تخاطب نفسها : « لم يبق في استطاعتنا ان نصغي الى القلب في عصرنا
هذا ، ذلك ضعف يذيقنا الامرين . فللعقل يجب ان نخضع . »
فتنهذ هنري وقال : للعقل ! والى اية حجة يستند عقلك فتؤخري
سعادتنا ؟ ان لنا من ثروة ابي ... ما يمكننا من عيشة شريفة ؟ !
فهزت ليلي كتفيها وابتمست ابتسامة تدل على الاشفاق
قائلة : « ثروة ابيك ! ... ثروة لنا في مقاطعتنا ... اما هنا ...
فلا قبل لها باكثر من ان تصد عنا ناب الموت جوعاً ! ... »
اما هو فسألها بصوت كئيب قائلاً : « ليلي ، اني وفرة المال
سعادة ؟ تذكرني ما كنت تهمسين في اذني يوم ترهتنا في « باغاتال »
فدت يدها الى دبوس طويل من عظم السمك فانترعته من
شعرها واعادته الى موضع آخر منه ، ثم تثنت بقدها اللدن ورفعت
ذراعيها ورمت بعطفها الى الورا وسوت جلستها وراجعت قوله
بصوت المستهزئ : « في باغاتال ؟ ما كنت في ذلك الحين الافتاة
حقاً ! ولا ريب في ان الربيع وزهره اسكراني . تلك احاديث
صبيانية ! لقد ذهب ما كنت اعتاده من الاكتساء بقمصان الصوف
وعصب الرأس بغصن من زهر ... أتدري كم كلفتنى قبعتي الاخيرة
يا هنري ، وهي من احط نوع لا يعلوها الا ثلاث ريش
غبراء ؟ ... »

فحزن وقال : لا اصدق انك لا تعرفين ان في استطاعة المرأة ان تكون على جانب من الجمال دون ان تجعل من نفسها عبدة ذليلة للازياء .

فاندفعت تقهقه وقالت : اجل ! انك تريد ان تقول لي ان القبة التي كنت البسها في الپيرنه كانت تبدو جميلة على رأسي ، ومثلها خوذة السائق والمنديل الذي تلبسه النساء الكبيرات في السن . تريد ان تقول : لا شيء يقرى على تشويه جمالي الرائع ! ولكني قد بت افهم لغتك هذه الغزلية وعبثاً تحاول ان تقنعني بها . كل الرجال يقولون قولك . اما اذا مروا بامرأة جميلة غير متأنقة ، فعليك ان تعرف ما يفكرون وماذا يتهامسون . ان المرأة الجميلة خير لها ان لا تكون ابداً من ان تكون على غير هندام ! اني لفاضحة مثل هذا الخطب من الرجال ! وما عدت اخذع بنظرياتهم ، وهم لا يقدررون ان ينسوها متى ارادوا الاحتفاظ بما في صناديقهم . فصمت هزلي ، وقد اعياه الجواب

وحركت ليلى اناملها على سلم الالخان وارتكزت على كرسيها تجاه ابن عمها قائلة بصوت هادي : «وددت لو بدلنا هذا الحديث الذي لا فائدة منه .» لكن هزلي بادرها بصوت قاس قال : «بلى ، ان في الحديث لفائدة لي ! ظننتني مستغنياً بما احرزت من ارث ابي ، وانت تجدينني فقيراً ، تريدان الانتظار ريثما اتمكن من عمل يغنيني ، اما انا فلم يبق في وسعي الانتظار يا ليلى ؟ »

ارتبكت ليلى قليلاً ، ثم تنهدت فقالت : «هل ادري ؟ اننا سنعود الى الحديث عن تحديد الاجل والارقام مرة اخرى . فها رأسي برتاح

الى ذلك في هذا المساء . »

فغضب هنري وقال : « لا اريد تحديد الاجل الا في هذا المساء ،
هذا المساء لا غداً »

فسألته الفتاة : « وان ابيت ؟ » ورفعت رأسها كبراً تستعد
للكفاح

فنظر اليها هنري نظرة المتصلب قائلاً : « أريد اليوم منك
تحديد الميعاد ، ولا مفر لك من ذلك . »

قالت : « لا أبالي بما تأمر . لقد كنت أريد ان أبقى على البقية
الباقية من املك في هذا المساء ، تدفعني الى ذلك شفقة انثوية خرقاء .
اما انت فقد ابيت الا ان اتكلم ، اذن فانا كاشفة لك الرغبة عن
الصريح . تسألني الميعاد ؟ . . . أبودك ان تعرف الميعاد ؟ لا ميعاد
لزوجنا يا هنري . وحبتي على ذلك انني عدلت عن الزواج
بك ! . . . »

فانتصب كلاهما يتراشقان بالنظرات . . . اما ليلى فاندفعت
تبوح بكل ما تضرع حذاً لذلك الموقف المؤلم . فاستطردت
قائلة : « وحياتي ما تزوجتك . . . ولعلك ملقي بمسح قل ما شئت ،
اني اتنصل من هذا اللقب . انا فتاة عصرية ليست بالجميلة ولا
بالقيحة ، . . . فتاة يهمني من شروط السعادة التجمل قبل الحب . . .
قلت لك وأعيد : ان فتاة القرن العشرين ، لا يسعها ان تصغي الى
قلبا . ولو شئت الاصفاء الى قلبي لتزوجتك ، كانت رسائلي اليك
في شهر آب صادقة ، وقد اقترحت عليك ان تتزوج في هذا الشتاء
تخفيفاً لاتعاب كنت تقاسيها ، وانا شاعرة بها . . . كيف اقول لك

ذلك ؟ ... صحبنا ابراهيم ميلس الى البيزنه . فافضت له في الحديث عنك ورجوت منه ان يشغلك في تحرير جريدته . وكان بودي ان اقضي عطفتي المفرحة فييجاد عمل لك ... فعاكست الريح سفينة آمالي ، وقد اتاني ابراهيم ميلس ليلة فافضى اليّ بحبه لي ، مصرحاً بان في نيته ان يتزوجني . قل ، ان شئت ، انني فتاة بدون قلب ، ولكن ما العمل ! ان ملايينه بهرتني ، وخيل اليّ ان ارتباطي به سيكون اسطورة من اساطير الجن ، ولم يكن لي من الشجاعة نسمة انفخ بها على شعاع هذا الحلم البراق فالاشيء . فاجبته « بنعم » . ومتى انقاد لي مثل هذا الحظ فمن الجنون ان أفلته .

— اجبته « بنعم » ، واجبتي « بنعم » ، ولكن جيوي ، جيوي الخاوية جعلتني رجلاً لا يُعبأ به ! ومتى ستزوجين هذا السيد ؟
— هو يقول في اول كانون الثاني وفي ذلك عجلة على ما اظن !
— اجل ، لم يبق لك فرصة للجهاز سوى شهرين . ان هذا ابراهيم ميلس الج من سائر الشبان ... وان له بالسيادة والامر حقاً ... فاذا تسمين هذا الحق ؟ ... حق الصناديق الحديدية الملاى ؟ ...

قالت ، وقد بسطت له كلتا يديها : صفحاً يا هنري ، صفحاً عما سببته لك من عذاب ! ... ان لك ملء الحق في ان تحكم عليّ حكماً قاسياً . على انني لم الب طلبه بعزم حاسم ، بل امعنت فيه تفكيراً . فجل هذا التفكير بصيرتي . انني ساكون مفقودة الساوى ، يوم اتذكر ان الملايين لامست يدي فنبذتها وعشت

عيشة الخفاء والحمول . لو وضعت موضعي من شئت من النساء ،
وفيها ميل الى البذخ والتجمل ، لفعلت فعلي ، وربما عجزت امرأة
سواي عن ان تقف منك موقف الصراحة الذي اقفه

— انا عارف انك صريحة ، بل ان صراحتك بالغة بك مبلغ
الغلظة والفظاظة . وقد ظننت ، ولا شك ، ان من منتهى اللباقة
بسط حقيقة نفسك امامي . ان نفسك ليست بجذيلة ، وما
من وجه للشبه بينها وبين وجهك . فشكراً لك لانك جلوتها
لبصيرتي ووداعاً

قال هذا وخرج لا يلوي ، متظاهراً برباطة الجأش ، غير
عابئ بدموع ليلى تتدفق كيداً

ركب القطار الكهربائي ووقف في نافذته يحدق الى الاشجار
المعراة من اوراقها ، والى مجرى السين المتورد تحت اشعة السماء
الخريفية الجميلة ، والاشياء يتوالى تالونها امام عينيه بين ذهبيّة
فقائنة فبنفسجيّة

دخل منزله في شارع بوسكه واقفل ابوابه ونوافذه ، وانزوى
فيه يبكي بكاء البائس اليائس

تجلد منذ هنيئة لليلى تجلد المتكبر الجبار . اما الآن فقد
أيقن ان مصارحتها له بما في قلبها قد نسفت صرح احلامه نسفاً

لقد تحي اسم ليلى من سفر حياته ! فهل حياته معنى بعد ؟
جاهد في سبيلها جهاداً صادقاً طويلاً اتى فيه ضروباً من الجنون
وارتكب شتى الجرائم مثلاً عنقه بالديون ، واذا لم تكن ليلى
العلّة الاولى لديونه ، فهي ولا ريب العلّة الثانية ، لانه فعل ما فعل

ليتمكن من ان يعيش في البيئة التي جرّته اليها ، فيحرز فيها لمعة
 وشهرة ، فانفق ثروته الضئيلة في سنوات وأمسى في تلك البيئة ،
 والكسل أليفه ، يتذوق اللب ، فيقشى المقاهي فأندية اللهو ،
 مسترسلاً الى اقبح اللذات وادناها . لاجل ليلى جفا والديه فهجرهما ،
 ويوم خطبته لليلي رفع عقبه عليها لانها انكراها عليه .
 وإرضاء لليلي واشباعاً لجشعها سرق وقتل ومن
 قتل ؟ والده حباً لليلي وليتسنى له الزواج بها ، طالب امه
 بحصته من ارث ابيه واعتها وطردها من منزلها المحبوب فافقرها
 وأوحشها . كم اجتزم وهدم وخرب في سبيل امرأة في سبيل
 امرأة لم تلبث ان نبذته نبذ النواة ، وقطعت وصله الى الابد ،
 لان الاصفر البراق بهر عينيها ! اما الشاب التاعس فقد
 جنّ جنونه فاندفع يحظر في غرفته الصغيرة راحاً غادياً على غير
 هدى ان امه لشديد ، اما كرهه للحياة فأشد ، حياة لم يدع زاوية
 من زواياها الا فتش فيها عن السعادة ، فلم يجد غير لذات زائفة ،
 ومرائر تعجز الواصف . ما اسعد ما يكون حظه لو فقد هذه
 الحياة ! ما اسعد ما يكون حظه لو قطع جبل وجوده قطعاً لجبل
 اوجاعه !

ضغط كابوس التجربة على نفسه : فعن له ان يهبط شارع
 «بوسكه» ، فيطير الى جسر «الألما» ، فيرمي نفسه في «السين» . . .
 ستار اسود يُسدك على مأساة حياة سوداء !
 تاب اليه شعوره فقال : ما من تعزية لي بقتل نفسي . لا يُقدم
 على الانتحار انسان يؤمن بالحياة الاخرى وانا مؤمن بها . . .

ان تربيتي الاولى مرتكزة على اساس متين يتحطم عليه طيشي ،
 ناحته مني مسيحياً مؤمناً بالله واليوم الآخر ، وقد حاولت ان انزع
 من دماغي عقيدة رافقتني ثمانى عشرة سنة فلم افلح . ان فكرة
 الموت تلازمني ملازمة ايماني بالله قاضياً عادلاً يناقشني الحساب ،
 وكلما وقفت على قبر فكّرت في القيامة ، وكلما دهنتي داهية من
 دواهي العمر قلت : لعني مائت في هذه الدقيقة ، واذا بعذاب
 يجلد قلبي بسوط من فولاذ ، ويقبض على روحي بقبضة من حديد
 سائك ، لانني غير آنس من نفسي الاستعداد للموت . آه ! لو كان
 الموت نعاساً ! فارقد رقاداً طويلاً ، رقاداً ابدياً ، فما اعذب ذينك
 الرقاد والنسيان ! . . . فما عسى ان يكون لحياتي من معنى ، وقد
 فاتني كل شي . حتى ذراع امي تضمني بها وتبكييني ! . . .

ثم عاودته تجربة الانتحار تناسب ارادته الضعيفة ، فجلس الى
 مكتبه فراراً منها وراح يفرغ درجه ، فكثرت امامه الاشياء
 التي ذكّرت به باضيه الجميل فكانت له درعاً مثيلاً تكسّرت عليه
 سهام المجرب

صور ابيه ، فأمه ، فاخته ، فشهد من مشاهد مدرسته القديمة ،
 فالسبينات ، فصور تقوية ، فاشعار نظمها تلميذاً ، فرسائل
 اصدقائه ، فعلمة صغيرة صفراء فيها شريطه الزرقاء التي احترم بها
 يوم تناولة الاول . فطاردت الذكرى بهزني الى يوم كان هو
 ولوسيان في الثانية عشرة من عمرهما ، لما شبعوا من قراءة سير القديسين ،
 عنّ لها ان يكتبها بدمها على هذه الشريطة النقية كلمة تعبر عن
 حلمها بالامانة الابدية ليسوع ، فكتبا :

الى الابد ا

عفت حروف تلك الكلمة وبقيت النقطة الحمراء ، وقد
رسم احد الولدين في امانته لوبه وامه واصدقائه . فايهما كان
اسعد ؟

فاخذ هنري يسائل نفسه : ترى ايسعد رفيقي لوسيان في
كهنوته ؟ ايمكن ان يكون قلبه في سلام لانه قائم بواجبه ، ولكن
آية ايام سوداء ، مضجرة تحمله ثقلها وراء جدران مدرسته
الاكلييريكية ا صلوات لا نهاية لها ، درس مضم ، صمت وتكشف ،
تواضع فتدقيق في حفظ النظام ! . . . ايمكننا ان نسمي هذه
الحياة حياة ؟

وما هو الا ان وضع يده على غلاف ثقيل ، فاستل منه صورة
صديقه ، وكانت تمثل لوسيان بشوبه الاسود يتدفق من تحته صحة
ونبلاً ينضحان على منظره حلاوة جذابة

جبين وسم ، شعر اشقر مفروق من قمة الرأس الى الجبهة ،
يكسب وجهه بهاء وعفافاً يزيدان في نضارة شبابه ، حدقتان
صافيتان مصورتان الى الامام سوياً ، وفي جفونه جعدة لطيفة
ترينها ابتسامة ، ومن فمه تبدو مظاهر المهابة والرصانة
ما هذه الصورة بصورة ولد انهكت عقله وثقلت قلبه حياة

الجهاد

بقي في الغلاف بعض اوراق كُتبت بخط دقيق قد
استودعها لوسيان صديقه ، بعد وسمه شاساً . يقول فيها : اذا
كانت هذه الحفلة واقعة من نفسك هذا الوقع ، فاي تأثر يتناوبك

لو كنت معانياً استعدادنا الطويل ، الذي يدرجنا شيئاً فشيئاً
الى قمة الكهنوت المقدس ؟

حياتنا الاكليريكية جميلة كل الجال ، واننا لعاشقوها ! ولك
من هذه الصفحات الوجيزة دليل على ذلك . لاجلك نستنتج على
مفكرتي هذه في اثناء رياضي ، ويلوح لي ان لك فيها نفعاً
طوى هزي هذه الصفحات منذ تناوها من صديقه ولم يقرأها
حتى الآن ، ظناً منه انها قليلة الجدوى مشحونة بعواطف دينية
جافة ، او بموجز تأملات تافهة

اما في هذا المساء فقد اخرجها من خلوتها ، وانبرى ليحيل النظر
في سطورها تفتيشاً عن برهان لذيذك الضجر والكآبة المخيمين في
عينيه على جو سان سوليس ، لعله باتباع افكار لوسيان يتملص الى
حين من ذكر ليلى ، وينسى ان صرح حياته مندرس جانح الى
التلاشي فالموت . وهذا ما كتبه لوسيان ليلة ومعه شماساً :

« شئت في هذا المساء ، بعد شرح الليتورجية ، ان اخرج الى
البستان ، ثم صعدت في السلم المفضية الى «الكارنتان» حيث شارفت
على باريس باجمعها ممتدة تحت نظري ، فابصرت اولاً برج ايقل ،
فدولاب المعرض الكبير ، فلانقايلد ، فالقصرين الكبير والصغير ،
ففي منتهى الافق قبة مون مارتر ، تارة بيضاء ناصعة . وطوراً
يغطيها الغمام الى نصفها

فأخذت أفكر في هذه المدينة الواسعة ، هذه البحيرة البشرية
التي تاجه متسانلاً : اي دافع يدفع اهله الى العمل ، والى اية غاية
يرمون ؟ فخيّل اليّ ان كل صرح من صروح المدينة يحيني برمزه .

معظم الناس يكتفون اما بالذات واما بالاعمال ، وغيرهم يكدون ويكدحون في سبيل المجد العسكري ، او في سبيل فن من الفنون الجميلة ، ولكن ما اقل الذين يهتمونك يا يسوع ! بالقسم الضئيل من حياتهم ما اكثر الذين فاتهم مرآك ، ففي وسط غمام قاتم يجيب عن ابصارهم جمالك المعبود من يبهر اعينهم بضياء العظمة تتدفق من وجهك ؟ من يردّد دعوتك على مسامعهم ؟ دعوتك للطيفة الطافحة حباً وحناناً : «الي ايها المتألّمون . . . » ؟ .

على ان ذلك الوسيط بين الارض والسماء ، بين الجماعات وبينك ، هو انا ، انا اكون ذلك الوسيط ، اجل ، انا ! . . . انا الذي نلت حظوة في عينيك فاخترتني ! . . . فرح يُعجز الوصف ، فرح يعاو افراح الارض يغمر روحي . . . وقد أحسست من نفسي بغبطة في تلك الوقفة ، حسبت اني لم اقف وقفة ألذّ منها جميع ايام حياتي

تركت الكارنتين مكرهاً ونزات الى «لورات» فحيت سيدة لورد ، فاستوقفتني مقبرة السوليسين ، فقرأت الكتابة المحفورة على جدران سورها ، متأملاً مدائحها تردّها الالسنّة جيلاً بعد جيل

كان من طبع هؤلاء الموقى الصدق والاخلاص ، واحترام العدل ، والشدة والالم في الجهاد ، اغني الشرف القديم بعظمته وبساطته ، تلك امثلة الفضائل التي يجب على الشماس ان يدخّر بذورها

تركت المقبرة الى الناووس ، فركعت على قبر شهيدنا پول سينيور ، وقد بذل دمه لك قبل ان يصير ثماساً ، وتذكرت ايضاً جيلست دي برتينيلير ، وهو احد متخرجي مدرسة إيسي ، وقد قرأنا

سيرته مستشهداً في كوره ، وهو القائل : « الموت عذب ! طلبت من هؤلاء الاخوة الابطال ان يسبقوا علي بمنحة من كرمهم تساعدني علي هبة نفسي بجملة لها الله . » ثم قفلت من هناك الى المعبد الذي نُزِّي فيه غداً الى الكهنوت ، وجثرت على البلاط مغمض العينين ، مكتوف اليدين ، وعكفت بنظرة على ماضي فمر في ذاكرتي بجميع دقائقه . فتذكرت نعم الله علي منذ خمس وعشرين سنة ، في حياتي العلية والمدرسية والاكليريكية . اجل كنت سعيداً مدلاً في المنزل الوالدي ، بجانب احسن الامهات واحكمهن واقدسهن ، سعيداً في المدرسة ، وقد قطعت فيها الاعوام بفرح النفس ، تنيرني تعاليم اساتذتي ، وتهديني مشوراتهم العالحة ، ناعماً بصداقة كثير من رفاقي . اما في الاكليريكية فان قلت اني لسعيد ، فالقول اعجز عن ان يفني بالمراد ! . . في بيتي العزيز ايسي تذوقت ما هو اطيب من السعادة . . . فيا عهد السلام والصلاة ، سألتك وسألت نفسي ، ما فعلت شدتك في ؟ لست بذاكر صعوبات ساعاتك واتعابها ، فكأنني لم اصطدم بصعوبة او تعب ، فلأنت دوحه اشواك جنت كفاي منها الورد وفرا . واذا عدت بالذكري الى تلك الدوحة لم اتمثل اشواكها ، لانها لم تكن تبدو لناظري بمنظرها الفتان ، الا مزهرة يانعة فواحة ، تبهج العين وتثلج الروح

يا عهد الاكليريكية الطويل القصير معاً ! هل استفدت منك فاستعدت للكهنوت ؟ غداً اخطو الخطوة الكبرى واني لحائف ، لانها خطوة هائلة وما انا الا ولد ضعيف

اعطيني يا رب كل شي . وما اعطيتك شيئاً ، آه ! لو كانت
لي ثروة ضخمة لافرغها على قدميك ااه لو كان لي اسم عظيم
من عظماء الارض فاضحي به لك ! او كان لي نبوغ فادخره
على مذبح خدمتك ! او مجد باذخ فاطأطئه على رجليك ! ليس لي
يا رب الا قلبي وحياتي ، وهما لك من عهد بعيد

هاك شبابي الحار الملتهب . أسامع انت هزيه واغانيه ؟
ذلك لان الطرب مرقص هذا الشباب عند تفكيره في انه لك ..
دعوتي فليتك ! ها انني ناس يو سي وذلي بين ذراعيك . فالى
الغد يا رب الى الغدا

اكمل هزي قراءة الاوراق فطواها ، وفي وجهه انكماش ،
وشفته ترددان همساً : « ها انني ناس يو سي وذلي بين ذراعيك .
فالى الغد يا رب الى الغدا »

على ان ايمانه كان اقوى على نفسه من جبانة الانتحار ، فلا
مناص له من الحياة . اذن فمن يحيا الا في ذلك الذي استطاع ان
يقول : « انا الحياة ... ! »

٩

امست باريس عبثاً ثقيلاً على منكبي هزي . فكان ينشئ
كلما خطا خطوة فيها ، ان يرى وجوها لم يبق له رغبة في
مراها . فتخيل اليه ان الرحيل يطوي ذكرياته في زوايا النسيان .
فارتحل الى الشواطىء اللازوردية ، يتمتع بشمس الجنوب ، ومنظر
الصخور المائتة على البحر ، تطلوq خليجان الشواطىء الهادئة ، ينشد
هناك السكون والراحة في جمال الطبيعة . بيد ان المدن الطرودة لم

يكن لها ان تستعيد لنفسه السلام ، بل زادته شوقاً فيهاجاً فاندفاعاً
 فطيراناً إثر اللذات يكرع جاماتها حتى الثالثة . صوت متواصل
 يتصاعد من هذه الارض المكتظة بسكانها هاتفاً بهم الى الفرح :
 ففتح هنري مسعياً لذلك النداء ولبأه ، لان قلبه المتعطش الى
 السلام لم يهتد الى السلام الذي يبتغي . فصمّم على ان يلتمسه
 بنحوض عباب الاجتماعات العالمية ومماشة الحركة الرياضية التي تجعل
 من فصلي الشتاء والربيع في مدينة نيس عيداً دائماً . وكان له من
 المال ما يملكه ، ومن الرفاق من يشجعه

نجاح غاستون مارجولي في الصيف الماضي الضقه بنادي مونت
 كارلو فلم يبرحه . ولما عرف بقدوم ابن عمته ، رافقه فعرّفه
 باصحابه فذوقه لذة « الرولات »

تعلل هنري وغاستون بين تلك الجماعات الطروبة الطياشة
 يرافقانها تنقلاً من نيس الى كان الى موناكو ، من ملهى الى ملهى
 ومن مرقص الى مرقص . ومن لذة الى لذة ، حالة يقتقر فيها الانسان
 وهو يضعك

غلبت اقامتهما في مونت كارلو ، تارة متجاذبين الاحاديث في
 البستان ، وطوراً تائهين في شعب سيكلامنس التي شربت دما .
 كثيرين من اللاعبين اليائسين ، وقد انتحروا تخلصاً من الفقر والعداء
 وحينئذ مدّخين لفائف التبغ فوق سطح يشرف على البحر ، يحدّقان الى
 الرائحين والغادين من الغرباء الوافدين من قارات العالم الخمس ، صاعدين
 نازلين في السلم الرخامية المتصلة بندوة اللعب ، هادئين مرة
 مضطربين أخرى . كم من ساعات مرة طويها امام المائدة

الخضراء ، تهبط عليها اكوام الذهب وتطير ، فتطير في اثرها
القلوب

لم يخطر في بال هنري ان يقضي اكثر من بضعة اسابيع في
الجنوب ، امأً وقد شاهد ما شاهد ، فوطن النية على ان يصرف
هناك الشتاء كله ، وهو لا يزال في اسبوع المرفع ، فانخرط في
شبيبة طيأشة تجعل من نيس ، في هذا القسم من السنة ، مدينة
جنون

ازف الحين فصتم على الرحيل ، فحبسه ربيع الشواطئ الساحر ،
فال عن السفر الى التمتع برأى الازاهير الفواحة تتفتق اكمامها في
الحقول واستنشاق عبيرها . غير ان سوء البخت ألبى على شهر نيسان
الا ان يكون ماطراً كثيلاً . وكان هنري مصاباً بركام لازمه منذ
المرفع ، ولم يداركه ولا عبأ به . فرجع من مومته كارلو على سيارة
مكشوفة في اواخر الليل ، والليل عاصف ، فقرصه البرد . وما جاء
الصباح حتى كان الداء يتغلغل في جسمه ، فاحتقنت رثاه . وكان
في غرفة من غرف المنزل وحده ، ولم يشأ ان يستدعي امه ، خشية
ان يُحزنها ويؤلمها ، ولوفعل لاستعذبت ذلك الالم في سبيل وحيدها .
فاقى براهبة ترضه : وجرت قافلة الايام بطيئة الخطى ، مثقلة الهام
بتعاس الموت الرهيب

عاد الطبيب عليه فادنى اذنه من صدره ، ثم رفعها وفي وجهه
انقباض . وكانت ممرضة الراهبة ، اذا فرغت من خدمته ، عمدت الى
الصلاة لاجله ، وهي قلقة البال على نفس هذا الشاب أن ربما استأثر
بها الله في مدينة اللذات ، التي لا يأتتها الناس الا نهياً لافراح الحياة

ولما كان مساء يوم احس هزري بعبيء والخطاطم فاخطلطت عليه مذاهبه . ثم للمم شعوره وسأل الراهبة ، وقد رقصت احشاؤه جزعاً : أصدقيني الجواب يا أختاه . . . امالت شمسي ؟ . . . فلكتها الخيرة وابت ان تبوح له بخطورة حاله . فقال :

من فيك اردت الحقيقة ، ولست بجازع منها ، فلا اخفيت علي شيئاً . . . اما انطقاً الرجا . ونفذ القضاء ؟ . . . ^{مصر} قالت : لا تياس من الشفاء ، فمالك لا تنبي بياس . ان كثيرين غيرك ابلوا من امراضهم وكانوا اقرب الى الموت منك

فبرقت عينا الشاب وقال : صلي يا اختاه صلي معي ، صلي من اعماق قلبك ! . . . أحب أن اشفي ! بل يجب ان اشفي ، لا اكفر عن الشر الذي صنعت ، واتقرب الى الذين اقصتهم عني غباوتي . يجب ان استمد من الله امهالاً ، ريثما اغسل ادران نفسي بدموع التوبة ودم الجهاد . اما الآن فقليلاً من الوقت يا رباه ، قليلاً ! . . . ابيت ان اموت وضيري مثقل بالفواحش ويدياي فارغتان . يروغني يا أختاه ان اقع بين يدي الواحد الجبار على هذه الحال ! . . .

أبل من مرضه ، وقد عجل شفاءه طيب هوا . نيس ، فالتفت من زجاج غرفته ، فاذا هو بشمس ايار تفتح الكمام الازهار ، واشقتها تنطق بفرح الطبيعة وتجددها

اما هذه المرة ، فلم تعد احلام هزري تحوم الا على بعث آدابه من قبرها ، وقد لامسه جناح الموت ، تاركاً في اعماق روحه فزعاً خفياً ، فتبدل كنه الدنيا في عينيه ، واخذ ينظر الى هذه الحياة

واباطيلها وشهواتها واوجاعها بعيني رجل ارتجفت اوصاله على اعتاب
الحياة الاخرى

خسر ليلي ، وقد اصبحت ليلي حليمة ابراهيم ميلس . تلك
الكارثة التي قتلته ياساً بالامس ، تبتئها اليوم على نور الابدية ،
فسكن مرجلها فيه ويرد . وقد مض ذلك النور في عينيّه وهو
على فراش التزع !

سواء أتزوج ليلي ام لم يتزوجها ، فذلك لا تأثير له في عظمة
حياته او عظمتها موزونة بيزان الديان الاكبر ! ولم يكن يحمله على
لعن حياته الخريئة إلا جنوحه عن السبيل السوي المفضي به الى
غايته ، وذهوره عن ضلاله ، واجحافه بابيه وامه ، وخور عزمه
تجاه العمل ، وايغاله في الشرور والجرائم . وكان عالماً جداً العلم انه
لو مات ، لما رأف الله باوجاعه التي قاساها ، بل لناقشه حساباً صارماً
على الدموع التي استنزفها من عيني أمه العجوز ، وللمرائر التي جرّعها
قلب ابيه . فإذا الذي كان اجدها حبه حاراً مجرداً ، وذهوره
عن نفسه ذهولاً كاملاً ، وقد اهل من واجباته لبائها : البرّ بالديه
والاحترام لها !

فخلا بالحديث الى نفسه وهو يرتجف خوفاً . لقد كان اسم ليلي
بالامس يعصر قلبه عصراً ، وقد عرف ان الفتاة كانت المحرك
الاكبر لدولاب مصائبه ، وانه ليدهشه وقوفه منها اليوم موقف
المتجرد المستخف ، فالتبرّئ المستريح ، يقيناً منه انها منفصمة عنه
انفصاماً ابدياً ، فاضحى لا شيء . يستطيع ان يقرّبه اليها او يقرّبها
اليه بعد الآن

ما اغمض العواطف البشرية ، وما اغرب تقلبها ! قد رسخ في ذهن الفتى ان نجم حياته آفلٌ يوم افلقت منه . وان هي الا بضعة اشهر حتى انعكس معتقده في عينيه ، فعلم ان في خسران ليلي بدء حياته . فالتهمت نفسه شوقاً الى العمل ، فانبهرى بعد عدة الرجوع العاجل الى باريس وشفاؤه لم يكتمل بعد . وقد كتب الى لوسيان الرسالة الآتية :

« انا راجع اليك . ان رسائلك عضدتني وقوتني وثبتتني في الخير هذه الايام حيث عرفت الالم المحمود . ستمّ عليك فتشفق على صديقك . ان ضعفي يتطلب عنايتك . واني راغب في العودة الى الطريق السوي وقد وطدت نفسي على ذلك . ولكن اين الطريق ؟ لقد ضلته ! هات مصباحك واهد خطاي ، ومهد امامي العقبات ! فأنني بين ذراعيك ارتقي ! . . . »

١٠

عجّل رجوعه الى باريس بعد ان صرف الصيف على شواطئ البحر ، فلاقته ضفاف السين بالضباب والامطار ، وكان مسكنه في بنارع بوسكه رطباً بارداً ، فعاوده السعال ، فلم يبال . وكان يختلف الى لوسيان بـدرسة اللاهوت ، في شارع المنظر ، ولوسيان ينصحه بالذهاب الى «السينات» ، تجديداً لقواه الطبيعية والادبية في هداة الحقول وسكنينة الضمير ، فيجيب : ابيت الا التكفير ، والعمل اصدق كفارة . فلن اعود الى امي الاحاملاً شهادة الملفنة ، غمماً لرضاها وعقوها . . .

— لقد غنمت ذلك الوضي يا هنري ، وقرأت أمك كتاب

ندامتك وعهودك ، ودموع الفرح تلتها قط من عينها ، والشوق
يلهب قلبها الى مرآك وتقيلك

— ان كانت رضية عني ، فما اعذب رضاها ! وان كان لا
بد من نيل قبلتها ، فلا يحلو لي نيلها الا باستحقاق

عاد الى هنري نشاطه الاول ومحبه الوثابة الى الخير ، التي
كانت تُدهش اساتذته وتحلب لباب زملائه من قبل . فكان
ينصب على الكتب يتصفحها مغرقاً في الدرس ، ولا يفارقها الا
زائراً احدى الكنائس ، فيركع امام تمثال مريم العذراء ، مستغفراً
هذه الام الرووم ، مستحلفاً اياها بكلمات بنوية ان ترد عليه ذوقه
للإلهيات ، وتتعهد بالانغاء تلك المحبة الضئيلة التي لها في قلبه . وفي
ذات مساء دخل غرفته ، فاحس من جسمه بالخطاط ناهك . امسك
القلم ليكتب فسقط من بين انامله . اخذ يوتنج نفسه على الكسل
ولكنه تحقق اخيراً ان ليس هناك كسل يُقعه ، بل جهد وإياء .
استلقى على فراشه ، فلم يستطع الى الهجوع سبيلاً ، اذ اصابه
خناق فسهال كان يقطع شرايين صدره ، وظل ساهراً الليل ضوله
من مهبط العتمة الى مطلع الفجر . على انه قال في نفسه : هذا
السعال وليد التزلة التي اصابني في ايار الفائت ، ولكنه سيزول لي
الايام الجميلة الآتية

اقبل الصيف بشمس محرقة ، وجو خانيق ، وهو جاف رقيق .
عواصف . فلم يتأثر هنري للشفاء ، بل بات هزياً منجرداً ،
واخذت قواه تنحط يوماً بعد يوم ، يُغييه اقصر شوط ، وتتأبه
حتى خفيفة كل مساء ، فخفت شهوته للاكل ، وامسى يشكو

وخزاً اليماً في جنبه . على انه لم يعترف بانغلابه المعلقة ، بل تصلب للالم ولم يقعد عن العمل ، ليظهر للملاّ قوته وصدقته وصدق رغباته الصالحة . وقد قلت مقابلاته للوسيان ، لانه وُسّم رئيس شماسة منذ عيد الميلاد ، ولازم الخلوة والصلاة استعداداً للكهنوت

الا ان الصديقين كانا ، غالب الاحيان ، يتراسلان ، وكانت رسائلهما من الرقة بحيث لا تدري ايها احقّ باعجابك ، انصائح وارشادات الفتى اللاوي ، ام ثقة الابن الشاطر وخضوعه ؟

كان كلا الصديقين يترقّب اول تموز ، يوم تعالو كتيبة من الكهنة القتيان مذبج الرب لأول مرة في كنيسة سان سولپيس . فما وضع جبين ذلك الصباح حتى سبقه هنري ، خيفة ان يتخلّف عن حضور الحفلة ، فقام الى ثيابه يلبسها ، فأحسن بوهنر جاهد اضطره الى تزعمها ، فزعمها وانطرح على فراشه وبكى قواه المفقودة ، وقد تسرّب الى قلبه شك المريض اليانس من شفائه . وقد كان مساء البارح احسن منه اليوم ، فتشجع لذلك ، وعُني بنفسه لامتلاك حال تمكّنه من حضور قداس صديقه الاول

اما لوسيان ، فدُعِيَ للاحتفال بقداسه الاول في كنيسة وراء المدرسة العسكرية ، قريبة من شارع بوسكه ، وهي من اجمل كنائس باريس ، حيث كان منذ اشهر ، يلقّن التعليم المسيحي . فهبّ هنري قبل ان يمين الوقت ، فتمشى الى الكنيسة ، وكان اليوم يوم احد ، والشمس ترسل من بين افنان الاشجار على جانبي الطريق شعاعات من نورها

كانت الطرق الواسعة المسماة بامماء حربية ، تحليداً لذكر قواد

فرنسة العظام، خالية في تلك الساعة من الجلبة ، تنبعث منها روائح البارود والمعارك ، والعصافير تتداعب على اغصانها ، يجثم عليها السلام . والسيدات بافخر ملابسهن يقطعن الطريق متأبطات كتب الصلاة ووجهتهن الكنيسة . وكانت جماعة من الاولاد ، وعلى وجوههم رزانه وفي لباسهم نظافة ، يتقدمون هنري ، ملتفين حول عامل لا يتجاوز عمره السابع عشر ربيعاً ، يقص عليهم ، لا ريب ، قصة مفيدة ، فيتراحمون على جانبيه ويتعلقون بيديه ، وقد نسوا اللعب وهرعوا الى سماع حديثهم . فجده هنري في اثرهم فأدركهم فسمع احدهم يقول :

« خورينا الجديد الفتى شابٌ انيق ، اتظنون انه يحتمل بقداسه الاول في كنيستنا ؟ » فاجابه آخر : « نعم اننا نحبه جميعنا لانه كان يحبنا جميعاً ، والى كنيستنا آثر ان يأتي . اتعرفون يا اصدقائي ان يوم القديس الاول هو اجل الايام واحبها الى قلب الكاهن ؟ »

فاطرق احد الصغار مفكراً ثم قال : يوم القديس الاول عند الكاهن كيوم التناول الاول عندنا . وما كاد يكتمل كلامه حتى تناوله جاره بضربة على ظهره وقال : ساء ما زعمت . اما انا فعندي ان ذلك اليوم لدى الكاهن كيوم الزواج لدى العالمي والتفت الى الاكبر فيهم وقال : ألم أصب يا لوديشيك ؟ فقال له لوديشيك : وانت ما رأيك ؟

قال : ارى ان كاهننا الاب ريشار كأنه يعقد اليوم زواجا ويتخذ الله سبحانه فيه عروساً

وصل القوم الى باب عُلقت على الجدار الى جانبيه اعلانات ،

فجمع لوديثيك الاولاد صفاً ضاماً اليهم المقبلين من الشوارع
المجاورة ، ثم ادخل الكتبية الصغيرة دار الاعانات

اما هنري فولج الكنيسة ، ولم يكن في صحنها الا مقاعد
فارغة محفوظة لجوق الاولاد ، وكان مدعو ولوسيان مصطفى
جاوساً في صدر الكنيسة عن يمين المذبح بين الخورس والموهف
وصل هنري فجلس في مؤخرتهم على كرسي اعرج مستند الى
الحائط ، فاستعان بطول قدمه على ان يشاهد المذبح يتلأأ زينة
حتى خيل اليه انه في يوم عرس ، وخدمة المذبح في حركة مستمرة
يضيئون الشموع ويهينون الآتية

ثم التفت الى المقاعد فاذا هو بامرأة اشتعل رأسها شيئاً . وقد
جثت خاشعة على مسجدها . تلك هي ام لوسيان . ثم تبين الى
جانبها وجوه الاهل والاصدقاء . فنهض من اقبل من اصقاع قاصية ،
ومنهم من توطنوا بباريس منذ عهد بعيد . فكانت كل المقاطعة
التي ولد فيها ريفياري محشدة هناك تهلل بشراً ، مباهمة بمنتهجها
الجديد ، تقدمه الله ، وهو عما قليل عائد الى ارض مولده ومنشئه
قياماً بواجبات الكهنوت

وبعد قليل دخل الكنيسة عشرة شبان ، وتقدموا لاختد
مجالسهم في الكنيسة ، فلم يبلغوها الا بشق النفس بسبب شدة
الزحام . هؤلاء الشبان زملاء لوسيان في مدرسة اوزانام . تلك
اجمل طغمة من الشبان الكاثوليكين ، فإنهم لقبلة فخار لمدرستهم ،
وفيهما اثنان تخرجا في مدرسة البوليتكنيك ، وواحد من مدرسة
الحربية ، وآخران من معهد الحقوق الخ . . .

دنوا فدوا ايديهم فرحين يصفحون رجلاً وخط الشيب رأسه ،
فابتسم لهم الرجل ابتسامة رصينة

فتمتم هنري : هو پول ثيولي ! پول ثيولي ، معلمنا في الصف
الثاني ، قد جاء هو ايضاً . فرّ على عينيه فجأة يومٌ من ايام ماضيه ، وهو
في الخامسة عشرة من عمره ، وبول ثيولي يشرح لهم مأساة « يوليوكت »
بغيرته الرسولية . فتتمثل تلك الفترة بمرّكاتها وسكناتها فتركت
في نفسه اثراً عميقاً ، وخيل اليه انه ، الساعة ، سامع صوت معلمه
هاثفاً : « انتم على عتبة الرجولية ، أفتنوّون ان تحوضوا ميدان
الحياة فتظهروا ما انتم عليه من المقدرة ؟ »

ففكّر هنري وهو ينظر الى طفمة الشبان المكشوف في الرؤوس ،
الساجين على الحضيض منحنيين امام بيت القربان الاقدس ، قال :
اي وربك ، لقد اظهروا ما هم عليه من مقدرة . فتخصص
بعضهم بخدمة الوطن ، وآخرون بالعلم وعضد البشرية المتألمة ، وقد
اقبلوا جميعاً في هذا الصباح ، يكرّمون اعظمهم مقاماً واشرفهم
طريقاً ، واحسنهم نصيباً بتخصيص نفسه بالله

اجل ان من الواجب ان يكون پول ثيولي سعيداً في هذا
الصباح ، لقد خاض غمار التعب ، ويقضي العدل ان يتسم الآن ذروة
الشرف ! كان موقفه في تلك الساعة الذّواق حياته ! وقف يجني
ثمار اتعابه من حقل ماضيه ! محدقاً بعين البهجة الى دوحة من مواليد
فكره ، وقد اُلقوا تعاليمه وجاروها ، فبلغوا من النجاح شأواً
لم يكن ليحلم به : فذخر بالفرح قلبه ، وشرقت بالدمع عيناه
ثم عاد هنري الى نفسه فقال : كنت انا ايضاً وليد فكره ،

ومن النشاط بمنزلة هؤلاء ، ولربما انشط منهم ، وكانت اماني
كبيرة غاية في الكبر فاي هدف بلغت ؟
خرج الكهنة من الموهف تَوّاً الى الخورس . وما كان
اكثرهم ! وكان هنري معرفة بمعظمهم ! اليس صاحب
هذه الدرع المنقوشة المجعدة ، والرأس المدور الاصلع ، بالاب كلفت ؟
وهذا الذي يتبعه متحفظاً يقظاً ، اما هو الاب كزافييه ؟ اما الذي
كان يتقدم الاب ريشيار فلا يفوت هنري معرفته ولو تغفل بين
المئات من الكهنة ، كيف لا ، وهو الاب روبرتي ، مدير مدرسة
اوزانام

ثم اطل لوسيان ، واصفرار الفرح يعلو جبينه ، فانحنى تجاه
المذبح ، فرتل ، قبل ان يعلو الدرج ، صلاة « هلم يا الله » فجوابه
جوق الاولاد من جميع زوايا الكنيسة دفعة واحدة ، وهم ربيو
تعليمه المسيحي ، والآن يستنزلون الروح القدس على معلمهم ،
مقنطين بانهم يفون ، بصلواتهم بعض ما اسداهم من الخير ، ذلك
الذي علمهم ان يصلوا

بُدى القداس ، فانتصب الكاهن الجديد واخذ يتلو ، بصوت
عالٍ يُرجفه نار القلب ، ذلك المزمور البديع الذي يجدد كل يوم في
قلب كل كاهن مائة الشباب وفرح النفس :
« ادخل الى مذبح الله ، اياه فرحي وابتهاجي واعترف
بالكفارة لك يا الله الهى . »

وكان هنري يتتبع من بعيد حر كات صديقه ، فيراه ينحني عند
فعل الاعتراف ، ويسم نفسه باشارة الصليب عند الغفران ، صاعداً

وثيلاً الى المذبح، منعنياً على الانجيل ، تالياً صلاة البداية ، متمتماً :
 « كيريا ليسون » فملحناً بالفروح : « المجد للآب ... »

وكان الاولاد في صحن الكنيسة يرقلون لحناً ، فصمتوا بعد
 تلاوة الانجيل ، وقد شهدوا الكاهن الجديد يدير وجهه اليهم
 وشاء ان يكلمهم للمرة الاولى عن ذروة المذبح ، فوقف
 بايدي الاضطراب . ووقف اولئك الصغار ايضاً يحدقون اليه ، وفي
 وجوههم اصفرار وفي قلوبهم خفقان ، متسائلين : ماذا عساه ان
 يقول لنا في مثل هذه الدقيقة ؟

وقف منهم موقف الاخ البكر من اخوته الصغار يحدثهم عن
 فرحه ويحاول ان يكشف لهم نفسه . فاخبرهم كيف دعاه الله
 ولداً صغيراً ، وما بذل من جهد ، رعايةً لهذا الشرف الباذخ الذي
 أفرغه عليه التقدير ، وكيف درس واستعد للكهنوت استعداداً
 الطويل ، وما ذاق من غبطة في المدرسة الاكليريكية التي يصورها
 البعض للاولاد الصغار شجاً اسود ، وما يترشف اليوم من اللذة
 والسعادة ، ولا سيما عندما يفكر في انه مدعو للاتحاد بالله اتحاداً
 أبدياً ، وواقفاً نفسه لخدمة المتألمين ، قال :

اولادي الصغار ، أو تدرون الكاهن من هو ؟ قال خوري أرس
 القديس : « لولا سر الكهنوت لما كان يسوع المسيح بيننا . . .
 اذهبوا الى مريم العذراء او الى ملاك ايّاً كان ، أفيعطيانكم جسد
 ربنا ودمه ؟ كلا ! ان مريم العذراء لا تستطيع ان تنزل ابنها في الحبرة !
 آه ! ما اعظم الكاهن ، انه لو عرف مقامه لمات ، لا خوف ابل حباً !
 « ليس لوطننا التاعس الكفاف من الكهنة ! ان خلاص فرنسة

يقتضي كهنة كثيرين، ومن من الفتيان يقف متأملاً هذه الفكرة :
وددت لو اختارني الله كاهناً له ! على انهم في سن تستغفر فيها
الحاجة الكريمة الى التضحية السمياء ، واية تضحية اسمى من وقف
النفس على العمل في كرم الرب ، وزرع الآداب الصحيحة فيه ، والرغبة
عن لذات الارض الزائلة والشرف والمال ، وانزال الله الى العالم ،
ورفع العالم الى الله ، والنهوض بالبشرية من حضيض المذلة والقبح
الى سماء النبالة والجمال ، فيصلح الفاسد ويُشقق المعوج ويُفصح
الظلم وتُسح دموع الخزانى !

« اولادي الاعزاء ، أليس فيكم من يدعوه المسيح ؟ أليس
فيكم من يرى سعادته في ان يذهب اليه فيتخذه صديقه الاوحد ،
قائلاً له وهو في الزمن الممتد من الثانية عشرة الى السابعة عشرة من
عمره : « لبيك يا رب ! فان شئت حياتي الوضيعة ، وكان لها ان تخدم
ملكوتك ، فخذها ، انها لك ! »

كان الاولاد مصغين اليه تردحهم الدموع في عيون البعض
منهم . اولئك هم اولاد العامة في باريس ، وكل أحاطت بهم
العاهات من طبيعية وادبية ؟ ! ولعل الشقاق والرزيلة ضاربان حولهم
وفي بيوتهم اطناباً ، ولعلمهم عائشون تحت جو ثقلت هواءه رطوبة
الفساد والزندقة . . . ففتح لهم الكاهن الجديد باباً يُشرف بهم
على الخالق الازلي ، فارتعش اطهرهم واحسنهم على عتبة هذا الباب ،
امام الافق الازرق الواسع . . . وما ادراك ان المسيح لم يطف
حولهم في تلك الساعة مستأثراً منهم بقلوب توقف له سرّاً ، مقتطفاً
رغباتهم الكريمة ، ووعودهم المضطربة ، كما تُقتطف زهور

الربيع ؟ ...

اما هزري فكان في سكنة من الخشوع ، ورأسه بين يديه
ونفسه تائهة في عالم الفكر يناجي ربه ، قال : رباه ! ألم يفت الاوان
على وقف نفسي لك ! ...

وكانت ام لوسيان قرب المذبح تفكر قائلة : لماذا لا يري
الكهنة على هذا الصدد ! يقال ان كثيرين من الوالدين ينقضون
دعوة اولادهم . فوها لو امكنتي ان أفهم الامهات جميعاً ما اتمتع
به اليوم من القبطة ! فاني منذ خصّصت ولدي لوسيان بالله ، لم التقي
منه الا ما يُفرّح قلبي . فان الشاب الكاهن ، اذا حرم نفسه الحب
الدخيل ، أخلص لأمه العجوز حنان الولد الصغير !

اذا ماتت الام اقبل ابناؤها وبناتها المترجون ينتحبون على
قبرها . لكنهم لا يقيمون ان يسالوها وتعيّب من مخيلاتهم رويداً
رويداً ، تلهيهم عنها مهام الحياة وتشغلهم محبتهم لعيلتهم الجديدة .
اما الولد الكاهن ، فيذكر على المذبح كل يوم امه المتوفاة ،
بل يغمرها بالذكر الجميل ويجعل لها من صلواته عضداً قوياً . ما
أعذب ان أفكر في ان ابني مرافقي الى دار الابد بذكره الامين
واعماله الصالحة !

قرع الجرس إذاناً « بالرفعة » ، فسكت المعبد سكوتاً رهيباً ،
وغاص كل واحد في بحران عميق من السر العظيم الموشك ان يتم
على المذبح . وقد طال الانتظار !

عقد الخوف لسان لوسيان ، فهو متلثم بكلمات تُهبط بين
يديه المسيح الحي ؟ ؟ قرع الجرس ثانية ، فتناول الكاهن الشاب

القربانة المقدسة باطراف انامله ، ورفعها رفعة الظافر فاعلاها على
العيون والجباه المخفوضة كأنه يقول للناس : احسدوني ! ان اجمل
نصيب هو نصيبي ، نصيبي هو الله ، واني لكاهنه ، كاهنه الى
الابد . . .

جاء التناول فتمشت الرعشة في بدن لوسيان وهو يتناول ربّه
أمّه فاقرباه فاصدقاه فاولاده ربيبي تعليمه المسيحي

ولما انتهت تسبحة الشكر ، خرج الموكب ، فظل هنري
ميرامون ساجداً يشكر ، وقد ذهل عن المبكّن الذي هو فيه ،
وعن حرّ كالت الناس يخرجون . فتقدّم اليه ملميسته تلميذ المدرسة
الحربية فهز كتفيه وقال : ألا نهضت ؟ فان ريشيار يريد ان يقابلنا
في غرفة التعليم المسيحي

قام هنري في أثر رفاقه . وقد التفّ حول الكاهن حشد من
الاولاد يلتمسون بركته فيبتسم للجميع ، انه ابّ بينا لا يزال
فتياً . . . ولعله مع ابتسامه لهؤلاء الصغار الباريسيين ، مبتسم
لالوف الاولاد ، واقف مستقبله على تثقيفهم ، وعجن نفوسهم
بخمير التقوى

وكانت امه بجانبه تتلقّى التهاني من اصدقائها واصدقاء ابنها ،
وكان الجميع ، وقد صافحوا الام ، يتقدمون الى الابن ملتسمين
بركته ، واحداً بعد واحد . فهم جاثون اليوم امام رفيقهم بالامس ،
وهو رافع يديه يستمطر عليهم نعم السماء ، ثم يباركهم فينصرفون .
وما زالوا حتى اتت نوبة پول ثيولي فدنا . ففتح لوسيان ذراعيه
وهم يضم استاذة القديم الى صدره إشعاراً له بعرفانه لجميله .

غير ان هذا ابي المعانقة قبل البركة ، فجثا حاني الرأس خاشع القلب
تحت يد تلميذه الشاب

ما انبل ذلك المشهد وابعد اثره في النفس ! وحسبك به دليلاً
على العرش الذي تسنمه هذا الفتى ابن الخامسة والعشرين تنحني
بين يديه الرجال كهولاً وشيوخاً

وانهم لكذلك ، واذا بولد يسابق الريح ، فهرع ومد يديه
وقال :

نوديت الى السفر ، يا ابي ، وانك لمسافر الساعة ، فليس لنا
من لقاء بعد ؟ فما هذا الفراق بجميل ! وان في تركك ايانا رجوعاً
الى وطنك ، لويلًا وشقاء لنا ! . . . فتدبروا شؤونكم يا مساكين
باريس ! . . . غير انك ستكون هناك معاوناً لكاهن الرعية ،
فكاهناً للرعية ، فرئيساً للكهنة ، فأستقفاً . . . ولا يُعيبني ان
اقول انك لست من الواقفين في الطريق ولكنك من الواصلين . . .
فابتسم له لوسيان وقال : شططت يا عزيزي الصغير ، اننا لم
ننقث نفوسنا لله تعليلاً لها بالمطامع والاباطيل ، فن بلغ الكهنوت
بلغ غاية الغايات !

اما هنري فترث حتى استفرد ام الكاهن الجديد فدنا منها .
وكان من التغير والهزال بحيث التبست عليها هيأته . فما ان تبينت
حتى دُهِشت وصاحت : انت هنري ! يا لله كم تبدلت هيأتك ! . . .
فانك لمريض يا بني !

- مرضت في نيس ، ولا ازال مجهداً بعض الاجهاد ، وقد
انهكني الحر والعمل

— أو تجهل أمك حالك هذه ؟ فالى امك ! الى امك ! فما من
 احد يقوم مقام الام في خدمة الابناء ! فتقضي في ظلها اياماً فقتعيد
 قواك . . . لقد رآك لوسيان ، فاذهب اليه ! فهو يد لك ذراعيه . . .
 والتفتت الى جماعة من الفتيان الدارسين وقالت : قد طال
 عهد الفراق بينكم وبين هنري . افاترون في هيأته تغيراً ؟
 قال ملميسه : لم نره منذ الحريف . ان هيأته تحيفنا . . .
 وكانابه على اهبة الوداع !

اجاب جرمان همساً : أبل من وعكته ولم يتمكن من الشفاء ،
 اذ نقصته العناية فاخذت صحته تذبل ا ووجد السل في صدره تربة
 صالحة ، فرتع واستحكم . واني لحاش عليه موتاً عاجلاً ! . . .
 فعودي به يا سيدي الى امه ، اذ كان عليه ان يجاور ظلها قبل اليوم !
 فارتعشت ام لوسيان واصفرت ثم قالت : ماذا تقول ؟ أعلى
 يقين انت من قولك ، يا جرمان ؟

قال : في اعتقادي ، يا سيدي ، ان القضاء نافذ فيه

١١

عاد هنري الى السبينات يرافقه لوسيان وعقيلة ريثيار ، وحالما
 التقى بامه اكب يقبل يديها واكبّت هي عليه تعانقه ، فمن صدر
 الولد تدفق شهقات الحسرة والندامة ، ومن عينيّه تفيض دموع
 الاستغفار ، ومن قلب الام تتصاعد زفرات الشوق والحنان ، ومن
 عينيها تتساقط دموع الصفح والغفران ا ويح الام تجد ولدها لتقرأ
 في جبينه انها عادته عمّاً قليل . ان الموت يزأر حول هذا الابن
 تَوَاقاً الى القبض على فريسته

لجأ هنري الى كنف البيت الوالدي ، تحوطه عناية الام في كل ساعة من ساعاته . اما النشاط الذي كان يسند قوته في باريس ، فقد تقوّضت دعائمه . فاذا به مريض مسكين مغلوب على قوته ، ان خطا بضع خطوات ناله العياء الشديد . ومن ثم اقام الساعات والايام في زاوية من زوايا البستان ممتداً على هزان طويل من القش ، والحزن عاقد على وجهه سحابة سوداء ، ونفسه تعذبها الهواجس والذكريات

كان يرغب احياناً الى امه ان تتركه وعزلته ، ففعل آسفة ، شاعرة بانه ، اذا التمس العزلة ، فلكي يبكي ، على غير سامع او شاهد ، مفقود تيه الغاليتين : القوة والصحة

بم تعزيه امه ؟ اما الطبيب فكان يعود كل يوم محاولاً تزع الداء المستعصي من صدره ولكنه كان يطلب محالاً . اما الام العجوز فلم يفتها ان جميع ادوية الاطباء عاجزة عن شفاء وحيدها . وحسبها على ظنّها دليلاً ان تنفّس فيه فتري في وجهه قرصاً من الشمع الشفاف ، وفي قدّه انجراد العود

كانت زيارات المحبين تفرّحه ، فكان جاره لاموت يعود ، غالب الاحيان ، لا عيادة الطبيب ، بل عيادة صديق يسرد عليه اخبار البلاد ، فيحادثه ويصف له الاشياء ويقلّد الناس ، فيتلقّى هنري حديثه باللذة والسرور ، ثم لا يلبث ان يله كلاً وعيائه . وما في قوة المساول التاعس ، ان يتحمّل من حركة الحياة ، ومخالب الموت تنسلها من بدنه خيطاً فخيطاً ! واذا تركه لاموت ، احس من نفسه عجزاً وتلاشياً

الا انه كان يؤثر زيارة عقيلة ريشيار على جميع زيارات
اصدقائه . فكانت تعود كل يوم يقيناً أنَّ في عيادتها نفعاً للابن
والام معاً . فجلس بجانب هنري ، فتبسط ادوات عملها وتباشر
الشغل تارة صامتة ، وطوراً محدثة اياه باللطف والسكينة عما ترى
فيه تفريجاً لكربه

اما لوسيان فسافر وزملاء له من الكهنة الجدد الى رومية ،
قبل ان يتلقى تعييناً يربطه برعية ، فزار قبر القديس بطرس وصلى
عليه قبل زيارة ايسي ، ثم ثنى الزيارة لذلك القبر قبيل ان يخوض
معركة الجهاد في سبيل النفوس

وكان هنري يلتبس من زائرته ان تحدثه عن لوسيان ، وفي
صوته انخفاض وبُهة ، آملاً ان لا يطيل غيابه ، ومما كان يقول : انا
في حاجة اليه ، فاكثبي اليه ان لا يتأخر في العودة !

كانت الايام والاسباع تتوالى ثقيلة بطيئة ، فينفرج العليل
آناً وتضغطه العلة حيناً . واذا أنس مرة من طيبه بسطة وجهه ،
تشجع وانتعش ، واخذ يحلم بالصحة ، فيتمخذ المقاصد ويضع
الخطط ، وامه مصغية اليه ، وعلى ثغرها ابتسامة تمازجها مرارة
الاسى والتلف

— ما تركتك ، بعد الآن يا اماء ، واننا لساكنان معاً مدى
الحياة . . . وساجد النفس كل الاجهاد في احراز عفوك ورضاك . .
ان من واجبي حبك واحاطتك باضعاف ما تحيط به الولد البر
امه ! . . . ان رحلتُ رحلتَ معي . . . او تدرين الى اين يعن
لي ان نرحل رحلة تطيب بها نفوسنا ؟ الى البرازيل ا فزى مادلين .

فانت لا تعرفين من احفادك الا البكر . وانا يحرقني الشوق الى
ان الالعاب زغايل شقيقي على ركبتي . . . فما رأيك يا أميمة ، ألك
رغبة في هذه الرحلة ؟ ومتى نتمكن منها ؟ فمن التسرع ان تكون
في هذا الشتاء ، لانني لا ازال واهياً مسترخياً . اذن ففي الربيع
المقبل ، في اواخر آذار ، ام في اوائل نيسان ؟ . . .
فلجّت الدموع بالأم ، فتجلّدت وامسكت وقالت في
نفسها :

واحرّ قلباه قبيل الربيع ، يكون قد رحل رحلة أبدية لا
يُرجى له من بعدها مآب !
على ان وفرة الغذاء ، وطيب الهواء ، وعناية الأم الخنون ،
زادت في وزن هنري بعض الزيادة ، على ما كان قبل مجيئه الى
السينات . غير انه لم يعد ان نفر عن الاكل كرهأ . فكان
يشتهي الف اكلة عزيزة فادرة ، فتى حضرته نبا عنها ولم يمسها .
فيقضي الليالي مجهداً محموراً يقطع منه السعال النوم والانساس ،
فيعدمه القوة والصوت

فاجأته امه يوماً منتصباً امام المرأة يتفحص وجهه الادكن
المزول ، وعيناه البرأقتان غارقتان في وقبها تحت شعره الطويل
الاسود . فقال لها :

او تحسبن ، يا أميمة ، اني اكون على فراش الموت اشد
اصفراراً مني الآن ؟ يُخيّل اليّ ان بين منكبي رأس جيفة !
فطفرت الدمعة من سويداء قلب الام الى عينيها ، فعضت شفّتها
تجدّأ وامسكاً . فراعها ، فتظاهر بالطمأنينة والتفقه وقال :

انك تُعنين بي كل العناية ، وانني لمريض متعقل كل التعقل ،
ومستعيد قوتي ولوني . فأيقني ، يا أميسة ، ان حالي على تحسن في
هذا المساء

يا للمهزلة المبكية ! هما يتكاثمان العذاب والاسى ، فيضجكان
ويتحدثان بشؤون المستقبل الغامض ، وشبح الموت منها على قاب
قوسين ، كان العليل يلج بامه ، إشفافاً عليها ، ان تخرج فتسرتي
عنها ، فتأبى ولا تخرج ، واذا رأى منها هزري ذلك الاباء .
قال لها :

اذن ان في ابائك الخروج من عندي ساعة واحدة تعودين خالي
التاعس مارجولي ، الذي لم يبق له سواك ، لدليلاً على انني مدنف
مودع

وكان السيد مارجولي كسيحاً منبوذاً في كنّة من جوار
السينات موكولاً الى عناية خادمة فظة رعاء ! فخرجت الام تعودده
ارضاء لولدها حتى اذا عادت سألها هزري :

الم تأت ليلى لتعرف زوجها الى ابيا ؟

اجابت : بالله عليك يا بُني اترك التفكير بليلي !
فابتسم ابتسامة كدراء . وقال : أيدور في خلدك يا اماء ، ان
ليلى لا تزال تشغل افكاري ؟ لا ثم لا . ان ذلك لا بعد عن مبلغ
ظنك ! اما عدت في المأساة ممثلاً ، بل انا شاهد يتبع بصره المشهد
بحكم العادة ، وعقله شارد بعيداً ، وقلبه لا ينبض فيه عرق
اسف على الاشخاص ، اذا ما انتهت الرواية وأسدل الستار
اما امه فكانت تنقل اليه حديث خاله مارجولي وامرته

لتكشبح به ضباب الحزن عن قلبه . قالت : كانت ليلي وزوجها في الصيد في سان اواز ، وهما عازمان على الرجوع الى باريس في اواخر تشرين الثاني فيسكننا منزل ابراهيم ميلس وقد اصلحه واثته اثاثاً فاخراً مُعداً للهو والطرب اما بيت ألفرادة فقد اجبت فيه الخصومة بينها وبين زوجها جعيمياً . فأمسيا وهما يتوقعان هجراً بل طلاقاً جاهرت به ألفرادة . اما غاستون فراح يتألف الى ابراهيم ميلس ، وقد مُنيَ بخسارة فادحة ، وابي سارتير ان يسعفه على التخلص من ديونه . فابرمت ليلي وزوجها اتفاقاً على ان يشغلاه في قرية من اعمال سويسرة في شركة الكهرباء ، فرضي مسروراً

اما هنري فكان يتمم ، وللأسى في صوته النجيل رنة جارحة :
ما ابعد اهدافهم ! عصابة الجهل ، تسرح وتضحك ، تلهو وتبكي كذلك انا انخرطت في سلوكها ! . . . فنحرت حياتي على مذبحها المتكاثب ! . . .

فكانت له امه ، وقد حاولت ان تجعل لصوتها رنة تأكيد :
ستستردُ حياتك يا بني

قال : لم يبق لي من قوة على ذلك ! ثم ارخى يده باصبعها الطويلة المنجردة ، فرق خاتمته الذهبي من اصبعه ، فتدحرج على رجليه ، فانقلب على التراب

فقال : هاك اصابعي يا أميتماه ، فقد بلغ منها الهزال مبلغاً بحيث لم يبق لها ان تمسك الخاتم !

كذلك كان يهزل يوماً بعد يوم ، فاذا صعد الى غرفته ، الى

عليه الضعف الا ان يتمسك بمشبك السلم ، متنفساً بين الدرجة والدرجة حتى يتمكن من الوصول . وكان السعال يتضاعف فيضيق عليه مجرى النفس ، والبحة تأخذه حيناً وترايله آخر ، حتى خنقت منه الصوت او كادت

وتنادى به الضعف ، فلم يُبق له قوة على خلع ثيابه مساءً وارتدائها صباحاً . وكان على ذلك الضعف يناسب العلة فينسلخ عن فراشه انسلاخاً رغم الوهن الذي يستمره عليه ، ويرجو ان يقهر الموت بتشبهه بالحياة . والام تصعد بصرها في وحيدها وتصب ، والام يعصر قلبها عصرًا ، فتبصر في فتي الخامسة والعشرين ، شبعاً قانع اللون يتلوّى في مشيه بضع خطوات تفصله عن كرسيه الطويل الممدود في البستان ، يثني محدوب الظهر ، مترجع الخطى ، وجسده الممزول يتخضض في ثوبه الواسع ، وذوائبه ممدودة الى طوق ثوبه يحاورها عنق واذنان لا اثر فيها للدم ، كانت صيغت من الشمع ، يؤلم منظرها العين ، ويجز القلب

واذا حاول ان يتكلم فيكلم عيني سامعه لا اذنيه وانها كذلك ، اذ التفت الى امه وقال بصوت خافت خفي :
ما أصفى هذا الجو ، يا أميمة ! اما أظف هذه الشمس تساقط لي من أشعتها خيراً وعافية ! وما أجل هذه الازهار المعبقة حوالينا شذاها ! متى تحسنت حالي ، ذهبنا في شوطنا حتى حجر الارانب . آه ! من لي بضمة من زهر النفل ! . . .

لما كانت عشية يوم من ايام ايلول تمشى الى مأواه ، وفي عزمه خور وفي خطوه ثقيل ، فلمح زهرة جميلة على حافة ممر من ممرات

البستان ، فمنَّ له ان يقطعها فانحنى عليها ، وقد أخذه دوار شديد
افقده التوازن ، فاستلقى فوق الرمل على طول قامته

فهرعت اليه أمه والخدمة وأنقضته ، فاعتمد على المنكب
الوالدي واندفع يشهق : حَتَامَ التَّكْتَمِ ، ومتى يُرْخَى الستار على
مهزلة الرجاء ، وقد خبا من الرجاء كلَّ بَارِقٍ ولم يبقَ مضرب
عَيْنِهِ الا ذلك الزائر الثقيل الظل ، شبحُ الموت الهائل يُوسِعُ خطوه
اليه . فما عليه الآن إلا ان يجابهه ثبت الجنان

اما الام فلم يبقَ فيها عرق الا ارتعش . فاخذت تلاطفه
بكلمات تنقطر من قلبها : هنري ، بُنَيَّ العزيز ، ما هذه الدموع ؟
أَجِبْنِي يَا بُنَيَّ . . . يا روح أمك أجِبْنِي ! . . .

اما هو فأغرق في شهيقه ثم قال :
أُمَيْمَتَاهُ . . . أُمَيْمَتَاهُ النَّاعِسَةُ ، قَلِيلًا فلا يكون لك « بُنَيَّ »
عزيز . . . « عزيزك راحل ! . . .

١٢

لازم هنري فراشه في الاسبوع الثاني من ايلول وهو يقول :
اخطأت في النهوض من فراشي . حاولت ان اتجأ للمرض الى آخر
نفس ، فانهدت قواي ، وكان مني ما كان . . . اني في هذا الفراش
كانني في فردوس . . . فما أجل الراحة واطيبها ! اما انا فما اهزلني
وأوهاني ! لم يبقَ لي من هذا الجسد النعاس الا هيكل
نخر اجوف . . .

فقات له امه : متى استرحت استراحةً كاملة عاودتك القوة ،

يا بُنَيَّ

قال : هذا الذي انا صانع ! فان لوسيان راجع يوم السبت .
 واود ان اقابله ناهضاً فساترك الفراش زمناً يوم الخميس ، وازيد عليه
 بضعة ساعات يوم الجمعة ، ومدى النهار يوم السبت
 ولم يعد يفكر ، مذ ذاك ، الا في ذلك السبت المسعود ، وفي
 الفرح ببقاء لوسيان ريشيار . بيد انه لم يستطع نهوضاً ، لا الخميس
 ولا الجمعة ولا السبت . فلما وصل صديقه ، حاول ان ينهض رغم
 عجزه وتوسلات امه ، فوقع مغمسياً عليه بضعة دقائق . فدعى
 الطبيب على الاثر . فنفض منه يده

وقد وصل لوسيان عند هبوط العتمة تحت دوافق الامطار
 وقوارس برد الخريف . وما دخل السينات في مثل هذا الحين وذلك
 الفصل الالهذه المرأة . فلم تكن السينات باعثة في قلبه الا
 ذكريات عطشها ومهيجتها ، ومناظر اعيادها وغبطتها
 ثم سار تتقدمه الخادمة الى مخدع العليل ، في مرّ رحب توجع
 قلبه صدى خطواتها ، وفي يدها شمعة يترجرج نورها ، قالت : اجل
 يا ابت ، هو في فواشه . وقد حاول جهده ان ينهض ليلاقيك ،
 فلم يستطع الى ذلك سيلاً ! وما هو بناهض الى الابد ! ...

فخطا الكاهن خطوة ، وقد انقبض قلبه ؛ فولج غرفة ذات
 شباكين تمتد فيها فراش العليل . وفي موقدها جمر تلمع منه
 ومضات حمراء . وروائح الاكسير منتشرة في قلبها يخالطها شذا الكينا
 وكانت مظلة القنديل موطأة تحجب النور عن بصر هنري
 وقاية له من الكلل ، فتجمعه على السرير ذي الكلفة البيضاء
 منحسرة عن طيف بشري تكاد العين تنكره . وهناك وسادة

ممدودة بين خليط من نور وظلام يتوسدها رأس يروع مرآة الناظر،
رأسٌ مدنفٌ تحتلج روحه على لهاته ، ووجهٌ اشدُّ بياضاً من
دثارات الكتان الملتفة عليه ، وجهٌ قاقع نتأ منه قوسُ الحاجبين ،
وامتدَّت عليه من شعر الرأس خصلٌ طويلة سوداء ، ونبت فيه
شاربان سمراوان ، ولحية احاطت بفكيه المنفخين وخديه المقورين
بهالة كثرة لم تفلها الموسى منذ خمسة عشر يوماً

فأرسل الليل من عينيه ومضة عرف بها لوسيان . فتخرج
وتعصر وتجاهد حتى قعدت في الفراش بالنصف الاعلى من جسده
المنزول ، ففتح ذراعى هيكلا من عظام ومدَّهما للقدام وقال :
« صديقي لوسيان ، هذه حالي ! »

وغلبته الدمعة فبكى وارخى يديه النحيلتين على اللحاف
تمشي فيهما برودة الموت . فبكى لوسيان ايضاً ، ولم يقوَ على
امتلاك شعوره تجاه الفناء . يعيش في جسم صديقه
حسب العلة ثلاثة اشهر فتجعل من فنى الخامسة والعشرين ،
من تلك الكتلة الترايبية التاسعة ، فريسة باردة للقبور

ثم قال هنري بصوت مخفق : اخطأتُ في أن بكيت
فابكيتك . والذي ابكاني انما هو مرآك وتفكيرى في اننى لن
اراك طويلاً . . . فاعذرني !

ولما خلا لها الجوَّ بمخرج الام عطف وقال : لست بمرتاح من
الموت . وقد لازمني ذكره اياماً واسابيع فآلفته واستأنست به .
اجل كنت أعبدُ الحياة واتوقع افراحها ! فيشقُّ عليَّ ان
أتركها . . . وعلى تكفيرٍ لآثام كثيرة يا لوسيان ! أفلا يكون

رضاي التضحية بهذه الحياة أجمل كفارة ؟ ... ولست ارضى
الروض للقاء ، فحسب ، بل اريد ان أخطأ الى ميتة مقدسة .
أفصعب عليّ ذلك ؟ ... على اني لهذا الغرض ترقت رجوعك .
فاليك واكل ساعتي الرهيبة ...

ولما كان بعد الغد ، استيقظ على تحسن في حاله . فزال الخوف
العاجل ، ورجا الطبيب توقيف الموت اسبوعاً او اسبوعين . افهل
انعشه الابتهاج بمرأى صديقه ؟

اما هو ، وقد امثل لحكم الله ، فامسى ولا هم له بجاله .
فلا تسترعيه تقلبات الحرارة ولا زيارة الطبيب ، بل قصر همه على
ان يكون لطيفاً ، عذباً ، محباً للقيف المحيط به ، مقراً بالجميل تجاه
اقل خدمة

وكلماً دخلت امه غرفته او خرجت منها لشأن من شؤونها ،
او ما اليها ان تدنو منه . فتدنو وتقوم وسائده قائلة : أفي حاجة
انت الى شيء ؟ وما يلزمك يا عزيزي ؟

— لا يعوزني شيء ، يا أميتماه ، لا يعوزني الا قبلة ...
فتنحني الام عليه ، فتنتقل القبلة من شفتيه في الفضاء ، قبل
ان يلامس خدّها فاه

— أيضغطك الألم يا حبيبي ؟

— كلاً ! لا يؤلمني شيء ... فانا في هذا السرير على أحسن
حال راحة وسكينة ! ... فان الجميع يحبونني ويدلّونني
محيطين بي ، فلو كان المريض ابن امبراطور ، لما بُذلت له هذه
العناية ، ولا عيّد هذه العيادة . فاصنعت الى الناس ليلاطفونني

كل هذه الملاحظة ؟

- حسبك تكلماً يا بُني . فالتكلم يجهدك
- تيقني ، يا أميمة انني لست بعيان ولا مجهود ، ولا
ينقصني شيء . مما اشتهي . واني على حال لا اكون على احسن منها
في الفردوس . . . ثم مدَّ لها ذراعيه وعطف وقال : وما ادراك
انني اكون حتى في الفردوس على ما انا عليه الآن ؟ ولا أم لي
هناك . . .

كان يُقدِّم له من الزهور اشكالٌ والوان . ومن الفواكه
والحلويات ما لذَّ طعمه وغلائمه . فيأمر بالعب الى جانبه فتفتحُ
له ، فيولج اصابعه المنجردة في اوراق التقادم الشفافة البراقة فيتناول
محتوياتها المَلَّاقة الجذَّابة ، سروراً بها سرور الولد الصغير
- ما برحت اقول لك يا أميمة ، انني أُخدم كما يُخدم
المالوك ؟

وكان ان واحداً من شركاء السيئات قضى نصف ليله على
شاطئ . النهر يصطاد شيئاً للفتى المريض ، وقد عاودته شهوة
الاكل ، فأقبل الى السيدة عقيلة مرامون يلتمس مواجهتها وحبل
الصيد في يده . فاحبَّ هنري ان يراه فيشكر له صنيعته ، فدخل
الصياد فمدَّ هنري يده له وقال :

أجل يا عزيزي لوتارد ، ما سررت بهديّةٍ قط سروري
بهديتك ، فاريد ان آكل شيئاً من هذه السمكة . ولم يفعل الا
ان ادناها من شفتيه ، وبقي لحمها اللذيذ في الصحن شأن غيرها
من اصناف الطيبات من قبل . ولكن يقظة هذا القروي بعثت

فيه الحنان

لما كان المساء ، دخل عليه لوسيان فقال له : لاطفتُ هذا القروي يا لوسيان مرة في حياتي خمس سنوات خلت ، وقد أرسلني اليه المرحوم والدي في امرٍ أبلغه اياه . وكان جنب النار يصطلي وفي رجله بثور . . . فأسيته وقدمت له علبه تبغي ، فهاكه اليوم يباداني الصنيعة آه ! لو وطأنا الجناح للصغار من قبل ، لاستأثرنا بقلوبهم ! . . . ولكننا كنا نحسب ان وقتنا لا يتسع لتلك المبة ، او اننا نستكف منها ، وقافلة الحياة لا تقف ! . . .

ثم مرت على وجهه سحابة سوداء ، وقد فُكّر في الالم يستحوذ على قلب امه من بعده . فقال لام لوسيان : ما ألم واورج ما تكون الايام المقبلة على قلب امي ! ويؤلمني ان تبقى وحدها ! فهلا كتبت يا سيدتي ، الى شقيقتي مادلين ان تعود الى السكنى قريبة منها ؟ . . . اما عقيلة ريشيار فلم يفتها حرج الموقف ، فسبقت سؤاله بالكتابة . فكان جواب مادلين ان السفر الطويل محظور عليها وهي على وشك ان تضع ولدها الخامس ، وزوجها ينعمها

فتنهد هنري وقال : ما اتعس امي ! وما اقسى وامر ما تكون شيخوختها ! لها بنت ، وكانها لم تلد بنتاً . . . انها تأبى المجيء اليها ، وسيكون لهذه الام من قبر زوجها وقبر وحيدها سمين في هذه البقعة . . . ترى اية وحشة ، اذ ذاك ، تغمر قلبها ؟ . . . ثم مدّ يده الى صديقه القديمة وقال : ليست امي مثلك ، يا سيدتي ، ان لوسيان سيكون بجانب سريرك ، يغمض عينيك ،

ولسوف تعيشين واباه عمراً يتدفق غبطةً وسلاماً ، وتقضين بجانبه
ساعاتٍ عذبةٍ تفاخرين به يتوقّل في معارج القوة والفضيلة ، عاملةً
به ومعه على الخير والبرّ كان صفوُ صباثك معكراً ، ولم
تذوقي من الفرح ، حتى الآن ، الا تزرأي سيراً . فكنت تفكرين
في ان تضحي لله بكل شيء حتى بابنك . فا اعظم ما كان يدخر
لك الله من المكافأة على تجربتك النليل ! ان ولدك لن يفارقك ،
فتحيين ، ما حييت ، بجانبه منغمسةً في نعيم من الحب قلماً جاور
قلب غيرك من الامهات وها ان براعم حياتك تتفتح لك عن
اجل طور من اطوارها

سيدتي ، ان في قلبك لركة وحناناً ، فرجائي منك ان لا تتركي
امي التابعة ووحشتها بل ان تحوطيها بعطفك وتعزياتك
كان سلطان السكينة والسلام باسطاً هيئته على سرير هذا
المائت ، وقلوب العوادم من حوله خفاقة اعجاباً بايمانه وثقته بالله ،
ورباطة جأشه تجاه الموت . فلم يئالك رفيقه فلورزاك ، وقد
ملكته سورة الاعجاب . ان قال اللوسيان : ان تسليم هنري هذا
التسليم لا وقع في نفسي من وعظ افصح الواعظين . فأعيدت هذه
الكلمة على مسمعي هنري فطرب لها وقال :

ما كان اتعسني لو رحلت عن هذه الدنيا ويدي صفرتان ! . . .
وما احنّ ما يكون قلبُ الله تعالى عليّ لو افسح لي ان اصنع خيراً
الى بعض النفوس في اواخر ايامي

فكانت لرغبته حرمة ، وتفتحت ابواب غرفته لكل عائدٍ
مفتقد . وكان العائدون يُستقبلون في البهو ضئلاً براحة المريض .

فكان يلقي على كل واحد كلمة تبعث في اعماق نفسه تلك
الشعلة الكريمة ، وقد خبت او كادت تحت رماد الجبانة والانانية .
فما كان الشبان يرجعون من عنده الا ذارفين الدموع ، وقد اهتدى
الى مداخل قلوبهم ، وبما كان يقوله لهم :

— انا مثلكم ، في الخامسة والعشرين ، ومثلكم كنت
اخطر تياها ببردتي قوتي وشبابي . الى ان لازمني المرض ثلاثة
اشهر فسلبني كل شي . وما أورتني هذه الحياة القصيرة الا نخس
الضمير ! . . . فحذار من تبذير كثر حياتكم مثلي ! وان تقولوا
هو الشباب من لوازمه اللهو والطرب . فقد قلت ذلك من قبلكم . .
وها انكم ترون مرأى العين ما خلف لي هذا الشباب من لوه
وطربه . لا تحسبوا انكم تشبعون قلوبكم بكرع اللذات ،
وغشيان المنكرات . فان كوؤسها تسكركم الى زمان يعقبه
الاشمزاز والحسرات . والسعداء السعداء انما هم السالكون الى
سعادتهم سبيلاً سويًا . انهم وحدهم يققون كنه المحبة وحرية
الضمير ، وفرح العمل . آه ! لو قدر لي ان اعود الى بدء
حياتي ! . . .

— امن المتعب المفرع مجابهة الموت بالشجاعة التي انت
مجاهده بها ؟

— ما أهون الموت ، ان كان الله بجانبنا . يُظنُّ ان في
المقدرة الاستغناء عن الله في الحياة . ولكن ، اذا طاف شبح الموت
فالى من نفرع وقد خانتنا الدنيا ؟

اما ذوو قربانافسيكونون اول من يخفُّ الى موارثنا التراب .

اذن فالى من المفزع ان لم يكن الى الله مفزعنا ؟ ...

- كان يحسن ان يردَّ الله عليك العافية ، ولو فعل لاستعضت من ماضيك بحياة جديدة مقدسة ، ونصبت مثلاً صالحاً . فلماذا لا يُطيل الله بقاءك ؟

- لانه كريم هوّاد عالم ضعفي . وهبني ناهضاً معافى ، فأنا من الارادة والحزم بحيث استمكن من القيام بعهودي ؟ على ان عاداتي السيئة غالبة قهارة . ولعلَّ شفائي راجع بي الى اهانة الله تعالى ، او الى خدمته خدمة فاترة . فأثر ان يقبضي الى رحمته ، فوراً توبتي اليه ، وتلك نعمة منه عظيمة ! ...

كان المدنف يكهر به حضور عائديه ، فلما خرجوا هوى على وسائله متضععاً . فتنهدت الام التاسعة وقالت : ان هذه الاحاديث لتقتلك يا بني

فقال لها : اي أمي ، اذا لم يكن لي مناص من الموت ، فلم يبقَ من معنى هذه الزيادة البخسة في الحياة . فلا حرمتني عذوبة الاعتقاد أنني فاعل بعض الخير قبل موتي ! ثم صارح لوسيان وقال : « ما أشهى ان تقرب النفوس الى الله ، ونهيج عواطفها ، ونبعث فيها صدى بعيداً . فما من مهمة أشهى وأعلى من تلك المهمة ، وانا لم اخلق الا لها ! ... »

لما كان مساء يوم من اواخر ايلول أقبل لوسيان الى هنري فبشره بانه دُعي الى الكاتدرائية فحين معاوناً لرئيس كهنتها فقال له هنري : ما أسعدك ، يا لوسيان ! في هذه الكاتدرائية ! فكم من اولاد ستثقف ، وعيال ستعين وتعتري وتهدي ... اني

لخاسدك على فعل الخير هذا . . .

فحنى الكاهن الشاب رأسه على وسادة المدنف وقال : أبودك ،
يا هنري ، ان تشاطرنى هذا الخير واتعابه ؟ انت الآن على ابواب
الابدية . فتى دخلتها ظافراً سالماً ، فاطلَّ عليَّ من فوق وامطرنى
من صلواتك مدداً . فاننا لا ازال فتياً تنقصني الخبرة والشجاعة .
أستطيع ان اذكى القلوب ؟ . . . آه الوشت ! فصلاتك تنوِّلي
هذه النعمة ، ذلك المدد من دونه كلُّ مسعى وكل قول حابط لا
محالة . . .

فالتب هنري وقال : سافعل ، وحياة لوسيان سافعل ! ان لم
اكن كاهناً على الارض ، فن السماء افتح عين رعايتي على كاهن .
اي لوسيان ، رجائي ان تفعل الخير باسمك وباسمي . . . فعاهدي !
على انك ما برحت خير صديق لي منذ امتزجت بك ، بل خير
اخ . فكل الشكر لك على انائك اياي هذه التغذية الاخيرة . . .
لما كان الاحد الاول من تشرين الاول ، دخل لوسيان على
هنري حاملاً اليه وردة مباركة ، كاشفاً له عن ابتهاجه باول يوم من
ايام جهاده . فابتسم هنري ، وتكلم ، فاقلَّ . ثم اخذ صوته
ينحفت ويتراجع ، فلم يكن المساء حتى استغرق في بحران عميق
بعث الهول في القلوب فغثيل الى الحضور انه راحل . وما هو الا
ان افاق فقال : كنت راحلاً . . . شاعراً بانني راحل . . .
فاوقفتموني . . .

ما كان اهل ذلك الليل . ان صدى السعال انقطع او كاد .
ولم يبق في العليل من قوة على الجلوس فيسعل ، او يتناول كأس

ماء ، فالحتمى تشويه شيئاً . وعيناه مغمضتان ورأسه جامد غارق في
حنية الوسادة . ولولا النفس يُشقى شفتيه ويفلقهما ، لأيقنت أمه
انها ساهرة على جثة باردة

طلع الفجر ، فدخلت الخادمة غرفة المنازع وفي يدها زهور
وشموع . . . فزينت الام المكشوفة مذبج العرفة الصغير تعاونها
الخادمة ، استعداداً لاستقبال الله ، وعينا المحسرج ترافقان حر كاتها
وسكناتها راحتيين غاديتين . فحانت من الخادمة نظرة اليه واذا
به يواجه اليها كلمتين متقطعتين ، قال : لك . . . الشكر ! . . .
فقد تبللت . . . لانها جنت الزهور تحت الامطار . ثم عطف :
لا تركت أمي . . . فقيرك لا تحدها . . . خدمتك . . .

وما هو الا ان صرّت دوايب عجلة في فناء الدار . فدخل
لوسيان في درع وبطرشيل ، حاملاً الى صديقه زاد رحلته
الابدية . . .

وفيا كان يتبع سياق الصلوات ، طنت في اذنيه كلمة :
« ارحمني » فرفع يده يتشم بسمه الصليب . فلما داني القربان
المقدس فمه قلعه الحتمى ، أشرق وجهه . فأطبق جفونه واستغرق
في الشكر . فاذا خطأ الآن تلك الخطوة الوهية كان رفيقه الآخذ
بيمينه الهاً قديراً . . .

ياسر الافغارستيا ! يا معجزة المعجزات ! يا خبز الحياح ! ياسلوى
الانسان الاخيرة ! . . .

دنا لوسيان من صديقه يشجعه ، وامه الشكلي واقفة عند اقدام
السرير تحرق فيه غير باكية ولا نادبة . . . ثم فتح المغرغر عينيه ،

فمتناول يدي الكاهن الشاب فاذناها من شفّيته باحترام عظيم
ونحت من الضعف قوة وقال : يدّيك . . . واختقّ صوته . . .
وظلّت نظراته ذاهبة في الحديث : يدّيك ، يدّيك ايها الكاهن !
فما اسماها واقدسها ! فهما تحوان الخطايا وتفجّران ينابيع الحياة
الالهية في النفوس ، بعون ربّ الحياة . هما تحمّلان الله للبشر
وتناولانهم اياه مع النور والسلام والفرح . يدّيك ! أريد ان اقبل
يدّيك ! . . .

وانعكست عينا المحسّرج على يديّه الطويلتين المنجودتين
كانها يدا هيكل من عظام . وفكر بضع ثوانٍ ، ثم قبض الالم
جبينه بقبضة حديدية فتكمش وتجنّد وهطلت دموعه على
وجنتيه المسلوبتين فرفع رأسه عن الوسادة ، معالجاً سكرات
الموت لأمّا آخر ذرّة من قواه ، وصرخ صرخة اسفر ولوعة :
امّاه ! امّاه ! ويديا التاعستان ايضاً . . . كان لهما ان تناولا
القربان ! . . .

طوى لوسيان ليله ساهراً بجانب السرير الممتدة عليه جثة
هنري . ولما انتصف الليل حمل الام الشكلي على الانسحاب الى
الغرفة المعاذية ، انتجاعاً لبعض الراحة . فتبعت امّ لوسيان الام
المحرّونة وقد ابت ان تدعها واوجاعها . اما الشريك ليونارد ،
والخادمة فرنسواز فقد ناما على مقعدين في الجانب الآخر من غرفة
الميت . ولم يبرح لوسيان واقفاً بجانب السرير ضاماً ذراعيه الى
صدره يتأمّل جثة هذا الشاب وذلك الوجه المحبوب ، كأن سكّون
الموت وجلاله معيّد اليه جماله القديم . فقال في نفسه :

هذه باكورة كهنوتي . واول نفس سُسِثْها ساعة الموت هي نفس صديقي . فكم من نفوس تحلُّ يدي وتناول وتبهي للسفرة الابدية ، مدى حياتي الكهنوتية ؟ . . . الشكر لك يا رب ، على انك قد جعلتني كاهناً االسواد الاعظم من الناس يتخذون حياتهم - حياتهم القصيرة ا - آلة لجمع تزر من الذهب ، او العلم الباطل ، او المجد الفارغ ا

اما هدفنا نحن ، هدفنا الجميل ، فنحت النفوس وصبها في قالب جودك وجمالك يا الله

اما انت يا هنري ، فتذكر العهد الذي ابرمناه منذ هنيهة ، استمد لي من الله تعالى نعمة تجعلني كاهناً قديساً ، خليفاً بهذه الرسالة النبيلة . شاطرنى العمل في كرم الرب ، فعلى صلواتك وامدادك توكلت ا وانحنى على الجثة فاستبدل صليبه بالصليب الذي كان بين يدي هنري الرخاميتين . فما اوقع ذلك الفكر في النفس ا صليب الاكليريكي الذي شهد بالامس عواطفه السامية ، وسمع صدى احلامه الكريمة وعهوده الخالدة ، يغيب اليوم في ظلمة التابوت ، لامعاً بين انامل تزيله الجامدة الى الابد . . .

وصليب هنري الذي تلقاه يوم مناولته الاولى ، ونبذه وسلاه طويلاً ، ثم غمره بدموعه وقبلاته ساعة النزع الاليمه ، يعانق اليوم صدر الكاهن الجديد ، شاهداً معاركه واعماله ، تقبله بين يديه شفاه المحترسين . . . ثم انتصب لوسيان على ركبته ، وعيناه محدقتان الى المصلوب الفضي ، قال :

أي صديقي الالهي ، صديقي الواصل ، اني لك انفيآ بي الى

المثل الاعلى أهدي بك الناس واغزيهم ! لقد ماع قلبي فرحاً بما
قسمته لي من حظ . . .

كاهن . . . كاهن انا ! واي عظيم على الارض يعلو الكاهن ؟
وكانت اضواء الشوع تنعكس على وجه الميت الشاب ،
فبدا كأنه منتعش مفيق باسم ، فخيّل الى لوسيان انه سامع من
شفتيه المسلوقة اللون ، هذه الكلمات تعرفه ضعفه وذله فتلهب
غيرته وحبه وايمانه :

هو الكاهن مسيح آخر !

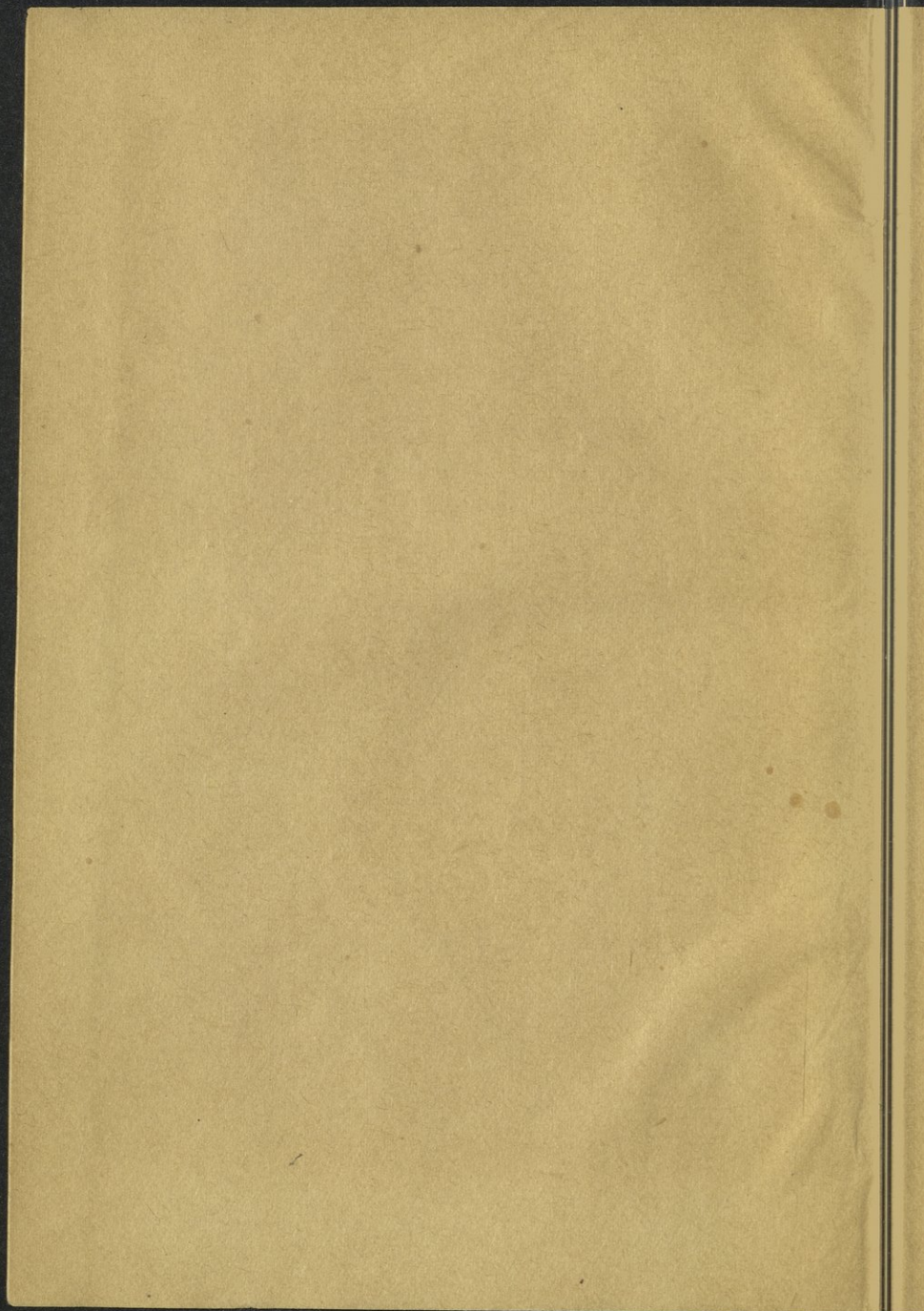
وما من عظيم على الارض يعلو الكاهن !

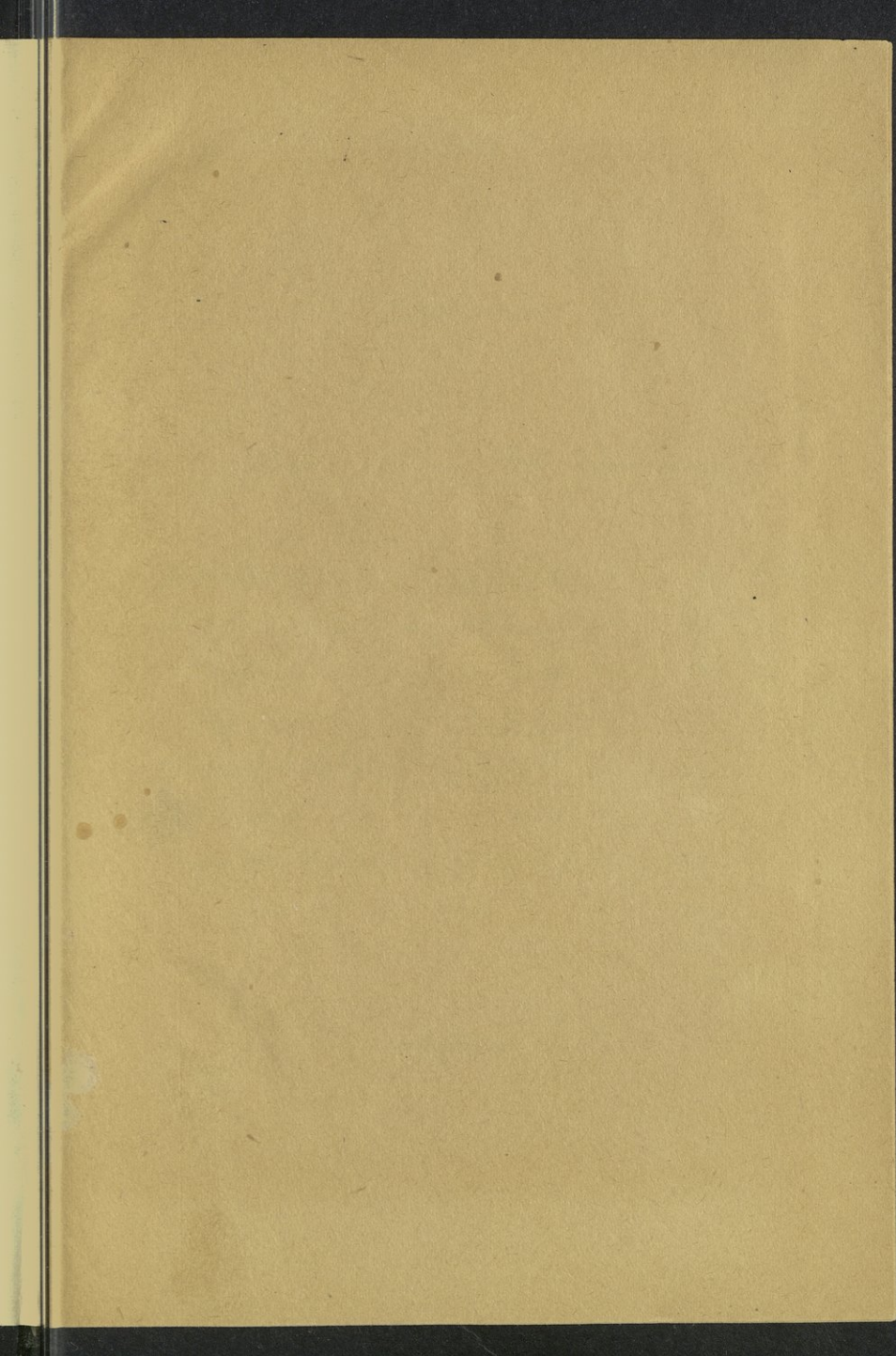


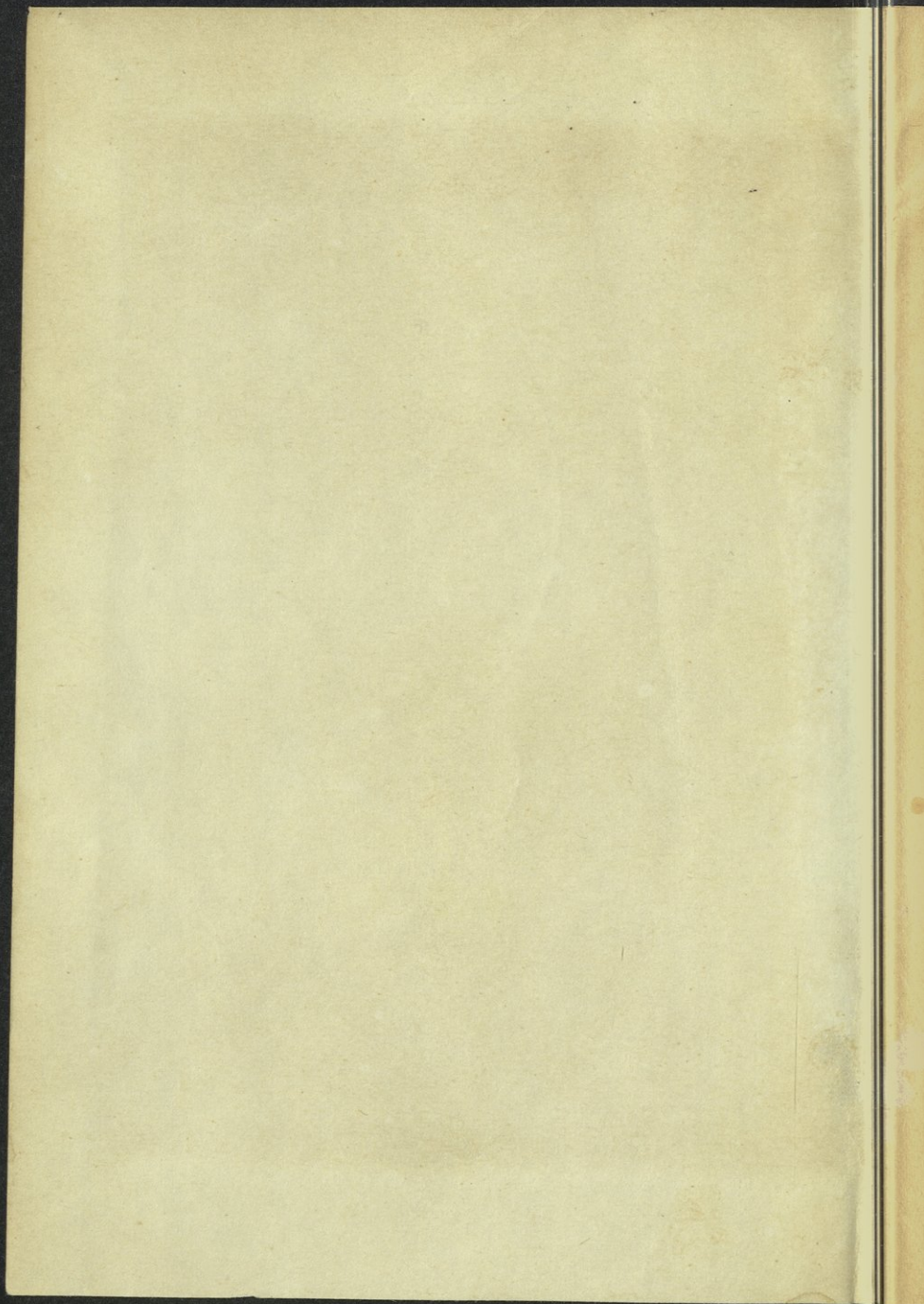
تصحیحات

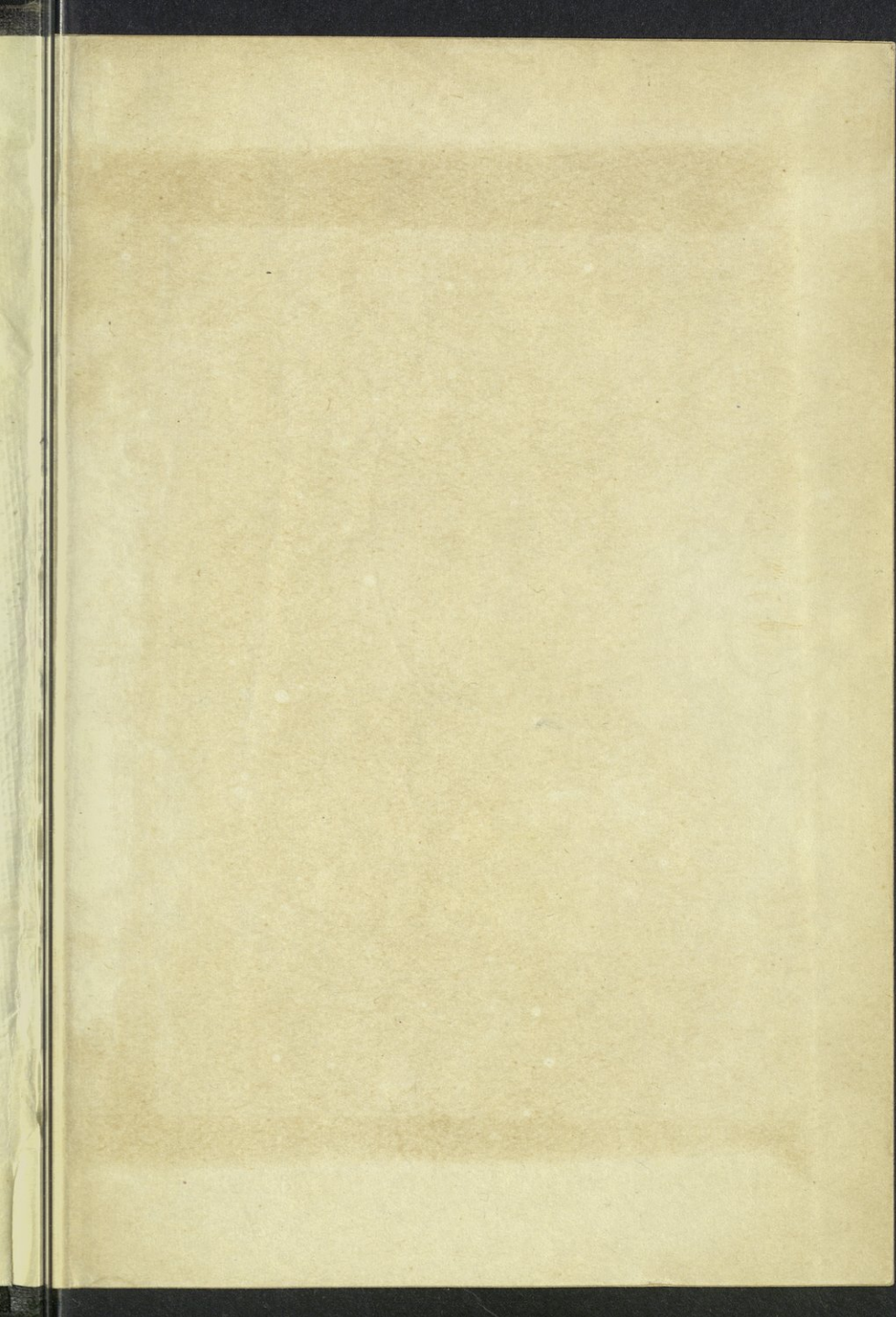
صفحة	سطر	خطا	صواب
٩	١٦	الله أن أعيش	الله منه ما اعطاك فاعيش
١١	١٠	سمعت الولد مرات	سمعت مرات ان الولد الذي
٢٥	٢٠	حا منبأ جياً	حباً مناجياً
٣٢	١٦	من يعيها	منهم يعيها
٥٤	١٦	كما يتفرغ فيها	وضعها في اول السطر السابق
١٢٥	٤	جداره	جواره
١٢٧	٢	فوق عقيلة ريثيار	فراى عقيلة ريثيار بوجهها
١٣٤	٥	بعدها	بعده











843-VBBKAS-0
غانم، ياسين
خطبتها
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032171

American University of Beirut



843
VBBKAS-0
General Library

